حارث طه الراوي

من ذكرياتي الأدبية



من ذكرياتي الادبية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

من ذكرياتي الأدبيّة

تأليف

حارث طه الراوي

بغداد ١٩٨٦م

تمهيد

منذ فجر شبابي، وجدتني مدفوعاً برغبة جامحة لا إلى مصاحبة كتب الأدب وحسب، بل إلى مرافقة أصحابها أيضاً. فكنتُ أبحثُ عن المؤلف بالرغبة الجامحة نفسها التي أبحث فيها عن الكتاب، لأنّ المؤلف وكتابه، كانا في نظري وجهين لعملةٍ واحدة. . .

أما الكاتب الراحل فكنتُ أبحث عن كتبه برغبةٍ تفوقُ في جموحها، رغبتي في البحث عن كتب سواه، كأنيّ أُعوّضُ بهذا الاندفاع عن لهفتي لرؤية وجهه الغارب كما حدث لي بالنسبة إلى جبران خليل جبران. . .

فكنتُ أتراسل، ولا أكلّ من المراسلة مع روّاد الفكر والأدب، وأسافر إليهم حيثما كانوا، ولا يعيقني عن السفر عائق إلاّ وذلّلته!. . حتى إذا التقيت بأحدهم تركتُ لأحاديثي معه مجالاً في دفتر ذكرياتي، وفي حالة نشر هذه الذكريات في الصحف والمجلات أرسم للأديب صورة دقيقة تقرّبه إلى كل من لم يره، تفتح نافذة واسعة على دخيلة نفسه، وسجيته التي قد يسترها عن الناس. . .

ولم أكن، في كل ذلك، لأقوم بمهمة المحرّر الصحفي الذي يقابل

ويسجّل وينشر ما سجله، ذلك لأن مهمتي كانت أبعد من هذه المهمة، وأعمق لأنها ترافق الأديب في سياحاته الفكرية وفي النقاش الذي قد يحتدم بيني وبينه حول مواقفه الفكرية أو العقائدية أو حول ذوقه الأدبي ونظراته إلى الأدباء... ولهذا لم أكن جهاز تسجيل لأني كنتُ منصرفاً إلى النقاش والتعليل، فكنتُ بالتالي صديقاً صادقاً مع هؤلاء رغم فارق السن مع بعضهم...

وقد صدق المرحوم الأستاذ علي الخاقاني في إشارته إلى هذه الناحية عندي في ترجمته لي بكتابه «شعراء بغداد»[1] بقوله عنيّ:

«... فصار يألف الكبار من الأدباء ويألفونه...».

«... وارتضى صحبته المشاهير من الشعراء...».

* * *

وعلاقتي بالأدباء كانت ولم تزل قائمة على المبادىء لا على المزاجيات، أي على الاشتراك في أفكار أساسية ألا وهي مقاومة الاستعمار والصهيونية والاستغلال والسعي الحثيث الصادق إلى وحدة الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. فإذا وجدتُ انحرافاً في الأديب عن هذه المبادىء الأساسية فلا تشفع له منيّ صداقة لأن العقيدة أولى بالرعاية. وليس الخلاف بيني وبين أستاذي الأول ميخائيل نعيمة ـ الذي أحبّه وأُجلّه وأحترمه ـ إلاّ صورة من صور تغليب العقيدة على الصداقة عندي...

* * *

(١) الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ١٩٦٢، ص ٣٩٦.

إن كتابـي هذا يضمّ بين دفتيه بعض ذكرياتي الأدبية التي بدأت بتدوينها منذ ثلاثين سنة ولم يدر بخلدي أنها ستصبح ذات قيمة وثائقية كبيرة ومادة أولية مهمة لدراسة الأدب العربـي الحديث، حتى وجدتني أعيد النظر فيها وأتأمل جوانبها وإذا بها مجموعة وثائق أدبية لا يمكن أن يستغني عنها دارس للأدب والأدباء فضلاً عن الثناء الذي أمطرني به الكثيرون من أخواني الأدباء على أثر نشر بعض فصول هذا الكتاب في مجلة «الأديب» البيروتية. وبهذا الدافع العام البعيد عن الدافع الشخصي وما يصاحبه من تسليط أضواء على الذات، أتقدّم بكتابـي هذا إلى المعنيين بشؤون الأدب والأدباء من قراء وباحثين. والله تعالى من وراء القصد.

بغداد في ٩ شباط ١٩٨٠

حارث طه الراوي

كيف سمعتُ بأبي ماضي؟

أذكر أني كنتُ أسير ذات يوم من أيام أواخر الثلاثينات، في حديقة منزلنا، مع والدي ـ رحمه الله ـ وكان يترنّم بالبيت التالي:

رآها يحل الفجر عقد جفونها
ويلقي عليها تبره فيذوب

فسألته عن اسم صاحب هذا البيت ـ ولم أكن أعرف عن الشعر والشعراء أكثر من معرفة الصبيان ـ فأجابني:

ـ إيليا أبو ماضي، الشاعر العربي الذي ما يزال مغترباً في أميركا.

وكما أن طيف الحبيب الأوّل لا يتلاشى من الذاكرة، ولا يبرح القلب والوجدان، رغم تعاقب الأحبّة وتأثير الناسخ على المنسوخ، فكذلك حكاية البيت الأوّل...، فما كاد عقلي الظاهر يتلقّف هذا البيت حتى أسلمه إلى عقلي الباطن...، وربما يكون سرّ إعجابي بأدب المهجر وتأثري به، فيما بعد، راجعاً إلى الهزّة الوجدانيّة الأولى التي سجّلها مرصد العقل الباطن!

□ □ □

كيف عرفتُ محمود أحمد السيّد؟

كان المرحوم والدي في فترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٧ سكرتيراً لمجلس الأعيان العراقي. وكان رائد القصّة العراقيّة المرحوم محمود أحمد السيّد سكرتيراً لمجلس النوّاب. وهكذا تجاوروا بحكم الوظيفة ونشأت بين الأديبين صداقة ومودّة.

كان «السيد» يسكن في الأعظميّة ووالدي في كرادة مريم. وخلال الثلاثينات، ولا أذكر السنة بالضبط، اصطحبني والدي لزيارة صديقه محمود أحمد السيّد في منزله بالأعظميّة، فرأيتُ رجلاً أسمر اللون، مستدير الوجه، عريض الجبهة، يلمع على رأسه شعرٌ حالك السواد وقد اتجه به المشط إلى الوراء. تشعّ في هذا الوجه عينان سوداوان كبيرتان. وكان «السيّد» يومئذٍ حليق الشارب، يرتدي ثياباً ناصعة البياض...

كان رزيناً يتحدّث بهدوءٍ تام وبأسلوب الدبلوماسيين المتريثين لا بأسلوب الأدباء المتدفقين...

وأذكر أن والدي أقام سنة ١٩٣٧ دعوة عشاء على السمك المشوي «المزكوف» وذلك على شاطىء دجلة في أعماق كرادة مريم، تكريماً لبعض أصدقائه من الأساتذة المصريين كالمرحوم السنهوري والمرحوم زكي مبارك وغيرهما من رجال الفكر والأدب وكان صديقه محمود السيّد من المدعوين. ورأى والدي أن يكون ركوب الزوارق من الأعظميّة في

شمال بغداد إلى الكرادة في جنوبها حيث تتهادى الزوارق باتجاه سير دجلة فتحقق للمدعوين متعة جميلة في هذه النزهة النهريّة. فاعتذر المرحوم «السيّد» عن المشاركة في ركوب الزوارق لأنه يخاف من احتمالات الغرق لعدم إجادته للسباحة.. وسبق المدعوين إلى محل الدعوة بالسيّارة!

وفي تلك السنة بالذات مات محمود أحمد السيّد ـ الأديب الذي يخشى احتمالات الموت. ولكنه لم يمت غرقاً وإنما ذهب إلى رحمة ربّه على أثر عمليّة جراحيّة بسيطة لاستئصال الزائدة الدوديّة أجريت له في القاهرة حيث دُفن فيها. ورحم الله القائل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعدّدت الأسباب والموت واحدُ

□ □ □

كيف عرفتُ جبران؟

في ليلةٍ من ليالي ١٩٤٣ امتدّت يدي إلى درج في خزانة قديمة من مكتبة والدي، وشدّت أصابعي الفتيّة على كتابٍ تمزّق غلافُه وتمزّقت بعضُ أوراقه. وما كدتُ أطالعه حتى استهواني خيال مؤلفه وأطربتني استعاراته الجديدة ذات الأنغام الموسيقيّة الشجيّة وألهبتني أفكاره الثائرة المتمرّدة... فكان هذا الكتاب «المجهول الهويّة» كتاب الوسادة...

كنتُ أتحرّقُ شوقاً لمعرفة اسم الكتاب واسم مؤلّفه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

حدث أن قامت مدرستنا المتوسطة بسفرة مدرسيّة إلى البصرة كنتُ من المشاركين فيها وذلك في شتاء ١٩٤٥ فأتيح لي أن أشتري كتاباً من الكتب المطروحة على الأرض في مدينة الجاحظ... وذلك في الثالث عشر من شباط ١٩٤٥. وكان الكتاب كتاب «العواصف» لجبران خليل جبران. وما كدتُ أشرع بقراءته حتى اتضح لي بأنه نسخة جيدة من الكتاب الممزّق الذي أشرتُ إليه. ومنذ ذلك التأريخ تتلمذتُ على جبران الذي بذَرَ في قلبي الفتيّ بذور الثورتين: الاجتماعيّة والأدبيّة. فقد علّمني أن الاستئثار والظلم وخيم العاقبة، والناس سواسية، والتطوّر سُنّة تهشّم الرؤوس الزجاجيّة التي تصطدم بها. كما علّمني هذا الأديب المتفنّن أن اللغة ليست إلاّ وسيلة لغاية فينبغي أن تكون بسيطة

لكي تكون جميلة. . . ولم أكن، يومئذٍ، قد اطلعتُ على أدب عمالقة أدبائنا المعاصرين الذين يؤثرون الجملة العربيّة التي لا غبار على فصاحتها وبلاغتها كالرافعي مصطفى صادق وولي الدين يكن وشكيب أرسلان وأمين نخلة وأمثالهم. ورحتُ أنفق كلّ ما أتسلّمه من والدي من نقود على شراء كتب جبران، مهما كانت غالية الثمن، أو استئجارها من مكتبة المحلّة كما حصل لي مع كتابيه «الأجنحة المتكسرة» و«عرائس المروج». . .

وفي اندفاعي الشديد نحو الأدب الجبراني لم أكن لأفرّق بين البلاغة الأصيلة وبين الجعجعة اللغويّة الفارغة!، فالبلاغة ينبغي أن تكون جبرانية وإلاّ فهي جعجعة لغويّة!!

□ □ □

كيف عرفتُ الريحاني؟

خلال عام ١٩٤٤ ـ وكنتُ يومئذٍ من تلاميذ الدراسة المتوسطة ـ جاء أستاذنا الراحل ناصر الحاني مدرّس اللغة العربيّة إلى صفنا وبيده كتاب «بلاغة العرب في القرن العشرين» لجامعه محيي الدين رضا، وأخذ يتلو على مسامعنا قطعة «تحت الرماد وفوق النجوم» لأمين الريحاني. فأطربني وهزّني واستهواني قول الريحاني:

«تحت الرماد وفوق النجوم، ما لا تراه مما يدوم.

رأيتُ فضيلة اليوم تجرّ أذيال الفخر والتبجح في شوارع الرياء وفي أزقّة الورع والقداسة فكرهتها نفسي.

ورأيتُ ما يسميه الناس رذيلة تقضي حياتها في ظلمات السكون والكتمان وراء ستار الخمول والنسيان فحنَّ إليها فؤادي.

لِـمَ إذن نبغض الأشرار؟، ولِـمَ إذن نكرّم الأبرار؟

لماذا نميل وجهنا عن الفقراء الأذلّاء ونعفّره أمام الأغنياء والأمراء؟

إن عليّة القوم أوطاهم أيها الأخوان، فاحذروا من تكرهون ومن تحبّون، من تحتقرون ومن تجلّون.

وغداً ينير الله قلوبكم فتعرفون الحق وتعبدون.

لا والله أنا لا أشمخ بأنني على أصغر صعلوك ولا أعفر وجهي أمام أكبر الملوك.

إن تحت الرماد وفوق النجوم ما لا تراه مما يدوم...».

واستعرتُ الكتاب من أستاذي لأستزيد من قراءة الريحاني وبقيّة أخوانه من أدباء المهجر الذين أصبحوا شغلي الشاغل فيما بعد...

وبعد ١٤ سنة من لقائي مع الريحاني ببلاغة القرن العشرين، نشرتُ عنه كتاباً تناولتُ فيه جوانب شخصيته وأثره في نهضة العرب. وبعد نشر الكتاب في سنة ١٩٥٨ تكشَّفت لي جوانب كثيرة من وثبات الرجل وعثراته ومحاسنه ومثالبه ستعينني على رسم الصورة الحقيقيّة الدقيقة له في المستقبل إن شاء الله.

□ □ □

كيف عرفتُ مصطفى كامل (باشا)؟

في سنة ١٩٤٤ وفي درس المطالعة العربيّة تلا علينا أستاذنا بدوي طبانة خطبة لزعيم مصر الثائر مصطفى كامل (باشا) في حب الوطن ومقارعة المستعمرين. فكانت الخطبة بليغة من حيث الشكل، مثيرة من حيث الموضوع، فهزّتني وألهبتني. فاستهواني وملكَ فؤادي هذا الزعيم الشاب الأديب الخطيب منذ ذلك التأريخ. وكانت أقصى أمنية لي هي أن أطّلع على كتاب فيه شيء عن حياة مصطفى كامل.

ولم يكد والدي يخبر صديقه الحميم المرحوم عبدالله المؤيّد النقيب عن شغفي بمصطفى كامل حتى زوّدني العمُّ النقيبُ ـ رحمه الله ـ بكتاب «حياة مصطفى كامل» لعلي فهمي كامل بأجزائه الأربعة. فكان كتاب الوسادة في الليل وسميري الوحيد على أرائك شارع أبي نواس الخشبيّة...

وهكذا وجدتُ في سيرة مصطفى كامل الزعيم العربي الثائر على الاستعمار الانكليزي متنفساً لكرهي الشديد للانكليز، ذلك الكره الذي تبلور سنة ١٩٤١ عندما شبّت ثورة الزعيم الراحل رشيد عالي الكيلاني وهبَّ الجيش العراقي الباسل للدفاع عن الوطن.

وبالرغم من أني لم أكن لأتجاوز الثانية عشرة من عمري آنذاك فقد تجاوبتُ مع ثورتنا الجريئة تجاوباً تامّاً. وكنتُ أتجاوب مع كل أعداء

الانكليز حتى النازيين، لا لأني أحب النازية، بل لأنهم أعداء لأعداء وطني الانكليز حتى أني نظمتُ أوّل قصيدة في حياتي سنة ١٩٤١ ـ وكانت متعثرة في أوزانها طبعاً ـ في وصف بطولة روميل عندما طارد الانكليز إلى العلمين. . . ، ومن الطريف أني وضعتها تحت وسادتي. ولا أدري لماذا طاب لأبي ـ رحمه الله ـ أن يضطجع على سريري عندما كان يستمع إلى شقيقي هاشم وهو يتلو عليه بعض الفصول من كتابٍ أدبي، ولا أدري لماذا دسّ والدي يده تحت الوسادة فاصطدمت أنامله بورقة القصيدة. وما كاد يطّلع عليها حتى حذّرني من اللعب بالنار في تلك الفترة العصيبة من تأريخ العراق. . .

□ □ □

كيف عرفتُ محمد علي الحوماني؟

في ربيع سنة ١٩٤٥ زار الشاعر الصحفي اللبناني المرحوم محمد علي الحوماني منزلنا المستأجر في محلة «العيواضية» ببغداد، فلم يجد والدي. فطلب منيّ أن أدلّه على بيت الأديب الصحفيّ المرحوم رفائيل بطّي، وكان يومئذٍ في شارع الزّهاوي.

كان الحوماني ـ رحمه الله ـ يرتدي الملابس الفرنجيّة من غير تفريط باللباس العربي. فقد كان يتوّج رأسه بالكوفيّة والعقال. ولم تكن الكوفيّة البيضاء المنحدرة على جبينه لتقلّل من هيبة ذاك الجبين البارز الذي يكوّن، مع الأنف الطويل المستقيم، والعينين السوداوين المشعتين، صورةً جميلةً لشاعرنا الجوّاب.

ذهبنا إلى منزل رفائيل ماشيين. ودارت بيننا، في الطريق، أحاديث أدبيّة ممتعة. ولما لمس الحوماني نزعتي الأدبيّة سألني فيما إذا كنتُ أقرضُ الشعر، ولما أجبته بالإيجاب طلب منيّ أن أنشده شيئاً من شعري... فوضعني مع الخجل وجهاً لوجه... إذ لم أكن أملك من القريض، يومئذٍ، سوى بيتين في الغزل وآخرين في الأخوانيّات. فأنشدته بيتي الحب التاليين:

الـرّيـح تـدوي والـمـيـاهُ تـثـورُ
والـقـلـب يـغـلي دمّـه فـيـفـورُ

والصبّ يلهي النفسَ دوماً بـالـمنى
فيشيـعُ في القلبِ الـحـزينِ حبـورُ

فقال ـ رحمه الله ـ:

ـ يجب أن تستبدل كلمة «تدوي» بأخرى لأن حقّها التشديد، فإن شدّدت فالوزن، عندئذٍ، يختل.

ولما سألتُ الحوماني عن جبران أخبرني بأنه شاهده في نيويورك في حفلةٍ أقامتها الجالية لتكريمه ـ أي الحوماني ـ وكـان جبران صـامتاً لا يتكلّم! ثم أردف الحوماني قائلاً:

ـ لقد كان جبران ـ رغم ما عرف عنه من أفكار وكتابات روحيّة صوفيّة ـ غارقاً في المادّة إلى أُذُنيه! وقصصه مع النساء معروفة. وكان يتأنق إلى درجة عجيبة بحيث لا يملّ من الوقوف أمام المرآة أكثر من نصف ساعة ليجيد تمشيط شعره ويُحكم شدّ ربطة العنق بالشكل الفنـيّ الأنيق الذي يرضي ذوقه!...

وكانت هذه أوّل صدمة أفاجأ بها عن جبران قبل مطالعتي لكتاب نعيمة عنه...؛ وبلغنا منزل رفائيل، ولما فتحوا لنا الباب اتجهنا إلى غرفة الاستقبال فوجدنا رفائيل بطي يُملي على الأديب نجدة فتحي صفوة مقدّمة لكتاب نجدة عن أبـي ماضي. وبعد تبادل التحيّات والتمنيات، تطلّع الحوماني إلى صورة فنيّة لامرأة غزيرة الشَّعر تتأمّل في الأرض، وقال لرفائيل:

ـ ألم تنظم قصيدة في هذه الصورة؟

ـ كيف أنظم قصيدة على قصيدة؟!

□ □ □

الـرصافي كمـا رأيتـه

كان الرّصافي ذا شخصيّة جبّارة مهابـة، وقد طغى جبـروتُ شخصيته على جبروت شاعريته. وما أكثر الذين يمزجون ـ بدوافـع عاطفيّة ـ بين شخصيته وشاعريته فيتوهمون أن ما ناله الرصافي من مجدٍ باذخ وشهرة عريضة وذكرٍ عطر إنما يرجع إلى كونه «شاعر العرب الأكبر» أو «أمير الشعراء» إلى غير ذلك من الألقاب التي خُلعت على شاعرنا مثلما خُلعت على غيره بسخاء حاتميّ. والحقيقة التي لا خلاف فيها ولا جدال أن معروف الرصافي قد فرض شخصيته الصلبة المتماسكة على العصر، فكان صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة، وكان جريئاً إلى أبعد حدود الجرأة. وقد دفعَ الرجلُ ثمن صراحته وجرأته، وكان الثمن باهظاً ولكن الرّجل واصل تسديده حتى النَفس الأخير من حياته النقيّة...

ولئن صوّره البعض ـ لأغراض لا تخفى على اللبيب ـ جحوداً لنِعَم أسياد زمانه وألطافهم... الأسياد الذين لم يتردّدوا عن تهيئة بعض أسباب الحياة الرافهة لشاعرنا الحر المتقشف، فكيف فات على ذكائهم أن الغاية من هذه المحاولات إنما تكمن في إسكات صوتٍ مدوّ. فكان من المتوقّع جداً أن يجابه صاحب هـذا الصوت هـذه المحاولـة اللئيمة بالرفض...

* * *

اصطحبني المرحوم والدي لزيارة صديقه الرصافي مرتين. الأولى في منزله في الفلوجة، وذلك في أواخر الثلاثينات والثانية في مساء السادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٢ حيث زرناه في منزله بالأعظمية. فكنتُ أتأمّل في هاتين الزيارتين قامته الشامخة ومنكبيه الواسعين ووجهه البرونزي الرّهيب وأسمع صوته الشبيه بالزئير فأحسّ، وأنا الصبي الضئيل، بأني أمام عملاق أُسطوري!...

إن هيئة الرّصافي الصارمة تدعو إلى الاحترام المشوب بالخوف أكثر مما تدعو إلى المحبّة والاطمئنان، وهو يجسّم الجدّ والوقار في حديثه. أما الذين أتيح لهم أن يشهدوا مرح الرصافي وابتعاده عن الوقار في مجالس الكأس والأنس، فإني أحسدهم!...

شهدتُ في معتزل الرصافي بالفلوجة جدلاً عنيفاً حول بعض القضايا اللغويّة بين الرصافي ووالدي. وكان والدي يصرّ على رأيه ويتمادى في تعزيز حججه فيجبهه الرصافي بحجج وإصرار وتصلّبٍ لا يلين. حتى أخذ الرّصافي يزأر زئيراً رهيباً، وخُيّل إليّ أن القطيعة ستباعد بينهما!..، وما هي إلاّ دقائق حتى انقشعت سحابة الصيف وعاد الجوّ الأخويّ الهادىء إلى تلك الجلسة...

وفي مساء ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٢ اصطحبني والدي لزيارة الرصافي في منزله بالأعظميّة. فرأيتُ الرّصافي جالساً على أريكة خشبيّة مغطاة بسجادة قديمة متواضعة وهو يرتدي الملابس العربية من كوفيّة (يشماغ) وعقال وجلباب وعباءة ويتطلّع إلينا بعينين مكدودتين تفصحان عن مأساة الرصافي وآلامه النفسيّة الضارية... وكان ضيف الرّصافي المرحوم عبداللطيف ثنيّان صاحب جريدة «الرقيب» التي كانت تصدر في

بغداد سنة ١٩٠٨ جالساً في صدر الغرفة متكئاً على عصاه ذات القبضة الفضيّة...

كان معروف الرّصافي قد تسلّم قصيدة طه الراوي التي أرسلها إليه بيد مصطفى علي، تلك القصيدة التي أشاد فيها بالرّصافي وأجزل الثناء عليه وعاتبه عتاباً رقيقاً على سكوته وهجره للقريض. فأجابه الرصافي بقصيدة تقع في ٢٤ بيتاً أشاد فيها بالراوي وبالشعر وندّد بساسة ذلك الزمن الذين خنقوا الأصوات الحرّة وكبّلوا الفكر الحر. وقد أنشدنا الرّصافي قصيدته قبل تسليمها إلى الرّاوي، بصوته الجهوريّ المتهدّج فأطربنا وأثار ألمنا على حالة الشاعر الحر الذي يأبى أن ينشد شعراً في مأتم الفكر الحر. وفيما يلي نص قصيدة الرصافي:

إليـكَ يـا مصـطفى غـرّاء شـاردة

ضمّنتهـا من شجـون النفسِ ألـوانا

أبـلغ أبـا هـاشم[1] عنّي مـغلغلة

يعـجّ فيهـا القـريض الغضّ شكـرانـا

قـد جاءني مصـطفى منكم بمألكـةٍ

تحكي الفـريـد وإن فـاقته أثمـانـا

فضمّـدت لي جرحـاً غيـر منـدملٍ

وهيّجت في سـواد القلبِ أشجـانـا

إني عهـدتـك حـرّ النفس، متخـذاً

لـكَ العـلا مأربـاً والصـدق ديدانـا

(١) طه الراوي.

أحسنتَ ظنّـكَ بـي إذ جئتَ تمـدحني
بمـا بـه زدتَ حسنَ الـظنّ إحسانـا

ظننتني قـد هجـرتُ الشعـرَ مـذ زمنٍ
وهـل أطيق لحبّ النفسِ هجـرانـا

ذاكَ الحبيب الـذي أوسعتـه مقـةً
منّي وصيّـرتـه للمجـدِ عنـوانـا

قـد شفّني حبّـه حتّى هجـرتُ لـه
طيبَ المنـام وبتُّ الليـلَ سهـرانـا

أصحـو إذا هـو يصحـو طول ليلتـه
وأنـتشي مـثله إن بـاتَ نـشـوانـا

سله إذا شئتَ عنّي، هـل رأي أحـداً
سـواه لي في ارتشاف الكأس ندمـانا

إنّ الهمـوم بصـدري إن هي اعتلجت
لـم ألـفَ إلاّ بـه عـنـهـنّ سلوانـا

وإن شـدوت بـه في الحفـل مفتخراً
أوقعتُ فيـه من الـعليـاء ألـحـانـا
مـا زلتُ منه بـأفكـاري على صلةٍ
صـدري يجيشُ بـه كـالبحرِ أحيـانـا

لـكنني الـيـوم آبـى أن أبـوحَ بـه
في معشـرٍ أوغلوا في المين طغيانـا

يـستـنكـرون مـن الأحـرار لهـجتـهم
ولا يـقـيـمـون لـلأفـكـارِ أوزانـا

وكيف أُنشـدُ شعـراً فـي سـواسيـةٍ
شـدّوا الخنـاقَ بـه بغيـاً وعـدوانـا

وأيّ مـعنى لشـعـرٍ في ذوي صـلفٍ
لا يفسحـونَ لحـرّ الفكـرِ ميـدانـا

وهـل يـجـوزُ وقـد رامـوا تبـذّلـه
أن لا أكـونَ عليـه اليـوم غيـرانـا

هم أنكـروا مـوقفي فيـه وهم علمـوا
أنّـي رفعـتُ بـه لـلمـجـدِ بـنيـانـا

فـاقبل أبـا هاشمٍ في الشعـر معذرتي
أدامـكَ الله لـلأحـرار مـعـوانـا

خـذهـا أبـا هـاشمٍ بِكـراً مخـدّرةً
جـاءت كذهنـكَ في الإبـداع بـرهـانـا

تـطابقَ اللفظ والمعـنى فـكـان بهـا
كـالزّهـرِ في الـرّوضِ فـوّاحـاً وريّـانـا

□ □ □

مع أحمد الصافي النجفي

في صباح اليوم العشرين من تموز **١٩٤٩** ركبتُ سيّارة الأجرة المسماة بـ (البوسطة) بلهجة أهل لبنان العاميّة متوجهاً من (بحمدون ـ المحطّة) إلى (بيروت). وما كادت السيّارة تطوي بضعة أمتار حتى لمحتُ في مقهى ملهى (طانيوس)[١] رجلاً يرتدي الكوفيّة والعقال، يشبه الشاعر أحمد أحمد الصافي النجفي كما رأيته مراراً في صوره المنشورة في الصحف. فتلهفتُ إلى التعرّف إليه وطلبتُ من الجابي أن يرجو من السائق إيقاف السيّارة لأنزل منها!، فسلّط الجابي عليّ نظرة لا تخلو من الذهول والدهشة وأعاد الأجرة إليّ ولسان حاله يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون...

تركتُ الجابي يصارع ذهوله واتجهتُ بشوقٍ متكاثرٍ إلى الرجل الذي يشبه الصّافي في صوره المنشورة في الصحف وحييتُه وسألتُه:

ـ هل أنتَ شاعرنا أحمد الصّافي النجفي؟

ـ أجل. ومن أنت؟

ـ حارث طَه الراوي.

ـ أهلاً. أهلاً. تفضّل. تفضّل اجلس.

---

(١) أصبح المقهى المذكور، مع الملهى، خبراً بعد عين وذلك بعد فتح الشارع الجديد.

كان الصّافي منهمكاً بنظمِ بيتين على إحدى حواشي جريدة يوميّة، وما كدتُ أجلس إلى جواره حتى أتمهما. فطلبتُ منه أن يتلطّف بتسجيل البيتين في دفتر مذكراتي الصغير، فما تردّد في تسجيلهما بعد أن قدّم لهما بالمقدّمة التالية:

«ما كدتُ أنتهي من نظم هذين البيتين في مقهى بحمدون وأسجّلهما حتى طلعَ عليّ الشاب الأديب النجيب حارث الراوي غصن دوحة أبيه التي ملأت جنان الأدب بأثمارها، فكأنّ هذين البيتين كانا طليعة ورائد قدومه. وقد رغبَ إليّ أن أسجلهما له ذكرى لمعرفتنا، وفّقه الله لخدمة أمته ووطنه وعروبته ودينه. وهذان البيتان:

على المرءِ أن يسعى إلى الفهم والحجى
وليس عليه أن يكونَ أخافهمِ
لئن كنتُ عن نيل العلومِ مقصّراً
فما نالني التقصير عن طلب العلمِ»

ولما علم الصافي أنني كنتُ قاصداً بيروت قبل أن ألمحه وأخفّ إليه، سألني عن الوجهة التي أقصدها في بيروت، فأخبرته أني أقصد «بهيج عريضة» ـ ابن عم الشاعر المهجري نسيب عريضة ـ في محلّه التجاري بشارع «فوش» لعلّني أستطيع الحصول على نسخة من ديوان «الأرواح الحائرة» من بهيج ومن ثـمَّ أتصلُ هاتفيّاً، من عنده، بميخائيل نعيمة حيث يقيم في «بسكنتا».

وما كدتُ أذكر «ميخائيل نعيمة» حتى تغيّر الصافي وبدت على وجهه سماتُ الانزعاج وسألني:

ـ وماذا تريد من ميخائيل نعيمة؟

ـ أريدُ أن أراه لأروي غليل إعجابي به...

ـ إذا اجتمعتَ به فسيزول إعجابك به كما زال إعجاب غيرك!

فقلتُ له، وكنتُ يومئذٍ في ذروة إعجابي بميخائيل:

ـ هيهات أن يزول إعجابي بميخائيل نعيمة... فهو الأديب المجدّد... وهو الشاعر المحلّق... وهو الفيلسوف الذي يحيا فلسفته... وهو الإنساني الذي زَهَدَ بأمجاد العالم وقنعَ بمجد الكلمة الحيّة المجنحة... وهو... وهو...

عندئذٍ روى لي الصّافي كيف أن أحد المعجبين بأدب نعيمة وفلسفته أراد أن يؤلف كتاباً عنه، فتجشّم عناء السّفر إلى «بسكنتا» وتوقّع أن يلقى من نعيمة منتهى اللطف والظرف، إلاّ أنه ما كاد يقابله حتى مُني بخيبةٍ مريرة!، فقد قابله نعيمة بشيء من التعالي وعدم الاكتراث، فاضطر هذا المعجب إلى العودة والخيبة تعصر فؤاده، وعَدَلَ، بطبيعة الحال، عن كتابة الدراسة عن أستاذه!...

وروى الصافي لي كيف أن نعيمة قطعَ، ذات مرّة، مياه السقي عن بعض مزارع بسكنتا عندما اختلف مع أحد المزارعين!

وواصل انتقاده لنعيمة قائلاً:

ـ إن نعيمة متصنّع، فقد حفر محبرةً له في الصخر! وأنا أفضل جبران عليه لأن جبران يتحدّث بقلبه في حين أن نعيمة يتحدّث بعقله.

ولكن الصّافي اعترف بأن ثقافة نعيمة أوسع من ثقافة جبران.

وروى لي أنه ترجم أحد مؤلفات جبران العربيّة إلى الفارسيّة عندما كان مغترباً في إيران.

وأخبرني الصافي، بعد ذلك، أن صديقه «خالد الدرّة» ـ الأديب الصحفي النقّادة الشهير ـ ينتظره الآن في «فندق مجاعص» المجاور للمقهى الذي كنّا جالسين فيه، وطلب منيّ أن أصطحبه في ذهابه إلى الفندق المذكور. ولما علم بأني لا أعرف خالداً وجهاً لوجه، وعدني بأنه سيعارفنا.

وعرّفني الصّافي على الدّرة الذي سُررتُ بلقائه وسُرَّ بلقائي، ودار الحديث عن نعيمة فأيّد الدّرة انطباعات صديقه الصافي عنه، فلم أقتنع لأنني كنتُ ـ كما قلتُ ـ في ذروة إعجابي بشخصيّة ميخائيل وأدبه، فاحتدّ الصافي وقال لي:

ــ أنتَ طفل، لا تعرف الناس. وستعرفهم يوماً ما!

وبعد أن قضيتُ فترة ممتعة من وقتي بالقرب من الصّافي والدرّة، ودعتهما وانصرفتُ إلى بيروت، وما دار بخلدي أن نقاشي مع الصافي حول ميخائيل نعيمة قد أزعجه وأغضبه، وأنه سيقابل (الشاب الأديب النجيب حارث الراوي) في تموز ١٩٥١ بالطابق الأرضي من مقهى ... عفيف ببيروت وهو متجهّم الوجه، منقبض الأسارير، يحاول أن يكبح جماح تجاهله وعدم اكتراثه، فلا يفلح! فسألته عن موضع مكتب «الأخطل الصغير» بشارة الخوري في نفس البناية، وودّعته وانصرفت إلى بشارة...

* * *

وتشاء الأيّام أن تزيد في الجفوة التي حصلت بين الصافي وبيني. فقد طلب منّي الصديق «القديم» رياض طَه صاحب مجلة «الأحد» البيروتية عندما زار بغداد سنة ١٩٥٣ أن أوافي مجلته بمقالات متتابعة عن «النشاط الفكري في العراق» فذكرتُ في مقالي الأوّل[٢] تحت عنوان «ضجّة حول اتهامات الصافي» نص الاتهامات التي اتهم بها الصافي الشعر العراقي الحديث في حديث دار بينه وبين الشيخ جلال الحنفي نشرته جريدة «الحارس» البغداديّة لصاحبها الصحفيّ الأديب صبيح الغافقي. قال الصافي:

«إنني مستاء من هذا الشعر ومتشائم من مستقبله في العراق، ما دام الشعراء المحدثون قد اتجهوا في معانيه وجهة بعيدة عن العاطفة السليمة، فلا ترى في معانيه إلاّ الموت الذي لا روح فيه، وما داموا قد ابتعدوا بأسلوبه عن الأسلوب العربي الرّصين حيث صيّروه أسلوباً مائعاً مخنّثاً. وفي نفس الوقت فإن بين أولئك الشعراء من أخذوا يخدمون بالشعر مصلحتهم الخاصّة حيث بدأوا ينظمون من النواحي التي تجلب لهم أكبر عدد من المصفقين. أما الشعر فلا يكون شعراً حتى تكون العاطفة هي التي تمليه وحدها».

وقد استفزني اتهام الصافي هذا بصفتي من المساهمين، بشكلٍ من الأشكال، في التجديد الشعري في العراق آنذاك ومن أوائل الذين نسجوا الشعر الحديث على منوال الشعر الحر في تلك الأيام. فنشرت لي «الأحد» في عددها المشار إليه الرد المتطرّف الطريف التالي الذي تطغى عليه اللهجة الحقوقية...، فقد كنتُ آنذاك طالباً في «كلية الحقوق»:

---

(٢) مجلة «الأحد»، العدد ١١٩، ١٥ آذار ١٩٥٣.

«إن الاتهام الباطل، الخارج عن حدود حسن النيّة والثقة المتبادلة بين الناس، يصلح سنداً لاتهام المدّعي!

والمدّعي شاعر عراقي يتهم أخوانه شعراء العراق بلا حجة دامغة ولا دليلٍ ماديّ. لهذا فإن دعواه غير مسموعة في (محكمة الشعر العربي المعاصر)!

ومن أين يأتي المدّعي بالحجّة، وقد حكم كبار نقّاد العربيّة وشعرائها بأن شعراء العراق المعاصرين هم شعراء الطليعة. وقد صدرت هذه الأحكام من (محكمة التمييز الأدبيّة) التي يكفي أن أذكر من أعضائها طه حسين والأخطل الصغير وميخائيل نعيمة.

أيستطيع الصّافي النجفي أن يدحض حجج هؤلاء وأمثالهم؟ — هيهات أن يستطيع ولو أضاف عشرات القصائد إلى قصائده التي هاجم فيها كبار النقّاد في ديوانه «شرر»!

ولا أدري لماذا تنكّر الصّافي لاخوانه شعراء العراق؟ ـ ألأنه يترنّم في برجه العاجي وهم يصدحون للشعب بين أحضانه؟ أم لأنهم لا يقدّسون أنفسهم كما يقدّس الصافي نفسه ويشيد بعبقريتها؟ أم يا ترى لأنهم أدركوا أن للشاعر رسالة إصلاح إيجابي، وهو الذي ينوح على أطلال سلبيته؟».

كان هذا ردّي عام **١٩٥٣** على رأي الصافي في الشعر الحديث وشعرائه في العراق. وكان من البدهي أن يغضب الصّافي ويحتدم. وقد لمستُ غضب شاعرنا عندما زرتُ الصديق ألبرت الريحاني في دار الريحاني للطباعة والنشر ببيروت صيف **١٩٥٦**، وما كدتُ أدخل غرفته حتىَ

هـمَّ الصّافي بالخروج وانطلق بسرعة مذهلة!، وكان من جملة الحاضرين الصديق الأديب الشاعر وديع ديب الذي سألني وهو من الذهول في ذروة شاهقة:

ـ هل حصل ما يكدّر بينك وبين الصافي، فقد خرج الرجل بصورة غريبة على أثر دخولك؟!

فذكرتُ له خلاصة جدلي معه حول ميخائيل نعيمة في تموز ١٩٤٩، وما دار بخلدي ردّي الصريح اللاذع الآنف الذكر الذي نشرته «الأحد».

وإذا كنتُ لم ألتقِ بالصافي منذ أكثر من عشرين سنة لأزيل مسببات الجفوة في نفسه الصافية الحساسة فإني ما زلتُ أشعر بحب عميق تجاه هذا الشاعر الوجداني المبدع الشريف الذي أعتبره بحق غاندي شعرائنا المعاصرين لما فُطر عليه من زهدٍ صادق وعزوفٍ صريح عن الماديّات ومغرياتها مع رسوخٍ في العقيدة وثباتٍ على المبدأ. ولعلّ صديقي الوفّي الأستاذ نزار الزين صاحب مجلة «العرفان» الغرّاء ـ وهو من أقرب المقربين لدى الصّافي ـ قد أزال غضب الصافي من شطحات هذا القلم الصريح. فما زرتُ بيروت، في السنين الأخيرة، إلاّ وتركتُ للصافي بطاقة تحيّة عند الزين. وما راسلتُ الزين إلاّ وأرسلتُ تحيّة من أعماق القلب لشاعرنا الصافي، رحمه الله.

□ □ □

مع محمّد كردعلي

في السابع من آب ١٩٧٣ وقفتُ في ساحة مجمع اللغة العربيّة بدمشق وأنا أحاول أن أكبح جماح عبرات ترقرقت بل تأججت في عينيّ عندما رأيتُ لوحةً مثبتة بالجدار تحمل الكلمات التالية: «قاعة الأستاذ الرئيس محمد كردعلي»، فعادت بي الذكرى إلى ٢٤ عاماً إلى الوراء... إلى آب ١٩٤٩ عندما أتيح لي أن أقابل أستاذ الجيل المرحوم محمد كردعلي في غرفته المقابلة للقاعة التي تحمل اسمه الكريم في الوقت الحاضر...

إنها دمعة الوفاء يهديها القلب إلى العين لتقدّمها هدية متواضعة لأرواح العظماء الراحلين...

قبل أن أسافر إلى سورية ولبنان في صيف ١٩٤٩ أوصاني الأستاذ مصطفى علي، صديق المرحوم والدي، أن أحصل من المجمع العلمي العربي بدمشق على نسخة من مجلّة المجمع التي نشرت مقال الأستاذ محمد بهجة الأثري عن المرحوم والدي، فانتهزت هذه الفرصة لزيارة صديق والدي الحميم الأستاذ الكريم محمد كردعلي ــ رحمه الله ــ بعد عودتي من لبنان في آب من السنة المذكورة وذلك في منزله بالروضة حيث استقبلني نجله الكبير ورحّب بي كثيراً وأجلسني في غرفة الاستقبال الواسعة المتصلة بمكتبه الأستاذ الرئيس الكبيرة، ثم ذهب إلى

والده وعاد ليخبرني أنه متوعك ويسرّه أن يستقبلني في صباح غد بمكتبه في المجمع العلمي العربي، إذا منَّ الله عليه بالعافية. . .

وجلستُ أتجاذب أطراف الحديث مع كردعلي الابن ثم نهضتُ وألقيتُ نظرةً فاحصة على مكتبة أبيه العامرة فألفيتها زاخرة بالكتب العربية والفرنسيّة القديمة. . .

* * *

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى المجمع العلمي العربي فاستقبلني الأستاذ محمد كردعلي هاشّاً باشّاً وأجلسني على كرسي بالقرب من منضدته، واستهل حديثه بالثناء الوافر على علم وخلق المرحومُ والدي. وأقسمَ أنه بكى عضوين من أعضاء المجمع بدموع سخينة أولهما المرحوم شكيب أرسلان والثاني المرحوم طه الراوي، وأشفق على مصير المجمع بعد تساقط أعضاء من هذا الطراز. وسألني عن صحة الأستاذ محمد بهجة الأثري وأثنى على علمه وكفايته.

ولما سألته عن أسباب عدم انتخاب الأديب المهجري جبران خليل جبران عضواً مراسلاً للمجمع بعد انتخاب أمين الريحاني الأديب المهجري المعروف، أجابني بما فحواه: إن المتاعب التي صادفها المجمع من انتخاب أعضاء غير متضلعين باللغة العربيّة وآدابها، قد فاقت المنافع التي جناها المجمع من ضمّهم إلى صفوفه. . .

ثم أبدى إعجابه بالأساليب الأدبيّة العربيّة المعاصرة الأصيلة

---

(١) في السابع من آب ١٩٧٣ سألتُ ابنة أخي المرحوم محمد كردعلي الموظفة في المكتبة الظاهرية بدمشق عن مصير مكتبة عمّها فأخبرتني أنها قد بيعت وأن منزله في «الروضة» قد بيع أيضاً. . .

كأسلوب طَه حسين والعقّاد والمازني. وكانت على منضدته إحدى الجرائد الدمشقيّة الصادرة في ذلك اليوم وأظنها جريدة «الزمان»، وقد نشرت له مقالاً عن بعض أدباء الكنانة كطه والعقّاد والمازني وغيرهم، فأخذ يتلو على مسمعي مقاله هذا، فأشفقتُ على عينيه المكدودتين من إجهادهما في القراءة ورجوته أن يسمح لي بأن أتلو المقال بدلاً عنه، فتلطّف بالإذن وشرعتُ بتلاوة المقال... فكان ـ رحمه الله ـ يطرب لبعض نوادره الواردة في المقال فيقاطعني متسائلاً:

ـ لطيفة ها؟؟!

فأضحك مستحسناً، ويكرّر هذا السؤال كلّما وصلنا إلى نادرة من نوادره أو دعابة من دعاباته...

وبعد أن زوّدني بنسخة من العدد الذي طلبته منه من مجلّة المجمع، تشعّب بنا الحديث فأثنى على الوضع القائم في سورية آنذاك، وأخذ يقارن حسناته بسيئات ما قبله...

وقد وجّه إليّ نصيحة بسيطة وطريفة بأن طلب منّي الابتعاد التام عن كل ما لا يعنيني بصورة مباشرة وقال لي:

ـ إذا رأيتَ متاشجرين على هذا الرصيف من الشارع فعليك بالرصيف الثاني فوراً!...

وقد شرح لي فائدة مثل هذا الابتعاد شرحاً مستفيضاً وساق الأمثلة من حياته الخاصة ـ وبعد برهة من الزمن ودّعتُ الأستاذ الرئيس بعد أن أشعرني بأنه رجل عظيم حقاً بعلمه الغزير وخلقه الكريم. رحمه الله.

□ □ □

مع كرم ملحم كرم

في تموز ١٩٤٩ اعتزمتُ أن أصدر مجلّة أدبيّة في بغداد باسم «الراوي»[١] فكتبتُ إلى بعض الأدباء المشهورين في العالم العربي راجياً منهم المساهمة فيها، فكان الأديب اللبناني الكبير المرحوم كرم ملحم كرم أوّل الملبين وآخرهم!

فقد أرسل إليّ الرّجل مقالاً[٢] قيّماً عن النبي محمّد، صلى الله عليه وسلم، مع رسالة رقيقة موجزة هذا نصّها:

«حضرة الأستاذ الكريم

تحيات عطرة. أشكر لكَ حسن ظنّك بي وأرجو لك التوفيق في سعيك. وأطلب إليك أن تقبل هذه القطعة من بياني وهي جهد المقل، داعياً لك بإدراك الصبوة، وبالعمر الرغد، ولها بالسلامة من الأخطاء المطبعيّة.

إن للعراق فينا لهبة من حنين.

بيروت، ٣ حزيران ١٩٤٩ كرم ملحم كرم».

* * *

---

(١) حالت الظروف، آنذاك، دون إصدارها.

(٢) نشرته مجلة «الأقلام» البغدادية، ج ١٢، آب ١٩٦٦.

وفي يوم من أيام تموز ١٩٥٤ كنتُ أسير مع أحد المحرّرين في مجلّة «أسرار العالم» اللبنانية في شارع من شوارع بيروت فأشار صاحبي إلى الجهة اليسرى من الشارع وقال:

ــ هذه إدارة مجلة الأستاذ كرم ملحم كرم: «ألف ليلة وليلة» وهو موجود فيها الآن، فهل ترغب في زيارته؟

فأبديتُ رغبتي بزيارة الأستاذ ودخلنا الإدارة فقدّمني صاحبي لصاحب «ألف ليلة وليلة» فرحّب الرجل بي ترحيباً حارّاً صادقاً...

إن أبرز ما في وجه كرم ملحم كرم الجبهة العريضة الناتئة والعينان الواسعتان المشعتان من وراء نظّارته السميكة، وما عدا ذلك لا يلفت النظر!، فالأنف القصير الكبير المنتصب، لا يوحي بشيء، وكذلك الفم الأهرت الذي تلوح في مقدمته أسنان الأستاذ المتهدّمة...

وكان ــ رحمه الله ــ بسيطاً في ملبسه، حتى أن مظهره يوحي لمن لا يعرفه أنه لا يعدو أن يكون عاملاً أو رئيس عمال في مطبعة مجلته...

وكان منظره البسيط منسجماً مع مظهر غرفته القديمة المتواضعة التي تحتضن مئات الكتب والمجلات المكدّسة هنا وهناك وهنالك من غير تنظيم أو تنسيق...

ولم أكن أعرف أن أديبنا الكبير كان ضعيف السمع إلّا بعد أن وضع كفه على أذنه اليمنى وقال لي:

ــ قرّب كرسيك رجاءً.

فكنتُ مضطراً إلى أن أرفع صوتي بشكلٍ مزعج للغاية لأسمع الأستاذ كرم الذي كاد أن يُبتلى بآفة الصمم...

جدّدتُ للأستاذ الشكر على مقاله القيّم عن نبينا العربي، الآنف الذكر، ودار بيني وبينه ما يدور عادة بين شخصين يلتقيان لأوّل مرة، ولعليّ بدّدت هدوء هذا الجو المألوف عندما سألته:

ـ لماذا لا تعالج في كتاباتك وقصصك، يا أستاذ، المشاكل الاجتماعية والسياسية في وطنك اللبناني الأصغر ووطنك العربي الأكبر؟ ولماذا أسرفتَ في التحدّث عن الحب؟ أتعتقد أن الحب هو المشكلة الوحيدة في العالم العربي؟

هجم الدم على وجه الأستاذ وفكّر قليلاً ثم ابتسم وقال:

ـ إن الحب هو أساس كل المشكلات. والحياة ـ كما لا يخفى عليك ـ الحب والحب الحياة. وهو، من بعد، القلب النابض في كل فرعٍ من فروع الأدب، لا سيما في القصّة. ألم يدخل الحب في «قصّة «الأم» لمكسيم غوركي بالرغم من أنها قصّة اجتماعيّة سياسيّة؟ ـ إن الحياة، يا عزيزي، صحراء قاحلة من غير حب...

ـ صحيح. ولكن هل تعتقد أن الحب هو المشكلة الوحيدة في العالم وفي عالمنا العربي بالذات؟!

ـ الحب كالهواء، يستنشقه الكل، وكالماء يشربه الكل، وكل قصة تخلو من هذا العنصر الحياتي فهي قصّة فاشلة أو ناقصة على أقل تقدير...

وغلبني حماس الشباب فعاتبه قائلاً:

ـ لا تدع الجماهير تُعرض عن أدبك، فقلمك جبّار. ومن ذا الذي ينكر لغتك الساطعة وبلاغتك الرائعة، فلماذا تقدّم لنا نوعاً واحداً من الزاد الفكري لا يغذّي إلاّ الأقليّة المترفة؟!

لم يغضب صاحب «ألف ليلة وليلة» من هذه الصراحة الموجعة وإنّما ابتسم ابتسامة من شَعَر بشيء من التقصير وقال:

ـ إذا دخلت السياسة في الأدب أفسدته.

ـ لن يستطيع الأديب، بعد الآن، أن يفصل السياسة عن الأدب فصلاً تامّاً فيتنصل من المسؤولية التي يلقيها مجتمعنا المتأخر على عاتقه...

ـ سيصدر لي، قريباً، كتاب عنوانه «المساكين» تحدّثتُ فيه عن الطبقة المهملة البائسة في مجتمعنا.

ـ هذه بادرة حسنة منك، ستقابلها الجماهير بالإعجاب والتقدير...

وكأني أطربته بهذا القول فابتسم ابتسامة عريضة مشرقة وتوهّج وجهه بالغبطة والحبور...

وانتقلنا إلى حديثٍ آخر تناولنا فيه خصومته[٣] مع صديقه إلياس

---

(٣) نشرَ الأستاذ كرم ملحم كرم في العدد (٢٨) من مجلة «الأمالي» البيروتية الصادر في ١٠ آذار ١٩٣٩ مقالاً هاجم فيه أبا شبكة هجوماً عنيفاً تحت عنوان «شعر لا يشرّف الأدب العربي ـ شعراء القرن التاسع عشر في فرنسا يحتلّون (أفاعي الفردوس)». ومما قاله فيه:

=

أبـي شبكة ــ رحمه الله ــ حيث سألته عن الأسباب والبواعث الحقيقية لهجومه الكاسح القاسي على صديقه الشاعر، فاتضح لي من فحوى جوابه أن الأسباب، في جوهرها، شخصيّة ولا علاقة لها ببواعث النقد العلمي الموضوعي لمتجرّد. ومما قاله بهذا الشأن:

ــ لم أتستّر في كتابة المقالين المذكورين وراء توقيعٍ مستعار وإنما ذكرتُ فيهما اسمي الصريح، ولا أستطيع الآن أن أتنكّر لما جاء فيهما بالرغم من زوال الأسباب الداعية إلى كتابتهما. وعلى أي حال فقد كان أبو شبكة ــ رحمه الله ــ عنيفاً في سلوكه معي. وعندما كنّا نشتغل في جريدة واحدة كان يدخل، أحياناً، إلى الغرفة مصعّر الخد، متشنج الأعصاب، ثم يغلق الباب بعنف من غير أن يتلطّف بالتحيّة، فألملم أعصابـي منه...

وعندما يشاهدني، في الشارع، في حالة غضبه، يترك الرصيف الذي أسير عليه وينتقل بسرعة إلى الرصيف الآخر...

«ولستُ أدري، بعد كل ما أوضحت، أي قيمة لشاعريته. ألا يكون شعر هذا الناسخ الماسخ لطخة في جبين الأدب؟ يا لفضيحتنا عند أدباء الفرنجة خصوصاً وفي الجراب سرقات أخرى سنميط عنها، في الأسبوع القادم، اللثام. ومن صبر ظفر». وقد استشهد الأستاذ كرم بأبيات باللغة الفرنسية للشاعر ألفرد دي فيني وكتب تحتها أبيات أبـي شبكة المشابهة أو المطابقة لها...

ونشر في العدد (٣١) من «الأمالي» مقالاً آخر عنوانه «أبو شبكة في هذيانه أشبه بالطير المذبوح. القحة لا تدفع «الغازي» إلى السرقة فحسب، بل الى الكذب أيضاً!». ومما قاله فيه: «... وسرقاته بعدد شعر رأسه. ولو كان يملك في أدبه بعض الكرامة لاعتزل الناس وأسرع إلى صخرة الانتحار في رأس بيروت للنجاة من الخزي اللاحق به...».

ولما ذهب إلى رحمة ربّه رثيتُه وكنتُ صادقاً في رثائي(٤). . .

* * *

ولا أذكر، بعد ذلك، ما دار بيني وبين كرم ملحم كرم من أحاديث، ولكني أذكر أني ودّعته بعد أن أشعرني بعظمة الأديب البسيط المتواضع الذي لا تنقطع صلة لسانه بقلبه الكبير. رحمه الله.

□ □ □

---

(٤) إن رثاء كرم لصديقه أبي شبكة المنشور في كتاب «إلياس أبو شبكة ــ دراسات وذكريات» ص ٥١ ــ ٥٦ يناقض تحامله عليه في مجلة «الأمالي» ويعد خير كفّارة عن ذلك التحامل القاسي. وحسبي أن أذكر قوله مخاطباً أبا شبكة: «إني لأتعجب من النقيضين فيك. أيموت من يطعم الخلود زاد البقاء؟ أيذهب الموت بمن خلع على الدهر كساءً لا يبلى، وألقى في فم الأجيال أناشيد تجاوز روعة أنغامها الأحقاب. . .».

وقوله عن «أفاعي الفردوس»: «طاب مثواك بطيب أعرافك. فالوهج الكامن في «أفاعيك» لم يتحسس به أدب العرب قبل أن تخلعه عليه. وقلّدك الكثيرون فتخاذلوا عنك. وأسعفك بؤسك في إطلاق الظلامات فماجت أبياتك بنزوات كبدك المقروحة. المغموسة في الأنين».

اللقاء الأوّل والأخير مع أحمد حسن الزيّات

لم أكد أسأل، في القاهرة، عن الأديبة الدكتور نعمات أحمد فؤاد حتى دعتني في مساء اليوم الثاني عشر من أيّار ١٩٦٣ إلى وليمة شاي في شقتها الأنيقة بعمارة إسماعيل ياسين في الزمالك. وأخبرتني، بواسطة الهاتف، أن الأستاذ أحمد حسن الزيّات سيحضر الدعوة. فذهبتُ متلهفاً لرؤية هذه الأديبة التي نشرت كتباً عديدة عن أعلام أدبائنا المعاصرين، وللاجتماع بالأستاذ الزيّات صاحب «مدرسة» الرسالة ولا أقول «مجلة» الرسالة، لأن «الرسالة» مدرسة لا مجلة فحسب. . .

ذهبتُ في الموعد المحدّد، فاستقبلني الأديب الباسم زوج الأديبة الباسمة والسيد «محمد المعلّم» صاحب «دار القلم» ثم جاءت نعمات لتحيتي. وكانت تنطلق كالسهم من المطبخ إلى غرفة الاستقبال، ومن غرفة الاستقبال إلى المطبخ من غير كلل أو ملل، لتبرهن، بما لا يدع مجالاً للشك، على أنها ليست ربّة قلم مبدع وحسب وإنما هي ربّة بيت مثالية أيضاً. . .

وجاء الناقد الشهير «مصطفى عبداللطيف السحرتي»، وتصافحنا، فتطلعتُ إلى وجهه الأسمر الواجم، وحاولتُ أن أهتدي، من خلال سمات وجهه إلى خفايا شخصيته، ودخائل سريرته، فلم أفلح!

لقد ظهر لي أنه رجل طيّب، ولكنه ـ والحق يقال ـ غامض،

يقتصد في كلماته ويفكّر أكثر مما يتكلّم، ولا أذكر له إلاّ نكتة واحدة، وذلك عندما ردّدت القول المأثور: «الأسلوب هـو الرجـل». فقال: «لا يا أخي إنني أخالفك وأقول: الأسلوب هو المرأة...» فضحكنا.

وأطلّ الأستاذ الزيّات فنهضنا، وبعد المصافحة والجلوس شرع الزيّات يسألني:

ـ كم عمرك يا حارث؟

ـ ٣٣ سنة.

ـ هل أنتَ متزوج ولك أولاد؟

ـ نعم. وولدي اسمه طَه، وابنتي اسمها مي.

ـ مي اسم جميل... مي اسم جميل...

ثم أخذ يتصفح نسخة ديواني «تباريح» التي أهديتها إلى نعمات وسألني بألفاظ هادئة:

ـ هل تنطبق قصائد ديوانك على عنوانه؟ أحقاً كنتَ في أتون التباريح؟

ـ أجل يا أستاذ.

فضحك صاحب دار القلم وقال للزيّات:

ـ لماذا تقول للراوي: هل كنتَ؟ أحسبته شيخاً ودّع الهوى والشباب؟

فضحك الجميع...، وقلتُ للزيّات:

ـ سأفاجئك، يا أستاذنا، برسالة أرسلتها حضرتك إلى المرحوم والدي عام ١٩٣٨ وبمسودّة جوابها بخط المرحوم.

وما كدت أخرجها من جيبي وأسلّمها إلى الزيّات حتى تطلّع إليها بعينيه الكليلتين وقال بصوته الهادىء:

ــ صحيح هذا خطّي. وأشكرك لأنك احتفظتَ بها حتى الآن...

وقرأ منها بعض السطور ثم ناولها للسحرتي، فقرأها من ألفها إلى يائها مع جواب المرحوم الراوي.

ودار الحديث حول المرحوم «مصطفى صادق الرافعي» وعن غزله بصورة خاصّة. وكانت الدكتور نعمات تنتقد غزل «الرافعي» بما يشبه القسوة[1] ولا تكتم تقديرها لجوانب أدبه الأخرى، فأيّدها الزيّات!

وأذكر أني دافعتُ عن «أوراق الورد» وقلت أن كتاب «الرافعي» هذا لا يمكن أن يكون إلاّ وليد تجربة غرامية عنيفة، وأنه كتاب لا يخلو من الابتكار في بابه الخ... فخالفني «الزيّات»، ولكنه لم يقنعني!...

وروى «الزيّات» نكتة عن «الرافعي» عندما يهيج وقال:

ــ نشرت، ذات مرّة، في مجلة «الرسالة» كلمة لآنسة تنتقد فيها جانباً من أدب «الرافعي»، فهاجمها «الرافعي» بعنف، فكتبتُ إليه قائلاً:

ــ رفقاً بالقوارير...
فأجابني رحمه الله:

ــ هذه ليست قوارير وإنما هي «......».

---

(١) أهدتني في تلك الجلسة كتابها «أدب الرافعي». ولما قرأته وجدته ــ ويا للأسف ــ زاخراً بالتحامل على أديبنا العظيم المظلوم...

فحضكنا. . . ، ثم سألتُ «الزيّات»:

ـ هل ترى، يا أستاذنا، أن هناك نقداً موضوعيّاً بحتاً لا يتأثّر بمؤثرات ذاتية شخصيّة من صداقة أو عداوة الخ؟. . .

ـ لا يا حارث. . . لا يوجد مثل هذا النقد الموضوعي. . . وقد كان النقّاد وما زالوا يتأثّرون بالعواطف والأهواء. .

وبعد ذلك جاءت الدكتور «نعمات» ببحثٍ جديد كتبته مؤخراً بعنوان «المرأة والريح» وتلته علينا بصوتها الموسيقيّ الخطابي الساحر، وكان البحثُ مرصّعاً بجواهر الآيات القرآنيه الكريمة. وكانت تقارن، في بحثها هذا، بين صفات المرأة وصفات الريح. . . فكان ـ والحق يقال ـ موضوعاً ممتعاً لا يخلو من الطرافة والابتكار. . .

ثم دعتنا إلى المائدة الحافلة بما لذّ وطاب من اللحوم والحلوى التي أعدّتها بيديها وتفنّنت في الطهو أيّما تفنّن. . .

أُجلستُ بجوار «الزيّات»، وإذا به يلتفت نحوي ويسألني والابتسامة تعربدُ على شفتيه:

ـ هل ابتليتَ يا حارث بمصيبة «الشعر الحر»؟

فأجبته ضاحكاً:

ـ لقد عانيتُ نظم الشعر الحر حتى عام ١٩٥٤، ثم أقلعتُ عنه منذ ذلك التأريخ، ولكنني «أتفسَّحُ» في القصيدة أحياناً وألوّنُ في الأوزان والقوافي، فأرضي نزعتي إلى التجديد من غير أن أزعج الخليل بن أحمد الفراهيدي. . . ثم استشهدتُ بأبيات من تحيتي الشعريّة لصديقي الشاعر الكبير «حافظ جميل» هي:

وهـذا يـدجّـلُ بـاسم «الجـديـد»
ويسعى لتحـطيمِ شعـر العـرَبْ

وذاكَ يـهـزُّ عـمـودَ الـخليـلِ
فـيلهـثُ مسـتسـلمـاً للـنَصَبْ

وقد شاعَ هـذا القريض المـريض
ولا غـرو، فـهـو شبيـه الجَـرَبْ!

فضحك الجميع، وضحك «الزيّات» كثيراً، واستحسن الأبيات وأثنى على شعري . . .

وما كادت «حنان» كبرى كريمات «نعمات» تأتي لتحيتنا حتى قبّلها «الزيات» وقبّلتها أنا قائلاً: أهلاً بالحنان . . . ، فالتفتَ «الزيّات» إلى الحاضرين قائلاً:

ـ إن تعابير «الراوي» شعريّة . . .

وردّد قولي: أهلاً بالحنان . . . أهلاً بالحنان . . .

وبعد أحاديث أدبيّة ممتعة نهضنا للوداع، وإذا بالدكتور «نعمات» تمسك بيدي وتتجه بي إلى غرفة المكتبة، فسرّني أن أشاهد مكتبةً أنيقةً عامرة بأمهات الكتب . . .

وبعد الوداع، انصرفتُ مع الأستاذ «الزيّات» الذي أوصلني ـ رحمه الله ـ بسيّارته إلى فندق «بالمورال» بالزمالك، حيث أقيم. بعد أن عاتبني ـ طيّب الله ثراه ـ في الطريق عتاباً رقيقاً بسبب عدم زيارتي

له . . . وأبدى استغرابه من زيارتي للآخرين، في القاهرة، قبل أن أبدأ بزيارته. وختم عتابه بقوله:

ــ من حقّي أن تزورني قبل الجميع.

وكان على حق في عتابه الأبويّ. وودّعته، ولم أدر أن وداعي له هو الوداع الأخير. . إذ لم تسعدني الأيّام بلقائه حتى لقي وجه ربّه. رحمه الله.

□ □ □

اللقاء الأول والأخير مع عبدالمسيح حدّاد

في الثامن والعشرين من شهر آب ١٩٦٠ أقام الصديق الوفيّ «ألبرت الريحاني» وليمة عشاء كبيرة في منزله ومنزل شقيقه المرحوم «أمين الريحاني» بقرية «الفريكة» اللبنانية. وتلطّف بدعوتي مع زوجتي وولدي «طه» فلبينا الدعوة شاكرين مسرورين...

وصلنا «الفريكة» في بداية هجوم الظلام عليها، فاستقبلنا الحبيب «ألبرت» هاشّاً باشّاً كعادته، ولم نكد ندخل المنزل حتى فوجئنا بالعتمة تغمر جنباته. ولما سألنا «ألبرت» عن السبب أجاب بأن القرية تعاني منذ دقائق عطلاً في الكهرباء...

توجّهنا إلى الشرفة المطّلة على الوادي حيث يجلس الضيوف الذين كان بينهم صديقنا «الشاعر القروي» فصافحنا الجميع وجلستُ بالقرب من «القروي» الذي رحّب بي وفرح برؤية ولدي «طه» وطبعَ على قمّة رأسه قبلتين حارّتين..

وبعد دقائق جاء رجل قصير القامة، يكاد أن يكون بديناً، ووقف بالقرب منيّ، فنهضتُ احتراماً له كضيف لا أعرفه، فمدَّ إليّ يده وهو يعرّف نفسه: عبدالمسيح حدّاد. فعانقته وعانقني. ولّما عرّفته بنفسي عانقني مرّةً ثانية عناقاً طويلاً...

وأُشعلت الشموع، فكان منظراً لا حدَّ لجلاله وروعته! ولكَ أن

تتصوّر شموعاً تتراقص أضواؤها الشاعريّة في منزل فيلسوف، فتعكس أنوارها الخافتة على وجوه شعراء وأدباء تكاد أحساسيهم المرهفة أن تشتعل وتشارك الشموع في تبديد العتمة!

وتمنيتُ أن نبقى بهذا الجوّ «الرومانتيكيّ» الذي ينعش الخيال، ولكن سرعان ما عادت القوّة الكهربائية لتعصف بأحلام الشعراء!...

كان «الشاعر القروي» يحدثنا عن منهجه اليومي في قريته الصغيرة «البربارة» وكيف أن الرابعة والسبعين زادت حنينه إلى البحر وجعلته يشارك شبّان الضيعة لا في السباحة وحسب بل حتى في الغطس تحت الماء، وكيف أنه سبقهم جميعاً بالغطس وتركهم يندبون شبابهم المتخاذل ويباركون شيخوخته الهازئة بأعباء السنين...

وحدّثنا «عبدالمسيح حدّاد» عن زيارته لرفيقه القديم في «الرابطة القلميّة» «ميخائيل نعيمة» في قريته النائية «بسكنتا» حيث أقام في منزله ثلاثة أيام معطرة بالذكريات...

وعلى ذكر «ميخائيل نعيمة»، فإنه كان مدعواً إلى وليمة «ألبرت»، إلاّ أنه لم يحضر. ولأنه لم يعتذر عن الحضور قبل موعد الدعوة ولا بعدها، فقد برّر لنا أن نتشرّق في التأويلات ونغرّب، ونضع في طليعة الأسباب الجفوة التي بينه وبين «الشاعر القروي»...

وعلى أي حال فقد كان رأي «ألبرت» أن يدعو الكثيرين من مشاهير رجال الفكر والأدب الذين يختلفون في الرأي لأن اجتماعهم في جوٍ أخوي يساهم في حلّ عقدهم النفسيّة ويقلّل من «الحساسيات» الشديدة التي لا مبرر لها...

ومهما تكن مبّررات عدم حضور «ميخائيل نعيمة» فإن تصرفه هذا لا ينطوي على التسامح والتواضع، وذلك بعكس تصرّف صديقنا المفكر الكبير «واصف البارودي» ـ رحمه الله ـ الذي كان جالساً بالقرب منّي، وكان خلفه أحد المحسوبين على الصحافة في حالة سكرٍ شديد لا تليق بمن يحترم نفسه ويحترم الآخرين...، وكان هذا الصحفيّ الثمل المنهار يقاطع بصوتٍ عالٍ «الشاعر القروي» الذي كان واقفاً ينشد من شعره الوجداني والغزلي قائلاً: أعد.. أعد!.. فيلبّي «القروي» طلب هذا المخلوق الهازىء، متجاهلاً قصده السيء احتراماً لنفسه وللداعي والمدعوين... ثم يلتقت هذا الصحفي المحترم إلى «واصف البارودي» رافعاً كأسه إلى الأعلى هاتفاً: صحتك واصف بك.. فلا يتردّد الأستاذ البارودي ـ وابتسامة التسامح تشعّ على وجهه الطلق ـ من التلويح بكأسه لصاحب الطلب ورشف رشفة مناسبة...

* * *

وبعد العشاء سألتُ «عبدالمسيح حدّاد» عن رأيه في كتاب زميله «ميخائيل نعيمة» عن زميلهما المرحوم «جبران خليل جبران» فأجاب:

ـ إنه كتاب عظيم لمؤلف عظيم...، وقد أنصف «نعيمة» صديقه «جبران» في هذا الكتاب الخالد...

ـ هل تبرّر لنعيمة إعلانه أسرار صديقه «جبران» الشخصيّة، وغمزه له بحجّة أنه كان يحبّ أمجاد الدنيا، وأيّ كاتب لا يحب المجد الذي يخلعه عليه الناس بجدارة؟. إن «نعيمة» صديقي وقد خبرتُ فيه حبّ أمجاد الدنيا، ولا جناح عليه في ذلك لأن من حق كل نابغ أن يتمتّع بما يستحق ويرعى الناس الذين يشقون له سبيل العظمة الحقيقيّة...

فابتسم «عبدالمسيح حدّاد» ــ رحمه الله ــ وقال:

ــ إن جبران من البَشر. والبشر معرّض للزلـل. وقد درس «نعيمة» سيرته من حيث أنه بشر، فلم يهوّل ولم ينافق وإنّما صوّر سيرة «جبران» كما هي. وعلى أية حال فقد قال في نهاية كتابه ما معناه: إن جبران أديب عظيم قلّما تجود به العصور!

ــ هل يرضى ميخائيل نعيمة أن نؤلف عنه كتاباً يشابه كتابه عن «جبران» في الصراحة؟

ــ يجب أن يرضى... يجب أن يرضى!

ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث مـع «الشاعـر القروي». ونهضتُ وأنشدتُ قصيدتي اللاميّة في تحيّة «القروي» بمناسبة عودته إلى «لبنان» والاقامة في قريته الجملة «البربارة». وارتجل «عبدالمسيح» كلمة موجزة رقيقة أشار فيها إلى ذكرياته مع صاحب المنزل صديقه الراحل «أمين الريحاني».

وبعد أحاديث أدبيّة ممتعة حتى ساعة متأخرة من الليل ودّع بعضنا بعضاً. ولم التقِ بعبدالمسيح بعد هذا اللقاء الممتع. وقد سافر الرجل إلى مهجره، بعد أشهر، ثم توفي في ديار الغربة. رحمه الله.

□ □ □

اللقاء الأول والأخير مع علي الناصر

عند زيارتي لحلب صيف ١٩٦٩ طلب مني الصديق الأستاذ عبدالله يوركي حلاّث صاحب مجلّة «الضاد» الحلبيّة أن أزور، بصحبته، صديقه الشاعر الحلبي المعروف الدكتور علي الناصر بعيادته الطبيّة الكائنة في «باب الفرج» فأبديتُ استعدادي التام لزيارة هذا الشاعر الذي لم أره من قبل، ولم أقرأ له سوى ديوانه «اثنان في واحد» الذي أهداني نسخة منه ناشره السيد توفيق اليازجي، فوقفتُ على شعرٍ تصطدم فيه الأصالة المشرقة تارةً بالسورياليّة وطوراً بالرمزيّة، يعبّر بصدق وحرارة عن نفسٍ مفرطة الحساسيّة، شديدة التعقيد!!

واتجهنا إلى عيادة الدكتور في «باب الفرج». وبعد أن صعدنا سلّماً طويلاً متعباً استقبلنا الدكتور الناصر، وكان رجلاً نحيف الجسم، قصير القامة، أسمر البَشرة، يتأجّج مزاجه العصبي في عينينه الصغيرتين المتقدتين وراء زجاجتي نظارته...

كانت الغرفة قديمة. وكان كل شيء فيها قديماً حتى صاحبها الدكتور علي الناصر الذي اعترف بأنه قد بلغ الخامسة والسبعين...

وقد هاج وماجَ عندما ذكرنا «اليازجي» ناشر ديوانه، فطلب منّا بلهجة حازمة، آمرة، أن نكفَّ عن ذكر هذا الرجل لأنه يكرهه ولا يريد أن يسمع اسمه!...

ثم هاجم المرحوم: بشارة الخوري «الأخطل الصغير» واستسخفَ قصيدته «الهوى والشباب» لا سيما قوله عن الكأس: «ثم حطمتها على شفتيًا». واستسخف «عبدالوهاب» لأنه لَحَّنَ وأنشد هذا «الهراء» ــ على حدّ تعبير الناصر ــ.

وامتدحَ المقام العراقي والأغاني العراقية الأصيلة، وتمنّى لو تتيح له الأيام فرصة زيارة بغداد ليمتّع نفسه بسماع الأغاني العراقية الأصيلة القديمة في مقاهي بغداد القديمة!...

ويستنتج الزائر من تدفّق الدكتور في الحديث ومن إشارته العصبيّة أن ليس من السهل مقاطعته ومناقشته!...، وليس من السهل ــ والحالة هذه ــ مواصلة الاستماع إلى حديث من هذا النوع!

ولهذا لم نطل المكوث، وودعنا الدكتور ونحن نتطلّع إلى صورة كبيرة نادرة لأمين الريحاني معلّقة على الجدار، كان الريحاني ــ رحمه الله ــ أهداها إلى صديقه علي الناصر.

ولم يدر بخلدي، وأنا أودّع الناصر، أن وداعي له هو الوداع الأخير، وأن هذه الغرفة الكئيبة ستشهد مصرعه، بعد عام، في حادث مؤسف. رحمه الله.

□ □ □

مع مارون عبّود

من الأدباء الذين تعرّفتُ عليهم، خلال مساهمتي بمؤتمر الأدباء العرب ببيت مري في أيلول ١٩٥٤ الأستاذ مارون عبّود ـ شيخ النقّاد اللبنانيين.

يذكرنا حاجبا مارون الكثّان بحاجبي «بسمارك» وتذكرنا عيناه الناعستان الكحيلتان وجبهته العريضة البارزة بعيني «جبران خليل جبران» وجبهته. أما أنفه الضخم فيذكرنا بأنف «الكرملي»!.

وما يكاد المرء يتحدّث مع هذا الشيخ الأديب ويسمع لهجته القرويّة حتى يشعر بأنه يحدّث «ابن الضيعة». فهو ابن الضيعة حقّاً في سذاجته وطيبته وتواضعه وفي تدفّقه في الحديث الطليّ والنكات الدسمة المتبّلة...

ولا تتسع حلقة الأدباء إلّا حيث يجلس هذا الشيخ، الكسول الجسم، النشيط اللسان، الذي يتدفق في الحديث متنقلاً من فائدة أدبيّة أو لغويّة إلى نكتة بارعة لاذعة، فيضحك الجميع حتى تهتّز الأعطاف وتبرق دموع الفرح... ويفلت منه زمام الحديث الجدّي في اللغة والأدب، فيوالي نكاته، فيوالون الضحك العاصف بعد فترات الإصغاء التام التي لا يتخلّلها حتى الهمس والإشارة!..

بعد الجلسة الشعريّة التي ساهمتُ فيها مع «يوسف غصوب» و «أحمد رامي» و «أمين نخلة»، طلب مني «مارون عبّود» أن أزوّده بإحدى قصائدي ليكتب عنها في كتاب كان يعدّه عن الشعر المعاصر، فوعدته بتلبية طلبه. ولكن مشاغلي الأدبيّة و (العاطفية) في المؤتمر حالت دون تلبية الطلب في الموعد المعيّن. فكان ـ رحمه الله ـ يسألني، كل يوم، عن القصيدة فأعتذر وأنا من الخجل في ذروة شاهقة، حتى أغضبْته هذه المماطلة غير المقصودة فقال لي بلهجته القرويّة الحلوة الحازمة: «بلاها. . .»! فلطّفتُ من حدّته ولبيتُ طلبه، ولا أعلم شيئاً، حتى كتابة هذه السطور، عن مصير القصيدة!

* * *

وهالني ألاّ أجد أكبر أديب مفكّر في الدولة المضيفة ـ أعني «ميخائيل نعيمة» ـ بين المؤتمرين، ففاتحت بذلك صديقي الشاعر المرحوم «صلاح لبكي» فأجابني:

ـ ليس الذنب ذنب المؤتمر. فقد دعونا «ميخائيل نعيمة» للمشاركة في تمثيل أدباء لبنان والاقامة معنا في هذا الفندق. ولكنه ـ لأسبابٍ نجهلها ـ أخلفَ وعده. . .

وكان «صلاح» منفعلاً أشدّ الانفعال من تصرّف «ميخائيل» فقلتُ له:

ـ هل تسمح لي بأن أتصل بالأستاذ «ميخائيل نعيمة» لأذكره بدعوة المؤتمر وأبلّغه شوقَ المؤتمرين إليه؟

وافق «صلاح» بعد تردّد. وكان المرحوم «مارون عبود» حاضراً فقال لي:

ـ أرجوك يا حارث أنْ تخبرني عندما يتحدّث «نعيمة» إليك في الهاتف لأني أريد أن أعاتبه وألتمس منه الحضور. . .

وتحدّثتُ مع «نعيمة» هاتفياً ورجوته، بإلحاح، أن يحضر، تلبيةً لرغبة جميع المؤتمرين، فأجابني:

ـ ليس لديّ سيّارة توصلني إليكم. . .

ـ سأكلّم إدارة المؤتمر عن السيّارة وأرجع لك الجواب. . .

وذهبتُ إلى «صلاح» وأخبرته بالأمر. فقال ـ رحمه الله ـ:

ـ سنرسل له سيّارة إلى بسكنتا. . .، فليحدّد لنا الموعد. . .

واتجه المرحوم «مارون عبود» معي نحو الهاتف ليؤكّد لنعيمة أهميّة حضوره ويلتمس منه تلبية الدعوة. . . وما كاد يخطو خطوتين حتى وقف وضرب يداً بيد، وقال:

ـ لا. . . لن أكلّمه. . . لأنه سيغضب ولا يقبل رجائي!

وهكذا مضيتُ إلى الهاتف بمفردي لأخبر «ميخائيل» باستعداد إدارة المؤتمر لارسال سيّارة إليه في الوقت الذي يراه مناسباً. فتردّد ثم قال:

ـ لا مانع لديّ من الحضور إذا جئتني مع السيّارة!. . .

فتأكّدتُ، عندئذٍ، بأنه يتفنّن في المماطلة ولا يريد أن يحضر. فهو يعرف جيّداً أنني لا أستطيع أن أترك المؤتمر لأقوم بهذه الرحلة الطويلة، فضلاً عن علمه المسبق بأنني أتجنّب السير في الطرق الجبليّة

الحلزونية الضيقة المشرفة على المهاوي كطريق «وادي الجماجم» المؤدّي إلى قريته النائية. . .

* * *

وهيهات أن أنسى مشهداً مؤثراً، بل مدهشاً، تجلّت فيه عظمة «مارون» الإنسان بحضور المرحوم الدكتور «مصطفى جواد». فقد كان «مارون» جالساً مع «مصطفى» في شرفة فندق «بيت مري الكبير» ــ المندثر ــ المطلّة على الوادي. وكنتُ واقفاً بالقرب من «مارون» الذي كان يدسّ في أنفه الضخم، بين الفينة والفينة، شيئاً من مسحوق النشوق (البرنوطي)، فيتناثر على صدره! وأراد ــ رحمه الله ــ أن ينهض فخانته رجله لألمٍ شديدٍ فيها، فاحتضنتُه وأوقفته، فاهتز الشيخ الجليل ــ أستاذ هذا الجيل ــ لهذا الواجب البسيط الذي أدّيته له ومدّ يده إلى كفي وهمّ بتقبيلها!! فسحبتُ يدي كالمصعوقَ وقلتُ له وأنا من الخجل والذهول في ذروة شاهقة:

ــ أَستغفر الله. . . أَستغفر الله. . .

وما زلتُ بعد مرور أكثر من عشرين سنة على هذا المشهد المؤثّر، أشعر بقشعريرة كلّما خَطَر ببالي، فأحسّ إحساساً صادقاً بأن «مارون عبّود» لم يكن أديباً عظيًما وحسب بل كان إنساناً عظيًما أيضاً. رحمه الله.

□ □ □

مع محمود تيمور

قصير القامة من غير إفراط. نحيف البنية. أبيض الوجه، وبياض وجهه مشرّب بحمرة. مخسوف الخدّين صغير العينين. صغير الأنف. صغير الفم. رقيق الشفتين...

حادّ النظرات، حتى ليتناقض البريق الصارم المنبثق من عينيه مع هدوئه النفسيّ وأعصابه الساكنة!...

وقور. هادىء الحركات والإشارات. هادىء الصوت. ما يكاد يتحدّث إليك حتى يشعركَ بالصلة الوثيقة بين قلبه الكبير ولسانه النظيف...

يشير تواضعه الجمّ إلى عظمته الحقيقيّة قبل أن يُشعرنا بها علمه الغزير ورأيه الحصيف وشهرته المدوّية...

هذا هو «محمود تيمور» كما رأيته وكما عرفته لأوّل مرّة في مؤتمر الأدباء العرب الأول الذي انعقد ببيت مري بلبنان سنة ١٩٥٤.

سمعتُ بنعيه قبل أيّام، فبكاه قلبي. ومثل هذا الرجل العظيم يُبكى بالقلب...

إن إنسانية الإنسان بما تنطوي عليه من شمائل نيّرة هي أعظم من عبقريته ونبوغه، وهي التي تستدرّ الدموعَ من قلوبنا ومآقينا عندما

نُفجع بعبقريِ «إنسان». . . فما أكثر النابغين في كل علمٍ وفن، وما أقلّ الطيبين في عالمنا الغارق في الشرور والمآثم! . . .

* * *

لسببٍ صحيّ لم يحلّ «محمود تيمور» في فندق بين مري الكبير حيث حلّ جميع أدباء المؤتمر، ولكنه كان يقضي معظم أوقاته معنا في الفندق الكبير المندثر. . .

كان يلفّ على رقبته النحيفة «شالاً» من الحرير على طريقة المرحوم «عباس محمود العقّاد». . ويتجنّب الرطوبة ويؤثر الدفء، لمرضٍ يبدو أنه قد لازمه حتى نَفَسه الأخير. وكنّا بدورنا نبحث عن الدفء ولكن في حديثه المتمهّل العذب وآرائه المتزنة الناضجة. . .

* * *

طلب المرحوم «فؤاد قاسم» ــ مدير الإذاعة اللبنانية آنذاك ــ من طائفة من أدباء المؤتمر ــ وكنتُ من ضمنهم ــ تسجيل بعض الأحاديث الأدبية للإذاعة اللبنانية، فلبينا الدعوة. وكان «تيمور» قد سبقنا في التسجيل وفقاً للترتيب المعدّ من الإذاعة. وجاء ــ رحمه الله ــ وجلس بالقرب منّي. ولم نكد نتجاذب أطراف الأحاديث الأدبيّة الطريفة حتى جاء الموظف المختص بالتسجيل وقال لتيمور أن تسجيل حديثه ليس كما يرام ومن الأفضل إعادة التسجيل. فلم يناقشه «تيمور» وإنما قال باللهجة المصريّة:

ــ حاضر أفندم. . .

فأوضح له الموظف أن موعد الإعادة سيكون في الواحدة بعد الظهر ــ وكانت الساعة بعد العاشرة بقليل ــ ولهذا أردف الموظف

إيضاحه باعتذار لطيفٍ مؤدّب وأشار على الأستاذ «تيمور» بأنه يستطيع أن يمضي الوقت في أي مكان أو محل يناسبه في بيروت ترويحاً للنفس وقتلاً للضجر قبل حلول الموعد المتأخر. . .

ولكن «تيمور» آثر أن يبقى رهين غرفة مدير الإذاعة لمدة ثلاث ساعات بكل رحابة صدر! فضرب بذلك مثلاً في الصبر والتواضع وأثار إعجاب ودهشة الجميع! . .

* * *

وفي أيار (مايو) ١٩٦٣ زرتُ القاهرة لأول مرة للنزهة وطبع كتابين من مؤلفاتي، فاتصلتُ في اليوم العاشر من الشهر المذكور هاتفيّاً بالأستاذ محمود تيمور. ولم أكد أوفق إلى محادثته في الهاتف حتى رحّب الرجل بـي ترحيباً قلبيّاً. ولما لمس رغبتي في مقابلته في اليوم نفسه ـ نظراً لضيق وقتي ـ تلطف بتلبية هذه الرغبة بالرغم من ارتباطه بموعدٍ سابق. وهكذا تغلّب هذا الأديب الكبير على ما تواضع عليه غيره من كبار الأدباء من رسميّات قد لا تخلو من أبهّة ممقوتة أو تكبّـر بغيض. . .

اتفقنا أن نلتقي بعد ساعة في مطعم ومقهى «بلوك» الذي ذهبتُ إليه قبل ربع ساعة من الموعد وأنا أحمل بيدي مخطوط كتابـي «مع الشعراء». وبينما كنتُ أرتشف عصير «الفراولة» اللذيذ أقبل الأستاذ «محمود تيمور» فنهضتُ مرحباً بقدومه، فتعـانقنا ثم جلس الأستـاذ واستهل حديثه بالترحيب بـي، ثم أخذنا نستعيد ذكريات لقائنا الأوّل في لبنان. . .

وتطلّع الأستاذ إلى المنضدة فأبصر مخطوطة كتابـي «مع الشعراء» فتناولها وأخذ يقلّب صفحاتها، فوقعت عيناه على فصولٍ متتابعة عن

«شوقي» و «صبري» و «شكري» و «ناجي» و «خليل مردم» و «القروي» و «حافظ جميل» وغيرهم. فابتسم وقال:

ــ هذا كتاب مشوّق لا يحتاج إلى مقدّمة...

ثم أردف قائلاً:

ــ أما إذا أردتَ أن أكتب لكَ مقدّمة فأنا على أتمّ استعداد لذلك...

فشكرته على هذا اللطف وصارحته بأني أفضّل أن يبقى هذا الكتاب من غير مقدّمة[1]...

واستشرت «تيمور» في موضوع طبع الكتاب في «القاهرة» فحبّذ إلـيّ طبعه في «دار القلم» وأثنى على صاحبها «محمد المعلّم» وزوّدني ببطاقة تعريف رقيقة وجهها إلى «المعلّم» الذي لم يحل ترحيبه بها وبـي دون إحالة الكتاب إلى «خبير» أجازه في اليوم التالي..

وبعد أحاديث أدبيّة شيّقة أخبرت الأستاذ «تيمور» أنني لا أريد أن أستبدَّ بوقته بعد أن علمتُ منه بالهاتف بارتباطه بمواعيد أخرى، فسألني:

---

(١) صدر كتابي هذا عن «دار القلم» بالقاهرة سنة ١٩٦٤ مصدّراً بمقدمة للدكتور نعمات أحمد فؤاد. ولذلك حكاية خلاصتها أن الأستاذ محمد المعلم صاحب «دار القلم» استشارني، على أثر موافقته على طبع الكتاب على نفقة الدار، فيما إذا كنتُ أوافق على أن يكتب الأديب الكبير أحمد حسن الزيّات مقدمة هذا الكتاب، فعلّقتُ موافقتي على شرط ألاّ يقع عبء مفاتحة «الزيّات» علـيّ، ما دمت، منذ البداية، لا أرى داعياً لكتابة أية مقدمة للكتاب. فابدى «المعلّـم» استعداد «دار القلم» التام للقيام بهذه المهمّة.

وبعد عودتي إلى بغداد فاتح «المعلّـم» الأستاذ «الزيّات» فكلّف «الزيّات» الدكتور «نعمات» بهذه المهمة، فكتبت المقدمة.

ـ إلى أين اتجاهك؟

ـ إلى منزل الصديق الأستاذ قاسم الخطّاط في «الدّقي».

ـ حسناً سأوصلك بسيّارتي...

فرجوته وألحفتُ في الرجاء أن يعتقني من قيد لطفه هذا، نظراً لبعد المسافة بين «بلوك» والدّقي، فأبدى الرجل إصرار الكريم الذي لا يتراجع. وحاولتُ أن أدفع ثمن ما شربتُ وما شربَ لأنني سبقته في الحضور، فأبى وقال: ـ أنتَ ضيفنا الكريم...

واتجهنا إلى سيّارته الفارهة السوداء، فحاولتُ أن أجلس على يساره احتراماً لشيخوخته ومنزلته الكبيرة، فأبى إلاّ أن أجلس على يمينه!

ولم يكد يستقرّ في السيّارة حتى تقدّم إليه شيخ فقير الحال، يحمل نسخاً صغيرة مذهّبة من «القرآن الكريم» ولم يكد يلوّح للأستاذ «تيمور» بنسخة حتى مدّ الأستاذ يده إلى جيبه وأخرج محفظة نقوده ثم أخرج منها مبلغاً محترماً من النقود واعتذر عن تسلّم النسخة ليستفيد الشيخ الفقير من ثمنها...

وسارت بنا السيّارة وكان «تيمور» هو السائل في الطريق الطويل وكنتُ أنا المجيب...

سألني عن الأدب المعاصر في العراق واتجاهاته، وسألني عن أدباء عراقيين أربعة هم: «عبدالله نيازي» و«شاكر خصباك» و«محمود العبطة» و«خضر الولي»...

وتذكَّر المقدّمة التي كتبها لقصّة «نيازي»: «شجَن طائر» والمقدّمة التي كتبها لقصّة «خصباك»: «صراع» وأثنى عليهما كثيراً. ورجاني أن أبلّغ جميع من ذكر من أدبائنا تحيّاته القلبيّة...

ولم تكد تقف السيّارة بباب منزل الصديق «الخطّاط» حتى رجوتُ بالحاح من الأستاذ «تيمور» أن يتلطّف بمشاركتنا بتناول الغداء فأبدى لي من الأعذار ما أقنعني. وتعانقنا. ولم أره بعدها ويا للأسف. ولكنه تلطف بإهدائي كتابين من كتبه الجديدة هما: «مناجيات للكتب والكتّاب» و«أنا القاتل» مع كتابين يبحثان عن حياته وأدبه واتجاهاته في القصّة. رحمه الله.

□ □ □

مع محمّد الفراتي

قصير القامة، ولو كان مكتنز الجسم لما سلم من الدمامة!، ولكنه نحيف ـ والحمد لله ـ حتى يخيّل إليك، وأنتَ تجيل الطرف في جسمه النحيل أن العظام المستقرّة تحت لحمه إنما هي عظام طائر لا عظام إنسان وأن الفراتي بجملته لا يعدو أن يكون طائراً لم يبقَ من ريشه سوى لحيته المدبّبة والشعرات المتناثرة على خدّيه المخسوفين!

إذا ألقيتَ نظرة عابرةً على وجهه، تنقّلت عيناك بين اللحية والطربوش، ولا بدّ لك، عندئذٍ، من أن تتذكّر الشاعر الراحل «جميل صدقي الزهاوي» في صورته الشهيرة بالطربوش، فبين الشاعرين الصديقين شَبه في الهيئة العامّة...

أما إذا سلّطتَ عليه نظرة فاحصة مستفهمة فسيذكرك أنفه المدبّب الذي يمل إلى الاتساع بأنف صديقه الثاني «خليل مطران» رحمه الله.

وإذا نظرتَ إليه من قمّة طربوشه إلى قدميه، خيّل إليك أنك تتطلّع إلى صورة لرجلٍ من رجالنا في أواخر القرن التاسع عشر في كتاب «مشاهير الشرق» لجرجي زيدان!

وقد سطت الأقدار وأسفاه على إحدى مقلتيه فغلّفتها بالرماد فتوقّدت بصيرتُه شأن الموهوبين الذين يفقدون بصرهم بصورة كليّة أو جزئيّة...

التقيت ببلبل الدير (دير الزور) الشاعر الكبير محمد الفراتي، لأوّل مرة، في صبيحة يوم من أيام تّموز ١٩٦١ في غرفة الكاتب الموسوعي «عمر رضا كحالة» بمجمع اللغة العربية بدمشق. ولم أكتمه شبهه بالزهاوي إلى حدٍ ما، فابتسم وقال:

ــ يوجد بيننا شيء من الشبه، وكانت تربطني بالزهاوي ــ رحمه الله ــ صداقة وثيقة، وفي ديواني قصيدة أخوانية مهداة إلى «الزهاوي» مطلعها:

أجميل أن تعتب عليّ فأين عتبك من حنانك[1]

وواصل «الفراتي» حديثه عن «الزهاوي» قائلاً:

ــ إن ترجمة «الزهاوي لرباعيّات الخيّام مضحكة، وكأنّها، لفرط ابتعادها عن الأصل، من عنديّاته!!

وأثنى على ترجمة «الصافي النجفي» للرباعيّات ووصفها بأنها أفضل ترجمة شعريّة باللغة العربية لهذه الرباعيّات...

* * *

وعلمتُ من «الفراتي» أنه يقضي أوقات فراغه في «مقهى رامي»[2] الكائن بالقرب من فندق «بسمان» بدمشق. فكانت لنا في هذا المقهى الشعبي المتواضع جلسات شعريّة ممتعة أنشدني فيها «بلبل الدير» قصائد رائعة من شعره، وأنشدتُه من شعري ما أطربه وأعجبه!

---

(١) ديوان الفراتي، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

(٢) في زيارتي لدمشق صيف ١٩٧٣ رأيت مكان المقهى المذكور وقد استحال إلى مجموعة من الدكاكين...

وكان، يومئذٍ، يعدّ تعريب كتاب «روضة الورد» لسعدي الشيرازي من الفارسيّة إلى العربيّة، وينشدني، بين الفينة والفينة، من شعر سعدي المعرّب، ما يخلب اللبَّ ويطربُ القلب...

وعلمتُ من «الفراتي» أنه قد درس في «الأزهر» وكان من ترابه فيه «الشيخ عبدالعزيزالبشري» رحمه الله. وعلمتُ منه بصداقته الوثيقة مع شاعر النيل المرحوم «حافظ إبراهيم». وقد أبدى إعجابه بشعر حافظ وشخصيته، وكان يفضله، إجمالاً، على «شوقي»!، فيضطرّني لفتح باب النقاش معه على مصراعيه، فينهي «الفراتي» نقاشنا الطويل بقوله:

ـ إن «شوقي» لا يحلّق إلا عندما يحقّق ذاته، وفي شعره الكثير مما لا يتوفر فيه «تحقيق الذات» وذلك بعكس «حافظ» الذي يحقّق ذاته في كل قصيدة!...

وبالرغم من الحجج المنطقيّة التي دعم بها «الفراتي» رأيه في «شوقي» فقد أشعرتني انفعالاته بأن موقفه منه متأثر بأمور أملتها أسباب، قد تكون شخصيّة، لم أجد من الذوق الدخول في تفاصيلها معه! ولما سألته عن «مقهى رامي» وهل تعني التسمية شاعرنا وصديقنا «أحمد رامي» ضحك وقال:

ـ كلّا فهذا التفكير بعيد عن أذهان أصحاب المقاهي... وأثنى على «رامي» ونعتَه بالدرويش...

* * *

،ودعوتُ «الفراتي» على الغداء في مطعم «الأدلبـي» الشهير في دمشق فتردّد وقال:

ـ أنتَ ضيفنا وأنا الذي يجب أن أدعوك، فكيف تقلب الآية؟!

ثم تلطّف بقبول الدعوة لشعوره الصادق بعمق محبتي له. وما كدنا نأخذ أماكننا من كراسي المطعم حتى سألته عن الأكلة التي يتشهيها، فأجاب بصراحته المرحة المحبّبة:

ـ أنا ديري والديري لا يفضّل أكلة على الباميا والرز...

فطلبتُ له هذه الأكلة الشعبيّة اللذيذة، فأكلها بلهفة...

* * *

ورجعتُ من «دمشق» إلى «بغداد» وأنا أحمل في ذهني وقلبـي أجمل الذكريات عن بلبل الدير الأستاذ محمد الفراتي وأحمل بيدي «ديوان الفراتي». وعلمتُ، بعد ذلك، أن وزارة الثقافة في «دمشق» قد نشرت له تعريبه لديوان سعدي الشيرازي «روضة الورد». ثم انقطعت أخبار شاعرنا عنيّ، ولم أدر فيما إذا كان الرجل على قيد الحياة أم لا، حتى زرتُ دمشق خلال شهري تموز وآب ١٩٧٣ فبشّرني الصديقان العـزيزان الأديبان «مدحت عكاش» و«فهمي العطّار» بوجود «الفراتي» على قيد الحياة وبإقامته في «دمشق» في ذلك الوقت. وقد حالت أشغالي العائلية وحال قرب السفر دون أداء واجب زيارة هذا الشاعر الكبير، بل هذا الدرويش الشريف البعيد عن الأضواء الذي ضحّى وشُرّد في سبيل استقلال وطنه العربـي السوريّ وأمته العربية...

وإني لأتمنى أن يكون هذا الشاعر المجاهد ـ بعد أن بلغ هذه

الشيخوخة العالية ــ في مستوى التكريم[٣] الذي يستحقه وأن يطبع ديوانه «ديوان الفراتي» طبعة أنيقة مصوّرة ويصبح في متناول أيدي الجيل الجديد الذي يعرف آخر أكلة تناولها «اليوت» قبل أن يموت ولا يعرف شيئاً عن شاعرٍ عربيّ مجاهد تجاوز الثمانين اسمه «محمد الفراتي»!!

□ □ □

---

(٣) يؤسفني أن أذكر أن مجلة «المعرفة» السورية قد امتنعت عن نشر مقال طويل لي عن «الفراتي» كان عنوانه «محمد الفراتي ــ ذكرياتي عنه ــ نظرة في شعره» بحجّة أن شعر الفراتي «غير رائج . . .» في الوقت الحاضر كما أخبرني رئيس تحريرها آنذاك الأستاذ «محيي الدين صبحي» عند زيارتي له مع الأخ الأستاذ «مدحت عكاش» في إدارة «المعرفة» وذلك خلال شهر آب ١٩٧٣ فضلاً عن أن المقال يفتقر ــ في نظره ــ إلى «التحليل العلمي الموضوعي». ولما ناقشته بصراحة تامّة حول هذا الموقف الغريب من هذه المجلّة التي احتضنت باعتزاز، فيما سبق، أفضل أبحاثي ومقالاتي، حاول أن يتنصّل من الأمر بقوله أنه «لا يستطيع تغيير رأي اللجنة».

مع منير القاضي

يختزن ذهني وتضمّ دفاتر يوميّاتي ذكريات إجتماعاتي بعمّي الكريم وأستاذي الجليل المرحوم «منير القاضي». وهي ذكريات فيّاضة حسبي أن أغترف منها ما يفي بالمرام في هذا الكتاب.

خصّص المرحوم والدي يوم السبت للضيوف وكان صديقه الحميم «منير القاضي» من روّاد بيتنا لا في مساء هذا اليوم فقط وإنما في أغلب أيام الأسبوع، مع العم الكريم المرحوم «عبدالله الشوّاف».

وعندما استأثرت رحمة الله بالمرحوم والدي أبقى شقيقي الأكبر «هاشم» قبول السبت احتراماً لذكرى والدنا الراحل وتقديراً لأصدقائه الكرام. وكان العم «القاضي» بطبيعة الحال، في طليعة روّاد قبولنا. ولا أنسى المساجلة الشعريّة التي جرت بينه وبيني يوم القبول سنة ١٩٤٨ على أثر مرور أربعين يوماً على استشهاد شهداء الوثبة القوميّة الكبرى الذين أطفأوا بدمائهم الزكيّة نيران معاهدة «بورت سماوث» الجائرة. وكان يوم الأربعين يوماً مشهوداً في بغداد سارت به المواكب إلى قبور الشهداء في مقبرة «الشيخ معروف الكرخي» وأُلقيت الخطب والقصائد الحماسيّة، ودثّرت القبور، يومئذٍ، بتلول من الأكاليل. وقد أتيح لي شرف المساهمة بخطبة حماسيّة مع المساهمين آنذاك. وأذكر أن الأستاذ «القاضي» ما كاد يأخذ مكانه من مجلسنا حتى بادرني بقوله:

ـ لقد هبط عليّ بيت من الشعر بوحي من أربعين الشهداء عندما كنتُ متجهاً إليكم بالسيّارة فأطلب منكَ أن تجيزه ما دمتَ شاعراً، وإليكَ البيت:

هـذي الأكاليـل للأمـوات قـد وضعتْ
لـكنـهـا لحـيـاة الـشـعـب عـنـوانُ»

فلم أوفق بسرعة إلى إجازة هذا البيت وإنما أجزته بعد دقائق بقولي:

فـإن أردتَ حـيـاةً حـرّةً فـلقـد
طـلبـتَ شـيـئـاً لـه الأرواح أثـمـانُ

فاستحسن الحاضرون هذا البيت وفي طليعتهم أستاذي «القاضي» الذي كان يشجعني في حلبة الأدب تشجيعاً حارّاً صادقاً لم ينقطع أو يفتر في يومٍ من الأيّام. ولم يكن تشجيعه مقتصراً عليّ فقد شجّع ـ عليه الرحمة ـ قبلي تلميذيه الشاعرين «حافظ جميل» و «بسيم الذويب» عندما كتب للأول مقدّمة ديوانه الأول «الجميليّات» سنة ١٩٢٣ وكتب للثاني مقدّمة لمجموعته الأدبية «الثمرات» الصادرة سنة ١٩٢٦. وقد تنبّأ لتلميذه «حافظ جميل» بأنه سيكون «أكبر شاعر في قطره». وذلك في مقدّمته للجميليّات. وعندما وضع مقدّمة ديوان حافظ «نبض الوجدان» سنة ١٩٥٧ قال فيها حول هذه الناحية:

«... وقد صدقت فراستي فيه، إذ جاءني بعد تلك المدة الطويلة بهذا الديوان الذي جمع فيه ديباجة ـ المتنبّي ـ وفلسفة ـ المعرّي ـ في الحياة ونظرات ـ الصافي ـ في الاجتماع، وتحقّقت آمالي فيما سيبلغه

ذلك اليافع النبيل، والشاب الكريم الأصيل من مقام رفيع بين شعراء عصره، ومنزلة مرموقة بين أدباء قطره»[١].

وعندما صدر ديواني «تباريح» في أواخر سنة ١٩٦١ حيّاه الأستاذ منير القاضي بالأبيات التالية:

طالعتُ ديوان حارثْ — من للفضائل وارثْ
قرأتُ شعراً شباباً — لشاعرٍ غير عابثْ
شعر به يتغنّى — من كان في الشوق لابثْ
شعر به تتجلّى — عواطف وكوارثْ
شعر به يتحلّى — فنّ القريض بباعثْ
شعر به تتراءى — نوازل وحوادثْ
إن التباريح فيها — مع القلوبِ مباحثْ
فيها صراع عنيف — مع الهوى والبواعثْ

وتتلمذت على أستاذي «منير القاضي» في كلية الحقوق في مستهل الخمسينات، ولا أذكر درساً أعذب من درسه ولا أستاذاً أقدر منه في تبسيط المادّة والابتعاد الكليّ عن التعقيد، ولا أظرف منه في الاستشهاد بالأمثلة اللطيفة التي ترسم الابتسامات العريضة على الشفاه وتنعش القلوب والأرواح بالأنس والطرب، ولا يفارق الأستاذ الوقار في كل ذلك...

وبالرغم من أن إدارة دفّة «كلية الحقوق» في الخمسينات لم تكن

---

(١) المقدمة، ص ٧.

من الأمور اليسيرة التي ينهض بأعبائها كل «عميـد» ، نظراً لما كان يتطلبه الظرف من موازنة دقيقة بين سياسة السلطة آنذاك وبين المشاعر الوطنية المحتدمة في صدور الطلبة المتحمسين، فإن عميد الكليّة الأستاذ «منير القاضي» استطاع أن يذلّل كثيراً من الصعوبات التي اعترضته في هذا السبيل بحنانه الأبويّ وبعد نظره.

وأذكر أن السلطة فصلت في سنة **١٩٥٢** طالبين من الكليّـة لأسباب سياسيّة، فأضربنا عن الدراسة، واعتصم البعض في سطح الكلية. وساهم شعراء وأدباء الكليّة بقصائدهم وخطبهم في إلهاب مشاعر الطلاّب ومنهم كاتب هذه السطور. فقد ألقيـتُ كلمةً ارتجالية مطعمّة بأبيات نارية لخليل مطران منها:

حـطّموا الأقـلام، هـل تحـطيمهـا
يـمنـع الأيـدي أن تـنقش صـخـراً

قـطعّـوا الأيـدي، هــل تقـطيعهـا
يـمنــع الأعـين أن تـنـظر شـزراً؟!

وكان عميدنا «القاضي» يسمع بملء أذنيه في غرفة قريبة هذا الزئير المنطلق من حنجرة ابن أخيه، وكنتُ أتوقع منه أن يوسعني لوماً وتقريعاً أثناء زيارته لنا في قبول يوم السبت، ولكنه لم يتطرّق إلى هذا الأمر منذ ذلك التاريخ حتى وفاته!، وهكذا قدّر ظروفي كطالب شاب ملتهب الدم وكشاعر حسّاس متأجج العاطفة، وغلّب هذا الاعتبار على أي اعتبار آخر...

وأذكر أن وفداً من طلبة الحقوق ذهبوا، في تلك الظروف، إلى

المرحوم «كامل الجادرجي» رئيس الحزب الوطني الديمقراطي وعرضوا عليه مطالبهم العديدة ومنها تنحية «منير القاضي» عن العمادة، وطلبوا من الجادرجي أن يؤيدهم في جريدته «الأهالي» بهذا المطلب!

وأخبرني أحدهم أن «الجادرجي» قال لهم:

ـ بالرغم من اختلافي مع بعض وجهات نظر الأستاذ منير القاضي حول علاقة العمادة بالسلطة، فإني أقول لكم بصراحة أن «كلية الحقوق» لا تجد عميداً كمنير القاضي في طيبة قلبه ورحابة صدره وحنانه الأبوي.

فنزل الطلبة عند رأي «الجادرجي».

* * *

وبعد تخرجي في كلية الحقوق سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ مارستُ المحاماة لمدة تقرب من السنة ثم شاءت العناية الإلهية أن تجمعني مرة ثانية بأستاذي القاضي ـ رحمه الله ـ الذي يسّر أمر تعييني بوظيفة ملاحظ لمكتبة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٥، وقال لي يومئذٍ:

ـ إنني أحبّذ لك هذه الوظيفة الثقافية لئلا تنقطع عن البحث الأدبي، فحرام أن تبتلعك وظيفة أخرى تحول بينك وبين الأدب الذي خُلقت له. وأردف ذلك بثناء أتمنىّ أن أستحقه يوماً ما. . .

وأذكر أن رئيس المجمع «منير القاضي» كان ذا حزم وعزم في الإدارة شبيهٍ بحزم وعزم العسكريين، فقد كان لا يتردّد على الإطلاق،

عندما يتضح له الصواب في أمرٍ من الأمور، فيقدم على العمل وينجزه بسرعة، ولا يؤجّل عمل اليوم إلى غدٍ. . .

وبالرغم من احتكاكي اليومي برئيسي «منير القاضي» لا سيما عندما أنيطت بي مهام «سكرتير المجمع العلمي العراقي» بالإضافة إلى وظيفتي في المكتبة، بعد إيفاد الدكتور جواد علي سكرتير المجمع آنذاك إلى خارج العراق، فإنني لم أختلف مع أستاذي ورئيسي إلاّ مرّة واحدة ولمدة دقائق معدودة، وذلك عندما اتصل بي هاتفياً في اليوم التالي لجلسة المجمع وسألني:

ـ هل بيضتَ مسوّدة محضر الجلسة؟

فاعتذرت بانهماكي بإنجاز بعض أشغال المكتبة الفوريّة الضرورية، ووعدته بتبييض المحضر بعد ذلك، وقلتُ له:

ـ بيننا وبين تلاوة المحضر أسبوع كامل، وتبييضه لا يستغرق أكثر من نصف ساعة. . .

فلم يقتنع وقال بلهجة لا تخلو من الحدّة:

ـ إن هذا الأمر لا يحتمل التأخير!. .

فذهبتُ إليه وأخبرته بطبيعة العمل الفوري الضروري الذي كنتُ أمارسه ورجوته أن يسمح لي بإنجازه قبل كتابة المحضر. . فأصرّ على رأيه وقال: ـ إن هذا الأمر لا يحتمل المناقشة!

فتملكتني الحدّة وقلت له:

ـ لا يوجد أمر لا يحتمل المناقشة. . .

ورجعتُ إلى المكتبة وكتبتُ مبيضة المحضر ثم رجعتُ إليه فوجدته هاشاً باشّاً وكأنَّ شيئاً لم يحدث، فتلوتُ المحضر على مسمعه، فاستمع إليه مغتبطاً راضياً . .

* * *

وبالرغم مما تمتاز به شخصية «منير القاضي» من وقارٍ مستمد من العلم الغزير والحزم الشديد والرأي السديد والشيخوخة العالية، فقد كان شديد التواضع، يتبسّط في الحديث مع أصغر موظف أو مستخدم في الدائرة ويشعر الجميع بأنه ليس رئيساً لهم وإنما هو والدهم الروحي.

ويرجع الفضل إليه في تأسيس «مكتبة المجمع العلمي العراقي» ومطبعة المجمع وشعبه التصوير الفنيّ بالفوتوستات التي أمدت مكتبة المجمع بكثير من المخطوطات النفيسة المصوّرة، كما بذل جهداً كبيراً متواصلاً للحصول على موافقة المسؤولين على إنشاء بناية ضخمة تناسب مكانة المجمع العلمي وتفي بأغراض تطوّره في المستقبل، وفي عهده فحصت تربة أرض المجمع للتأكد من صلاحها للبناء.

وكان يشجعّ المؤلفين الناضجين على طبع مؤلفاتهم الخطيّة على نفقة المجمع وبمطبعة المجمع أو بمطابع أخرى، ولم يكن تشجيعه للكتب التي تعنى بالعلوم بأقل من تشجيعه للكتب التي تعنى بالآداب. ولا أنسى، عندما كنتُ قائماً بمهام «السكرتير» اهتمامه الشديد أثناء جلسات المجمع بكتاب «الصمام الألكتروني» لمؤلفه الدكتور «نورالدين الربيعي» ذلك الكتاب الذي كان يفتقر في بعض فصوله إلى حروف خاصّة غير متوفرة في مطابع العراق آنذاك.

* * *

ومن الأمور الطريفة التي تدّل على حنانه الأبوي أنه كان الشاهد في زواج جميع أخواتي وشاهد زواج شقيقي الأكبر «هاشم الراوي».

كان المرحوم «منير القاضي» رئيساً للمجمع ووزيراً للمعارف عندما تزوجت سنة ١٩٥٦. وأذكر أني اتصلتُ به هاتفياً عندما كان بمكتبه الرسمي ودعوته لحضور مجلس العقد فاستبشر وقال:

ـ سأحضر كشاهد...

وكان ـ رحمه الله ـ أول الحاضرين وأول المستبشرين. وما يزال توقيعه كشاهد لعقد زواجي في سجل المحكمة الشرعيّة لسنة ١٩٥٦.

* * *

وبعد إنهاء عضويته في المجمع سنة ١٩٦٣ لم تنقطع زياراتي له في منزله. فكنتُ أحسّ في مجلسه بلذّة روحيّة أين منها طعم الشهد المصفّى... فقد كان ـ رحمه الله ـ بعيداً عن القيل والقال واغتياب الناس، وكان يتبسّط في الأحاديث الدينيّة والأدبية والاجتماعيّة فأسمع منه الرأي الناضج والقول السديد والطرائف والنكات المستملحة.

زرته مرّة في مساء الخميس الموافق ١٢ آذار ١٩٦٤ فاستقبلني، كعادته، هاشّاً باشّاً، وبعد أحاديث مختلفة قال لي بأنه يفكّر بإعداد بحث عن أبي البشر «آدم» معزّز بالآيات القرآنية الكريمة. وتحدّث عن نظرية «دارون» وقال عنه:

ـ إنه لم يقل أن الإنسان كان قرداً ثم صار إنساناً وإنما قال أن القرد والإنسان من فصيلة واحدة افترقت إلى فصيلتين. وأن الكائنات الحيّة كانت من فصيلة واحدة، ثم تطورّت وتنوّعت.

ومما قاله الاستاذ القاضي في تلك الأمسيّة:

ـ أنا أرفض التفسير المادّي للكون...

وأخذ يسخر من الذين يرون الكائنات قد تولّدت عن طريق المصادفة ومما قاله لي بهذا الشأن:

ـ ألا تسخر منّي عندما أقول لك أن هذه الغرفة التي تضمنا الآن قد تكوّنت عن طريق المصادفة بأن اجتمعت الأحجار مع السمنت مع الحديد مع الأخشاب فتكونت الغرفة بشكلها الحالي؟ ولهذا فإن إيماني بخالق الكون سبحانه وتعالى لا يتزعزع...

وقد أثنى على العلّامة المخترع «أديسون» وقال:

ـ إن الله ألهمه اختراعه العظيم إلهاماً...

وانتقل في حديثه إلى المكان الذي يرتاح فيه وقال:

ـ إن أجمل مكان أرتاح فيه في الدنيا راحة نفسيّة لا تعادلها راحة هو «المكتبة».

* * *

وزرت الأستاذ في مساء اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى المبارك بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٦٥ وما كدت أهنئه بالعيد السعيد وأجلس حتى حضر العم الكريم المرحوم «عبدالله المؤيد النقيب» صديق والدي الحميم، فدار الحديث حول فلسطين، فأكدّ «القاضي» أن العرب سينتصرون على «إسرائيل» اليوم أو غداً أو بعد غدٍ ولا داعي لليأس...

وأثنى على كتابي «مع الشعراء» وقال لصديقه «المؤيد»: إنه كتاب «يونس» ـ أي يثير الأنس في النفس.

وفي مساء يوم ١٧ نيسان ١٩٦٥ زار بيتنا العم «منير القاضي» وتفقدّ صحة الوالدة ــ رحمها الله ــ وأثنى على أخلاقها وعلى عائلتها، وحدّثنا عن وفائه لأبيه وأمّه وقال: إن أباه كان يعتمد عليه في قضاء أشغال البيت. ومما قاله أيضاً أنه ساهم في حمل نعش أمّه بيديه مع المشيعين وفاءً لها وتكريماً لمنزلتها العظيمة في نفسه.

وبعد برهة من الزمن اصطحبني بسيّارته إلى بيت صديقنا الشاعر الكبير «حافظ جميل» الذي رحّب بأستاذه «القاضي» كثيراً، وبعد أن دارت أحاديث أدبية شتىّ قال «القاضي» لحافظ جميل:

ــ إن إلقائك الشعر أمام الجمهور شبيه بإلقاء «الرصافي» ولكنه أحسن من إلقائه...

ثم أثنى على شاعرية «حافظ» وعلى شاعرية «خالد الشوّاف». وتلا علينا قصيدة دعابيّة نظمها في لبنان.

* * *

وفي شتاء سنة ١٩٦٨ دعاني العم «القاضي» مع الأخ «حافظ جميل» لتناول العشاء في بيته، ولم نكد نطرق الباب حتى فتحها أستاذنا هاشاً باشّاً مرحباً مستبشراً كعادته فقبّلنا وقبّلناه...

وبعد فترة من الأحاديث الأدبيّة الممتعة أنشدنا أستاذ الجيل قصيدتين وجدانيتين من نظمه، كانت الأولى بعنوان «حديث الشباب» والثانية «حديث الشيخوخة». وقد استحسن «حافظ جميل» بعض أبيات القصيدتين وأبدى بعض الملاحظات على بعض الأبيات...

ثم أنشد «حافظ» شيئاً من شعره فطرب الأستاذ وأمطر تلميذه

القديم بوابلٍ من ثنائه. وعندما جاءت الخادمة بالطعام، أكثر الأستاذ من تناول الطعام على غير عادته...

وبعد هذا اللقاء زرت الأستاذ العم في منزله أكثر من مرّة، آخرها زيارتي له قبل وفاته بأشهر معدودة حيث أطلعت، لأوّل مرّة في حياتي، على مكتبته الكائنة في الطابق الثاني من داره. ولم تكن كتبه بالكثيرة ولكنها تعدّ من أمهات الكتب في الفقه والقانون واللغة والأدب.

وأعاد الأستاذ على مسمعي قوله بأنه ما يزال يشاهد صديق عمره المرحوم والدي في الحلم أكثر من مرتين في الأسبوع وذلك منذ ثلاثة أعوام، وأن الاتصال الروحي ما يزال مستمراً بينه وبين والدي وأنه شاهده في الحلم خلال زيارته الأخيرة للندن، وكان يظهر بمنزلة عالية مرموقة ويتحدّث بأنفس وأجمل الأحاديث.

* * *

وفي مساء يوم الأحد الموافق ٩ شباط ١٩٦٩ اتصل بي الصديق الشاعر. «حافظ جميل» هاتفياً لينعى ــ وهو في غاية الحزن والأسف ــ أستاذه وأستاذي «منير القاضي» بعد أن سمع نعيه من إذاعة وتلفزيون بغداد. وقد هزّ نعيه جميع المغترفين من ينبوع علمه وفضله وأريحيته فتجمهروا في صبيحة يوم الاثنين الموافق ١٠ شباط ١٩٦٩ أمام دار الأستاذ الراحل، وكنتُ بطبيعة الحال من بينهم، ولمحتُ بعينيَّ الباكيتين الدموع المنهمرة من عيون تلامذة الأستاذ وأصدقائه ومحبيه. وما أروع الدمع وما أصدقه بل ما أجمله في موكب الوداع الأخير...

□ □ □

مع أمين نخلة

في أمسية السابع عشر من أيلول ١٩٥٤، وفي «فندق بيت مري الكبير»، وقبل افتتاح مؤتمر الأدباء العرب الأول بالفندق المذكور بيوم واحد، قدّمني الصديق الشاعر «صلاح الأسير» ـ رحمه الله ـ إلى «أمين نخلة» الذي كان جالساً في حلقة واسعة من رجال الفكر، فنهض الأستاذ نخلة هاشّاً باشّاً ورحّب بي ترحيباً كان ـ في الواقع ـ أكثر مما استحق، ولكنني، مع ذلك، لم ألمح عليه علائم النفاق وسمات التصنّع، وإنما وجدتني غريق أريحيّة فيّاضة تتدفّق من قلب كبير. . . وأخذ على عاتقه، فوراً، مهمة تقديمي إلى الأدباء الحاضرين كما لو كان يعرفني منذ مدّة طويلة!. .

كان «أمين» مغناطيسياً بشرياً، والحاضرون من أدباء وشعراء ـ لا أستثني منهم واحداً ـ مسامير تتهاوى على هذا المغناطيس البشري العجيب! فما من أديب ـ مهما يكن بارعاً في الأدب والحديث ـ يستطيع أن ينبس ببنت شفة في مجلس هذا الأديب الشاعر العالم، إذا أطلق العنان لصوته ذي البّحة المحبّبة وطفق يتحدّث!. .

ولا يجفّ ريق الأمين حتى ولو بقي يتحدّث النهار كلّه أو الليل حتى الهزيع الأخير منه! وإذا قُدّر لمن تهجس بذهنه فكرة جميلة أن يقاطعه فإنه يسدّ المسالك عليه بلباقة عجيبة تشعره أن السكوت أولى من

الكلام وأن حسن الاستماع يؤدي إلى الكثير من الاستمتاع، وهكذا يعُود المستمع نفسه على فنّ الاصغاء!

وإذا شاء المتحدّث أن يمضي في حديثه متحدّياً سيل أحاديث الأمين فإن أبا سعيد يستمع إلى بعض ما يقول وهو يفكر بنكتة جديدة أو رواية طريفة تهزّ الحاضرين بأرجوحة الضحك المتصل!..

* * *

كانت غرفة «أمين» في الفندق، قريبةً من غرفتي، وبينما كنتُ ذاهباً لتناول الفطور إذا به يناديني طالباً مني أن أعيره قلم الحبر لينظم قصيدة في الترحيب بصديقه الحميم «أحمد رامي» فأعرته قلم الرصاص لحاجتي الماسّة إلى قلم الحبر... ورجعتُ إليه، بعد الفطور، فأنشدني ما نظم، وكانت أبياته زاخرة بالمبالغة والتهويل، ولما صارحته بذلك ضحك وقال:

ـ «أحمد رامي» ضيفنا ومن عادة العربي أن يبالغ في إكرام ضيفه...

ولشدّة المحبّة التي تربط بين قلبي الحميمين «أمين» و«رامي» فإنهما جلسا صامتين ذاهلين يتناجيان بالدموع الغزيرة عندما أزمع «رامي» العودة إلى «مصر». ولفرط إصرار «أمين» على بقاء «رامي» فإن «رامي» اضطر إلى التسلل والهروب من الفندق!!.

* * *

وفي آب (أغسطس) ١٩٥٥ زرتُ المحامي «أمين نخلة» في مكتبه ببيروت فلم أجده، فتركت له بطاقة ضمنتها عنواني في مصيف «عين السيدّة» وأشعرته أن عودتي إلى «بغداد» ستكون في اليوم التالي...

وبينما كنتُ أتناول عشائي في قاعة طعام «بالاس أوتيل» إذا بالخادم يقول لي: - في حديقة الفندق زائر يسأل عنك...

فقلتُ لنفسي: من عسى أن يكون هذا الزائر الثقيل؟ وما دار بخلدي، على الإطلاق، إن هذا الزائر هو أخف الزائرين ظلاً وألطفهم روحاً.. وأنه «أمين نخلة» الذي ما كدتُ أعانقه حتى بادرني بقوله:

- لأوّل مرّة يسمع مني السائق كلمة «إسرع»!..

وبعد جلسة قصيرة دعاني إلى مقهى «البارودي» في «سوق الغرب» - منطقة رأس الجبل.. وما كانت الخمرة على لذتها ولا الفواكه المثلجة، على طيب نكهتها ومذاقها بألذ وأشهى من أحاديث أمين نخلة ونكاته.

والذي علق بذهني من أحاديثه الأدبيّة في تلك الجلسة الممتعة مؤاخذته لأخواننا أدباء المهجر على تساهلهم اللغوي وجنوح بعضهم إلى إقحام الأساليب الفرنجيّة في الشعر والنثر العربيين. ولما التمست لهم بعض العذر بعدم إطلاعهم الكافي على الأدب العربي القديم قال لي:

- إن مكتبة «جبران» في «بشريّ» تضمّ أمهات كتب الأدب العربي القديم..

* * *

وفي ربيع ١٩٥٦ زار «أمين نخلة» بغداد، فاهتزّت الأوساط الأدبيّة لزيارته ورحّب به أخوانه أدباء «مدينة السلام» ترحيباً إلى درجة أن «الجواهري» - ولم يكن وضعه المالي ليساعده على إقامة الولائم - أقام لأمين نخلة دعوة كبرى في منزله المستأجر قرب «ساحة عنتر» دعى إليها

صفوة أدباء وشعراء العراق، وكان «الجواهري» ــ والحق يقال ــ سخياً بكل معنى الكلمة في دعوته (اليتيمة)..

ولا تسل عن سخاء «حافظ جميل» و «خالد الدرّة» في دعوتيهما لأمين. وأقام كاتب هذه السطور لأمين دعوة في داره حضرها أكثر من عشرين أديباً وشاعراً كان في طليعتهم «محمد مهدي الجواهري» و «حافظ جميل» ولم يتخلف من المدعوين إلاّ «أمين نخلة» الذي أقيمت الدعوة على شرفه!!

وعرفنا أسباب التخلّف عندما رنّ جرس الهاتف وكلمّنا رجلٌ من «النجف» ليبلغنّا اعتذار «أمين نخلة» مع أطيب تمنياته لأخوانه المدعوين بسبب إصرار بعض النجفيين الكرام، على أن يبيت الليلة عندهم!

ولئن خسرنا الأمين في تلك الليلة السعيدة فقد ربحنا «الجواهري» و «حافظاً» حيث تألقا في أفق الشعر وأنشدا من شعرهما الأصيل الجميل ما رنحّ الأعطاف وأرقص الجوارح...

وزارني «أمين» في بيتي بعد عودته من «النجف» فمحت أريحيته تقصيره!...

* * *

نزل «أمين» في بغداد في فندق «تروكاديرو» قبل أن ينتقل إلى فندق «سميراميس» فصار «تروكاديرو» محجّة الشعراء والأدباء... ولا أنسى ذكريات ليلة نابغيّة في غرفة أمين بهذا الفندق حيث تقاطر عدد كبير من الأدباء والشعراء وكان بعضهم يحمل بيده زجاجة إلهامه...

وكان «أمين» متوعكاً يشكو من مرارته، مستريحاً في فراشه بنصف

اضطجاعة، ولعلّه كان يعاتب المرض الذي حرمه من نعمة ترع كأسه بالكؤوس المترعة! . . .

كان الجوّ في بدايته جوّ شعرٍ ومرح، ولما واصل الشعراء الشرب وأطالوا الجلوس تلبدّت غيوم المزعجات وسمعوا من ينذرهم بحق قائلاً:

ـ دعوا «أمين» يرتاح فهو بحاجة إلى الراحة. . .

* * *

وفي أواخر آب (أغسطس) ١٩٥٧ دعت مديرية السياحة والاصطياف في لبنان خمسة من أدباء العراق لزيارة لبنان هم: أحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد وعبدالرزاق محيي الدين وكوكيس عوّاد وحارث طه الراوي. فحللنا في فندق «رون بوان» بعاليه معزّزين مكرمين من قبل رجال الأدب والصحافة في لبنان الذين تقاطروا علينا من العاصمة والمصايف. وكان من المؤمّل بل من المتوقّع أن يخفّ «أمين نخلة» لزيارتنا والترحيب بنا. ولكن الأمين ـ لسبب نجهله ـ لم يجشّم نفسه عناء زيارتنا. فاهتزّ «الصرّاف» لهذا التهرّب الذي بدا مقصوداً من «أمين» وأرسل إليه بطاقة مفتوحة ضمنها عتاباً لاذعاً. . . وبعد وصول العتاب اللاذع بيومٍ واحد جاء «أمين» إلى الفندق يسأل عنّا، وكان رفاقي قد سبقوني بالنزول إلى «بيروت» وكنتْ أنتظر سيّارة للحاق بهم، فاصطحبني «أمين» بسيارته الفارهة واتجهنا إلى بيروت قاصدين «دار الريحاني للطباعة والنشر» حيث اتفقنا على اللقاء. ولم نكد نصل الدار حتى وجدنا حلقة من شباب أدباء لبنان. وبعد السلام والكلام حضر «الصراف» ورفاقه. وقبل أن يلقي التحيّة على «أمين» والحاضرين انهال على «أمين» عتاباً ولوماً وأنهى عتابه بقوله لأمين:

ــ إن كنت تلتزم بواجبات الصداقة، فعلاً لا قولاً، فادع الحاضرين، الآن، على أكلة سمك، بشرط أن يكون السمك من نوع «سلطان ابراهيم» وإلّا فضحناك!..

فابتسم «أمين نخلة» وقال للحاضرين:

ــ تفضلوا!

فاتجهنا معاً إلى أحد مطاعم الزيتونة الذي يطل على البحر. فماذا حصل؟

لقد أمر «أمين» أن يوضع «سلطان ابراهيم» في صحن «الصرّاف» أما صحوننا فقد كان نصيبها الأسماك الصغيرة!! وهكذا اشترى «أمين» سكوت «الصراف» الذي شغلته مغريات صحنه عن المطالبة بحقوق الآخرين!...

* * *

وفي آب ١٩٦٠ زرتُ لبنان، مع أسرتي، للاصطياف، وتركتُ لأمين نخلة بطاقة تحيّة ذاكراً له عنواني في «عين السيّدة» وانطوى أسبوع من غير أن يطلّ أمين على الفندق، فأقسمت ألّا أراه وألّا أسأل عنه في الزيارات القادمة! وإذا بميشيل قشّوع، صاحب الفندق، يخبرني في صباح اليوم الأول من أيلول أنه شاهد «أمين نخلة» في «دير الشير» بسوق الغرب ــ على بعد عشرات الأمتار من عين السيدة ــ وواصل «قشّوع» كلامه قائلاً:

ــ وقد أوصاني أن أقول لك بأنه ينتظرك في مكتبة الدير، في المكان الذي اجتمع فيه بالمرحوم والدك قبل ربع قرن!

فأحرجني بذكر المرحوم والدي ووجدتُ من اللياقة أن أذهب إليه، فاتجهتُ إلى الدير الجميل ماشياً، لقربه من الفندق، ولم أكد ألمح «أمين» حتى تعانقنا وانتهى الغضب!...

وطلبتُ من «أمين» أن يضع مقدمة لديواني «تباريح» الذي كنتُ أهمّ بطبعه في «دار الريحاني»[1] ببيروت، فاستجاب الرجل لطلبي، فتركتُ له الديوان عند صديق الطرفين «البرت الريحاني» صاحب الدار المذكورة، ثم عدتُ إلى بغداد وكتبتُ لأمين، بعد مدّة طويلة من عودتي، مستفسراً عن مصير المقدّمة فلم أحصل على جواب؛ ثم أردفتُ الرسالة بأخرى، فكان الصمت هو الجواب!! فوسوس لي شيطان شعري أن أسدّد لأمين سهام عتابٍ غير مسمومة... فنظمتُ الأبيات التالية التي تلوتها على مسمع صديق الطرفين «حافظ جميل» وسألته إذا كان من اللياقة أن يعاتب «أمين نخلة» بمثل هذه اللهجة اللاذعة؟ فأجابني «حافظ» والابتسامة تعربد على شفتيه:

– هذا أقل ما يقال في «أمين نخلة» فلا تتردد في إرسالها إليه... وهذه هي الأبيات:

وعودَك لم تثمر سوى حنظلِ المطلِ
أتحسبها، يا شيخ، ضرباً من الهزلِ؟
تقول: أنا الخلُّ الوفيّ وهذه
فعالي، وهل فيكم أخو نخوةٍ مثلي

---

(١) صدر، فيما بعد، عن «دار مكتبة الحياة» ببيروت سنة ١٩٦١.

وليتـك عـزّزتَ الـكـلامَ بـفـعـلةٍ
نـراها فنغضي عن سـرابٍ من القولِ

* * *

شِكـا منكَ أخـوانُ الصفـاء جميعهم
على أن شكـواهم تسامت عن الغـلِّ
فكم صـاحبٍ أهـدى إليـكَ وفـاءه
وجـاءَك لا يرجـو سوى بسمـة الخـلِّ
تـواريـتَ عنـه وانـزويت كـأنـمـا
تلقيتَ تهـديـداً من الخـلِّ بـالقتـلِ!
تُشـيـدُ لـه لـمـا يـراكَ بشـارعٍ
جبـالاً من الأعذار أوهـى من الـرملِ
متى تـرعـوي، يـا شيـخ، إن عتـابنـا
شديد، وما صغناه من معـدنِ الجهلِ

وما كاد «أمين» يتسلم هذه الأبيات اللاذعة حتى أجابني في دمشق بالرسالة التالية المؤرخة في ١٩٦٠/١١/٥:

«أخي...

أنا منذ شهر وعشرين يوماً على التقريب لا أزال بين دمشق وبلاد قطر والشارقة ودبي والبحرين على الخليج. وقد عدتُ يوم أمس إلى دمشق فوجدتُ بين أوراقي التي أُرسل بها إليَّ من بيروت كتابيك، ووجدتُ في أحدهما أبياتك في العتاب، فقلتُ في نفسي: يظهر أن الحبيب حارثاً لا يعرف غدر الغائب! إلاّ أنني سررتُ بالأبيات على

قاعدة: «فقد سرّني أني خطرت ببالـك».. وعلى أنني كنتُ مـداراً لخواطركَ في هذه الإجادات الشعريّة العالية التي جاءت تؤكّد القول القديم «أعذب الشعر أكذبه»! ويا حبذ هذه العذوبة، ويا حبّذا «موافقة» حافظ على ما ورد فيها، فإن في ذلك كلّه نشراً من مهبّ «زرود»..

أما المقدّمة لديوانك فستكون بين يدي الأخ الريحاني بعد رجوعي من دمشق إلى بيروت. وكأني بكَ قد نسيت ما ذكرت لي من أن الريحاني سيشرع في طبع الديوان في مستهل السنة الميلادية القادمة، وأين نحن، يا رعاك الله، من رأس السنة الميلادية القادمة؟!

هذا وأنا مشتاق إليك، وإلى الأخ الأحب الأغلى حافظ الذي أقبّله في وجنتيه وما بين عينيه، وسلمتما، أنت وهو، وعشتما طويلاً إن شاء الله...

أمين نخله

* * *

ولئن وفى (أمين) ـ بعد هذا العتاب اللاذع ـ بنظم تصـدير لديواني «تباريح» فليس معنى ذلك أن العتاب اللاذع يجدي معه في كل الحالات. فكم أسخط صديقاً بتهربه من واجبات الصداقة، مما يضطر صديقه إلى ركوب هذا المـركب الخشن معه. وحسبنـا أن نستشهد بما جرى لصديقه الشاعر العراقي الكبير المرحوم خيري الهنداوي الذي أفصحت قصيدته «دغدغات»[٢] عن معاناته الأليمة مع صديقه (أمين نخلة) وحسبنا أن نقتطف منها الأبيات التالية:

---

(٢) جريدة «الأخبار» البغدادية، الملحق بالعدد ٨/١٠٨ سنة ١٩٣٨.

ألأمـين نـخلة والـوفـاء سـجـيّـةٌ
مـوصـولـة الـحـلقـاتِ بـالآبـاءِ
هـذا أبـوكَ أبـو الـوفـاء وخـدنـه
وأخـو الـنـدى ومـنـاط كـل رجـاءِ
فـعـلامَ تـطّرحُ الـمـروءة جـانـبـاً
وتـخـون عـهـد مـودّتـي وأخـائـي
غـادرتـني مـتسـكـعـاً فـي غـربـتي
وهـربـتَ من وجـهـي بـدون حـيـاءِ
تـمضـي الشـهـور ولا أراك كـأنـني
فـي مـقـلتـيـكَ قـذىً مـن الأقـذاءِ
وتـزورنـي عـجـلاً وتـكـذبُ مـرّةً
أخـرى بـمـوعـد زورتـي ولـقـائـي

وآخر لقاء لي مع أمين كان في صيف ١٩٦٢، حيث التقينا لقاءً عابراً في «مطعم بحري على شاطىء البحر ببيروت وكنتُ مع عائلته، فأهديته نسخة من ديواني بتاريخ...»

ثم انقطعت أخباره عني عن طريق المراسلة، وعلمتُ بانحراف صحته ولزومه لبيته، وكانت آخر رسالة تلقيتها منه هي الرسالة المؤرخة في ٢ تموز ١٩٦٨ وفيها يقول:

«أخي الحبيب

حفظك الله، وحفظ أدبكَ وفضلكَ ووفـاءكَ، وأراني وجهك

الميمون في لبنان، في هذا الصيف الطّالع. ثم أني لا أعجب لما ذكرت في كتابك عن مقالكَ في ذكرى والدِي، وعن قصيدتكَ في صدور «الديوان الجديد»، وعن مقالكَ في صدور «ليالي الرقمتين». فإنما الوداد يُملي، ولطفكَ يفيض فيضه الكريم تفضلاً من غير مكافأة ولا قرض!

فسلمتَ، وعشتَ طويلاً.

أخوكَ

أمين نخلة»

ثم روّعتنا الأخبار بإصابة الأمين بجلطة دمويّة هدّت قواه وأنهكته وأضعفته حتى أصبح جديراً بترديد بيت أستاذه أبي الطيب المتنبي:

كفى بجسمي نحولاً إنني رجلٌ
لولا مخاطبتي إيّاكَ لم ترني

ولم أكد أسمع بتظافر جهود بعض محبّي «أمين» في لبنان لإقامة حفلة تكريميّة كبرى له في (بيروت) حتى توقعتُ أن أدعى لهذه الحفلة[٣]، ولكن الاختيار وقع على الشاعرة لميعة عبّاس عمارة. ومع ذلك فإني تماديتُ في نظم قصيدتي الوجدانية في تحيّة صديقي الشاعر والناثر الساحر «أمين نخلة» وأرسلتها إلى مجلة «الأديب» البيروتية فنشرت في عدد مايو، ١٩٧٤، ص ١٨. ثم رحل إلى رحمة ربه في ١٩٧٦/٥/١٣ فبكيته ونظمتُ مرثيتين لذكراه بدموعي السخينة.

□ □ □

---

(٣) حالت ظروف قاهرة في لبنان دون إقامة هذه الحفلة.

مع أحمد رامي

التقيتُ بالشاعر (أحمد رامي) لأول مرّة في مؤتمر الأدباء العرب الأولّ الذي انعقد في (بيت مري) بلبنان سنة ١٩٥٤. وأذكر أن مجلسه كان أجمل المجالس الأدبيّة التي شهدتها آنذاك وأوفرها مرحاً وأنساً. وحسبك بحلقة من إخوان الصفاء تضمّ «أمين نخلة» وتضمّ بالإضافة إليه «خليل الهنداوي» و«عبداللطيف شرارة» والمغفور لهم: «واصف البارودي» و«رئيف خوري» و«صلاح لبكي» وغيرهم ممن أذكر ألطافهم ولا أتذكّر أسماءهم...

كان «رامي» مرحاً طروباً، خفيف الدم ـ كما يقولون ـ ولو لم يكن كذلك لكانت مصيبته بوجهه المجدور وأنفه الذي يبدو كما لو كان بلا منخرين لفرط التصاقه بوجهه، أهون من مصيبة جلاّسه!..

ولكن.. أيّ جمالٍ روحي، وأي ظرف، وأي مرح، يختفي وراء هذا القناع المزيّف؟!.

ولعلّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه على هذه الصورة المنفّرة ليبعد عنه قبلات جلاّسه وجليساته.. إذ لا يملك المستمع إلى حديث «رامي» إلا أن يهمّ بتقبيله، متحدياً مقاييس القبح والجمال، فكيف الحال لو كان (رامي) جميلاً أو مقبول الشكل على أقل تقدير...

تلوتُ على مسمع «رامي»، عند لقائنا الأول، بعض قصائدي الغزليّة فاهتزّ وطرب، وعلم جيداً أني من العشّاق المتيمين الذين ألفوا السهر والدموع.. فكان (رامي) ــ وهو الخبير بشؤون الحب والمحبين ــ يعطف عليّ ويرقّ لحالي ويحاول أن يهوّن عليّ بليّة الهوى...

وانفرد «رامي» ذات ليلة تحت صنوبرة هرمة، فاقتحمتُ عليه عزلته فألفيته فِي انسجامٍ تام مع شيطان شعره فحاولت أن أتركه وشأنه، ولكنه رحّب بي ودعاني للجلوس، فالتمستُ منه البلسم الشافي للجراح التي خلّفها الحب المصطدم بصخرة الظروف القاسية..، وكنت مندفعاً أشدّ الاندفاع لا أريد أن أرضخ للظروف وأنكّس رأسي أمام الأمر الواقع!.. فقال (رامي):

ــ إنني أشبّه حالك بحال الزورق في وسط نهرٍ تلطمُ أمواجه سياطُ عاصفةٍ مجنونة فتتقاذفه الأمواج يميناً ويساراً حتى ليبدو للمشاهد أن هذا الزورق المضطرب لا يصل سالماً إلى الساحل.. ولكنه، على أي حال، سيصل، إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غدٍ! فامضِ في حبك، وستصل، يوماً ما، إلى شاطىء النسيان بصورة طبيعية...

وأبصرتُ في يد «رامي» منهج مؤتمر الأدباء وكان يكتب عليه بعض الأبيات ثم يستسلم لإطراقة عميقة، وعلمت منه أنه ينظم قصيدة نونيّة في «لبنان» فنهضتُ لأتركه منفرداً مع شيطان شعره، فطلب مني أن أخبر أحد خدم الفندق بأن يضع في غرفته شيئاً من الفواكه لأنه لا يريد أن يتعشى، فلبيتُ طلب أبي محمد.. وذهبتُ إلى «أمين نخلة» فوجدته يعبُّ النبيذ اللبناني الأحمر عبّاً مع زمرة (إخوان الصفاء).. فبشّرته بقصيدة صديقه «رامي» فطلب منيّ أن أخبره بوزنها وقافيتها ليجيبه عليها

فوراً!.. فضحكنا وانطلقنا معاً، بعد برهة من الزمن إلى «رامي» ورافقتنا في ذهابنا إليه الأديبة اللبنانية «زاهية أيّوب» وما كدنا نجلس إلى شاعرنا «رامي» حتى علمنا أن نَفَسَ القصيدة قد طال وأنه أوشك على الانتهاء منها.. فأنشدنا «أبو محمد» أبياته الوجدانية الرقيقة، وكانت تعليقات الأمين على أحد الأبيات ذات الشدّ والعناق، دسمة للغاية، لا تقال في جوٍ نسائي، مما أثارت فينا عاصفة من الضحك...

* * *

ولا أذكر أنني جلستُ في مجلس «رامي» إلاّ وأنا ملتذ بنكتة مرّت ومنتظو بفارغ الصبر أخرى ستأتي!..

من ذلك، أننا اجتمعنا خلال إحدى الليالي الباردة في قاعة الفندق وأذكر من المجتمعين «أحمد رامي» و«صلاح لبكي» و«خليل الهنداوي» و«عبداللطيف شرارة» وكاتب هذه السطور، ولا أذكر ما دار في ذلك الاجتماع الأدبي النادر من أحاديث أدبية ممتعة ولكني أذكر نكتة طبيعية من نكات «رامي» أثارت عاصفة من الضحك بين الحاضرين فقد نادى «رامي»، وكان يدخن «النارجيلة»، على الخادم فأتى الخادم بسرعة متلهفاً لأداء أية خدمة وبدلاً من أن يخبره «رامي» بأن جمر «النارجيلة» يحتاج إلى تجديد فإنه قال له باللهجة العاميّة المصرية:

ـ مص الأربيج ده وطلّع من بئك دخان!

فلم يفهم الخادم هذا الكلام ولا الغاية منه وتلفّت علينا وفي عينيه أسئلة حائرة لا تعدّ ولا تحصى، فأنقذنا الموقف وقلنا له:

ـ الأستاذ يريد جمراً لنارجيلته...

فضحك الخادم وضحكنا، ومضى مسرعاً ليجلب الجمر لنارجيلة الشاعر المرح...

* * *

وأحمد رامي سريع البديهة. وأذكر، في هذا المجال، إنني كنتُ جالساً معه ذات مساء في مجلسٍ ضمَّ باقة عطرة من أديبات الأرز.. ولا أدري ما الذي دفع «رامي» لأن يقول بلهجة الاعتزاز والفخر:

ـ لقد غنىّ لي المطربون والمطربات، في مصر، أكثر من خمسمائة (طئطوئة)...

ثم التفت على إحدى إحدى الأديبات الجميلات وسألها والابتسامة تتوهج على ثغه الأهرت:

ـ كويّس؟

فأجابته إحداهن:

ـ ولكن بعض الناس لا يستغيسونها!

فأجابها فوراً ـ كثير من الناس لا يحبون فاكهة الاجّاص...

وأذكر إنني قلتُ له:

ـ وماذا حصدتَ «يا رامي» من حقول أغانيك؟

فسبقته أديبة لبنانية في الإجابة حين قالت:

ـ لقد نال الخلود...

* * *

وعلى ذكر «الجنس اللطيف» لا بدّ لي من ذكر حادثة طريفة تصوّر مدى انجذاب «رامي» نحو هذا الجنس المعطّر.. ففي إحدى الأمسيات كنتُ جالساً مع «رامي» وزمرته فجاءت الأديبة اللبنانية الآنسة «نور سلمان» وأومأت لي لتكلمني في أمر خاص، فوقفنا على بعدٍ مَناسب من «إخوان الصفاء». وما كادت الآنسة نور تنتهي من حديثها حتى ناداني «رامي» قائلاً: — حسّون.. حسّون...

وحسّون اسم قصيدة[1] أنشدتها في مؤتمر الأدباء...، وأسرَّ في أذني قوله باللغة العاميّة المصريّة:

— تسمح تخليني أحكي ويه الستّ ده دقيقة وَحدة؟!

فضحكت وقلتُ له:

— تفضل وتكلّم معها لمدة ساعات... فما شأني بذلك...

وما كاد ينهض حتى اتجهت «نور» إلى «محمود تيمور» فاتجهنا إليهما ووقفنا معهما...

كانت الآنسة توجه إلى الأستاذ بعض الأسئلة والاستفسارات عن القصّة العربية فيجيبها «تيمور» بأسلوبه الهادىء المحبّب. وكان منظر «أحمد رامي» يثير الضحك عندما أخذ يحُكم أزرار «سترته» ويصلح شأن ربطة عنقه وهو يلتفت إلى «نور» عندما تسأل ثم يلتفت إلى «تيمور» عندما يجيب، وهكذا دواليك... فكدتُ أن أنفجر ضاحكاً لولا إشارة من الصديق «رامي» توسّل فيها أن أصبر على ما أصابني...

* * *

---

(١) نشرت فيما بعد في ديواني «بتاريخ»، بيروت ١٩٦١، ص ٦٥.

وعدتُ إلى بغداد بعد انتهاء المؤتمر وراسلتُ الصديق «أحمد رامي» ثم أرسلتُ إليه، فيما بعد، بعض مؤلفاتي فلم أتسلّم منه جواباً، فتأكّدت أن شاعرنا من المهملين في مجال المراسلات... وإنه لا يرسل، إذا سمح له مزاجة بالمراسلة، سوى صديقه «أمين نخلة» لأسباب يجهلها الراسخون في العلم ولا يعلمها إلا الله...

وتشاء الأيام أن تجمعني بالشاعر «رامي» في القاهرة وذلك في صباح يوم الأحد الموافق ١٢ أيار ١٩٦٣ عندما زرته مع شقيقي «لؤي» في مكتبه بدار الإذاعة، فرحّب بي ترحيباً حارّاً ودار الحديث حول «حافظ جميل» و«أمين نخلة»..

وحدّثني عن بعض نكات «حافظ إبراهيم» ـ رحمه الله ـ وكيف أنه حصل ذات مرة على مبلغ من المال من أحد أصدقائه الموسرين الطيبين فنادى على «رامي» ـ عندما كان يعملان معاً بدار الكتب المصريّة ـ وسلّمه جنيهات خمسة فقال له «رامي» مستغرباً:

ـ أعمل بيها إيه يا حافظ بيه (بك) إنها كثيرة عليَّ؟

ـ روح هيّص بيها...

ومن طريف ما شاهدته في لقائي هذا مع «رامي» إن بعض الفقراء كانوا يدخلون عليه ويحيّونه مبتهلين إلى الله أن يحفظه، فيمدُّ «رامي» يده إلى جيبه ويجود عليهم بما تيسر له من النقود المعدنية...

ورأيت بين ضيوفه رجلاً طاعناً في السنّ يشكو المرض والإملاق وعلمتُ إنه من أبناء المملكة العربيّة السعودية وكان هذا الشيخ المريض

موضع عطف ورعاية «رامي» وقد وعده شاعرنا الحنون بما أثلج صدره..

والغريب أن «رامي» الذي شهدت تصرفاته مع المحتاجين على سخاء يده وأريحية لسانه، لم يتكرّم علينا بشيء من المشروبات الباردة أو الساخنة!.. وكأنه كان يعلم بتخمة معدتينا، لفرط إلحاح إخواننا العرب في أرض الكنانة في وجوب شرب البارد أو الحار!!.

ولكن «رامي» قدّم لي أفضل هدية عندما هممتُ بتوديعه فقبّلني أوّل قبلة وقال: هذه لك، وأردفها بقبلة ثانية وقال: وهذه لحافظ جميل... ـ رحمهما الله...

□ □ □

مع صلاح لبكي

عرفت صلاحاً منذ فجر حياتي الأدبيّة. وكان لقائي معه على صفحات المجلّات، عندما كان يرنّ في أذني نقيق ضفادع الشعر، فكنتُ أطرب أشدّ الطرب لأناشيد الهزار اللبناني وأهتزّ لها...

ولم أتعرّف إلى «صلاح لبكي» وجهاً لوجه إلّا في تموز سنة ١٩٥٤ عندما دعاني الصديق الشاعر «صلاح الأسير» ـ رحمه الله ـ لتناول العشاء في منزله الصيفي بحمّانا ـ القرية اللبنانية الجميلة، وأخبرني بأن صلاحاً اللبكي سيحضر الدعوة مع شريكة حياته «عائدة».

جلستُ مع «الأسير» في حديقة فندق «الشاغور» نتنادم على كؤوس الخمرة اللبنانية، وبعد برهة من الزمن قال لي «الأسير»:

ـ لقد جاء «صلاح لبكي»..

فالتفتُّ، وإذا برجلٍ ربع القامة، يميل إلى القصر، يمشي ببطء وبجنبه امرأة نحيفة ترتدي ثوباً داكناً. واقترب «صلاح لبكي» فوقعت العينان على رجلٍ نحيف الجسم، حليق الشارب، مكتنز الوجه أسمره، تراجع الشعر عن جبهته الواسعة فزاد وجهه المستطيل هيبة وجمالاً...

وكانت تلوح على ثغره الواسع ابتسامة عذبة سريعة النفاذ إلى القلب...

سلّط الرجل عليّ نظرة المحب المطمئن من عينيه السوداوين الواسعتين النفّاذتين، وتعانقنا عناق أخوين وجلسنا نتنادم، فلمستُ في «صلاح» بساطة متناهية وعذوبة في الحديث، فقد كان هذا الشاعر يتحدّث بقلبه، بأعصابه، ولم يكن متصنعاً لا في حديثه ولا في إشاراته، بل كان منطلقاً مع سجيته إلى نهاية الشوط...

ثم ذهبنا إلى بيت «الأسير» لنتعشّى. وبعد العشاء تململ البلبل وطفق يصفّق بجناحيه، فلم تعقه جدران الغرفة عن بلوغ السحاب والطواف في أرجاء «عبقر»...

لقد كان، وهو ينشدنا من روائع شعره، يضع يده على صدره، ثم يرفعها ببطء في وجهي كأنه يحاول أن يستلّ من قلبه بقايا المعاني التي خانه اليراع في التعبير عنها وكانت في صوته رعشة هادئة تتدفّق من قلبه وأعصابه إلى شفتيه ومنهما إلى قلوبنا بسرعة البرق..

ثم التقينا بعدها مرّات عديدة زارني خلالها وزرته، فأصبحنا أخوين متحابين وانهارت بيننا حواجز الرسميّات، فعرفته على حقيقته وعرفني على حقيقتي..

وبعد عودتي إلى العراق بشهرين وجّه صلاح الدعوة إليّ لحضور مؤتمر الأدباء العرب الأول في «بيت مري» فالتقينا هناك وسكنّا في فندق واحد، وكانت غرفة «صلاح» قريبة من غرفتي وكنّا نجتمع ليلاً ونهاراً ونتبادل الآراء الأدبية والطرائف الشعرية، ونتنادم مع «أحمد رامي» و«أمين نخلة» و«خليل الهنداوي» و«عبداللطيف شرارة» وغيرهم. وكان «صلاح» يعيد على مسامعنا، بناء على إلحاحي، قصيدته الرقيقة

«أنتِ» التي تمرّد فيها على قانون القافية في الشعر العربي بتكراره القافية نفسها في كل بيت على النحو التالي:

أكلّما لاحَ لي خيالْ ... أقول أنتِ
وكلّما أشرق الجمالْ ... طلعتِ أنتِ
من حلم اللون والطيوبْ ... والضوء أنتِ
أنتِ شروق ولا غروبْ ... طوباكِ أنتِ
ما نشوة من شميم راحْ ... والراح أنتِ
وما أغانيّها الملاحْ ... واللحن أنتِ
يا وجعي منكِ في الهناءْ ... والبؤس أنتِ
ويا انتهائي ولا انتهاءْ ... عليكِ أنتِ

* * *

كانت شمس أيلول تسكب سيولها الذهبية على أشجار الصنوبر الشامخة في قرية «بيت مري» اللبنانية الجميلة، وكان الصباح باسمًا متألقاً عندما كنتُ جالساً مع الصديقين الشاعرين «أحمد رامي» و«أمين نخلة» استمع إلى «أمين» وهو يروي ذكرياته مع الشاعر «أحمد شوقي» والموسيقي «محمد عبدالوهاب» وغير ذلك من أحاديثه الطليّة التي لا تنتهي . . . ، فجاءني «صلاح لبكي» وقال لي والابتسامة تعربد على شفتيه:

ــ أما شبعتَ من «ثرثرة» أمين نخلة؟ ــ تعال معي لأنشدك شيئاً من شعري . . .

فنهضتُ، وجلسنا تحت صنوبرة هرمة، فأخرج صلاح أوراقاً من

جيبه. وكانت قصيدة «بعض الدلال» أوّل قصيدة تلاها على مسمعي في تلك الجلسة الهادئة، فأطربتني وأنعشتني، وطلبتُ منه أن يعيد على مسمعي كل بيتٍ من أبياتها لازداد طرباً ونشوة. وإليك نص القصيدة:

تبالين بي؟ نعمة أن تبالي
وتجفين، يا لشقاء الخيالِ
سألتكِ مستعطفاً أن تجيئي
وهل لي أن أستجاب، ومالي
سألتكِ مستعطفاً، فرضيتِ
وأخلفتِ، والخلف بعض الدلالِ
وما كنتِ أنتِ، ولو انكِ جئتِ
فخلّيكِ أنتِ، ولو ساء حالي
ومن قال ان ارتهاف الضياء
بنفسك يمحو ارتعاش الليالي
ترى كيف أدرك أيّ اضطرابٍ
عراكِ فأدمى وأيّ اعتلالِ
فأنتِ التماع شهي الغموض
تكوّنتِ من لفتاتِ المحالِ
وطوباكِ أنتِ، كما أنتِ شيئاً
تناهى بعطفيه فرط الجمالِ

لقد كان «صلاح لبكي» ناقداً أدبيّاً فذّاً، وإن كان لا يدّعي طول الباع في هذا الباب. وكتابه النفيس «لبنان الشاعر» الذي درس فيه الشعر اللبناني خير برهان على ما أقول. وعلى ذكر ملكة النقد عند «صلاح» أذكر أنني، بعد إنشادي لبعض قصائدي في مؤتمر الأدباء، اختليتُ بصلاح فقال لي:

ــ أرجوكَ يا حارث أن تبتعد عن كاف التشبيه، فهي بليّة شعراء اليوم...

وأفاضَ في الموضوع وصال وجال حتى سحرني وجعلني أسلِّم برأيه من غير قيد ولا شرط!..

* * *

وبالرغم من أن صلاحاً كان مشهوراً بنزعته اللبنانية الإقليمية الضيقة، في مجال تفكيره السياسي، فإن نزعته الأدبيّة كانت أرحب مجالاً من نزعته السياسيّة. فقد كان يؤمن إيماناً راسخاً بوجوب تعاون أدباء لبنان مع أشقائهم أدباء العروبة في كل مكان من الوطن العربي. وليس أدلّ على ذلك من رسالته التي بعثها إليّ عام ١٩٥٣ عندما كنت أشرف على تحرير مجلة «الأسبوع» البغدادية لصاحبها ورئيس تحريرها صديق العمر «خالص عزمي». وإليك نص الرسالة:

«بيروت في ٢ نيسان سنة ١٩٥٣

عزيزي الأستاذ حارث طه الراوي المحترم

تحية طيبة. وبعدُ فإني أشكر لكَ العاطفة النبيلة التي عبرت لي عنها لمناسبة انتخابي رئيساً لجمعية أهل القلم في لبنان. ورجائي أن

كون عند حسن ظنّك وظن إخواني أدباء العرب أنىّ كانوا. وإن أملي الكبير بأننا في تعاوننا، نحن أدباء لبنان، وأدباء العرب في كل قطرٍ من أقطارهم، سنتمكّن من إحداث نهضة فكريّة أدبيّة علميّة شاملة هي وحدها بنظري خليقة بأن تكون عنوان فخر واعتزاز.

ثم إني مرسل نزولاً على رغبتك قصيدة خاصة لتنشر في «الأسبوع» معتذراً لتأخري عليك بها حتى الآن، والكريم من عذر.

وأخيراً هل لي أن أحمّلك تحية صادقة مخلصة إلى إخواني وإخوانك أدباء العراق، راجياً أن أوفق إلى زيارتهم في بغداد لبحث كل ما من شأنه أن يسهّل رسالة الأدب ويوطّد للفكر ويعلي مكانة الثقافة في البلدان العربية.

لكم بإخلاص

رئيس جمعية أهل القلم

التوقيع

صلاح لبكي»

* * *

وكان ــ رحمه الله ــ يحب النكتة ويتفنن في روايتها ويضحك لها حتى لتوشك كل جارحة فيه أن تضحك عندما تجلجل ضحكته. وقد قرأ ذات مرة قصيدة زجلية فكاهية رائعة نظمها في وصف حالة صديقه المرحوم «أميل لحود» عندما يسكر...، وقد دونتها برمتها، وحسبي أن أستشهد بمطلعها الجميل:

تـبـارَكْ رَبّـكْ بـأعـمـالـو

خـلـئـكْ يـتـفـكـهـن حـالـو.

لـــم بـــدّو يـتـســـلّى الـــرب

بـــتـــصـــيـــر تـــخـــطـــر عـــبـــالـــو

* * *

وفي الثاني والعشرين من تموز ١٩٥٥ قرأت نعي «صلاح لبكي» في جريدة بغدادية فذُهلت وغلبني حزني وانهمرت دموعي...، ولشدّة حبّي للفقيد أقسمتُ أن أشدّ الرحال إلى «لبنان» لأذرف الدموع في منزله..، فذلّلتُ في سبيل تحقيق هذه الرغبة العارمة الصعوبات التي اعترضت إجازتي ـ وكنتُ يومئذٍ موظفاً جديداً في المجمع العلمي العراقي.

ولم أكد أصل «بيروت» بعد رحلة صحراوية طويلة سكبتُ خلالها ما شاء الألم من الدموع، حتى اتصلتُ بصديقه وصديقي الأديب الشاعر «وديع دريب» وذهبنا معاً إلى منزل «صلاح» في محلة «زقاق البلاط» لتعزية زوجته السيدة «عائدة»...

ولما سألتني «عائدة» عن تأريخ وصولي إلى «لبنان» خنقتني العبرة فأجبتها بإشارة من أصابع اليد... ولعلّ قصيدتي «وأغمضتُ عيني كي أراك هنيهة» المنشورة في ديواني «بتاريخ» (ص ٩٥) تشرح بصورة صادقة ودقيقة حالتي النفسيّة وما جرى لي على أثر رحيل الصديق الوفّي «صلاح لبكي»..

وفي منزل «صلاح» اقترح «وديع ديب» على «عائدة» أن تكلّفني بكتابة مقدمة ديوان صلاح «حنين» الذي كان معدّاً للطبع فكان جوابها مفاجأة غريبة لي بعد الآلام النفسية التي كنت أعانيها بسبب فقد صديقي بل أخي الحبيب «صلاح»، فقد اعتذرت بقولها:

ـ صلاح لا يحبذ أن يكتب مقدمة دواوينه غير اللبنانيين. . .

سامحك الله يا أختنا العزيزة «عائدة» على هذا الاعتذار الغريب. . . ، فهل فهم اللبنانيون «صلاح» كما فهمته؟ وهل أحبوه كما أحببته؟ وهل رثوه كما رثيته؟ فلماذا يكون لهم هذا الامتياز الإقليمي على غيرهم من أدباء العروبة؟ وهل قال لبناني في «صلاح» ما قلته بعد سنة من رحيله في قصيدتي التي نشرتها مجلة «الورود» اللبنانية مع صورة لصلاح بريشتي حيث قلت:

بكيتُ بوحشةِ الليل البهيمِ
فما نال البكاء من الهمومِ

ولم أضفر بصبرٍ أو بسلوى
وهل يأتي العزاء من النجومِ؟!

وناجيتُ «الصلاحَ» بدمع قلبي
وأرسلتُ الحنينَ مع النسيمِ

ولو يدنو حنيني من ثراه
لدبَّ الجمرُ في العظمِ الرميمِ!

إلى روح «الصلاح» أزفّ شوقي
إلى الخلّ الوفيّ، إلى نديمي
إلى الحرّ الأبي، إلى الكريمِ
إلى صرحِ الفنونِ، إلى العظيمِ

لـقـد زاد الـفـراقُ جـراحَ قـلـبـي
وألقى الجمـرَ في الجـرحِ القـديمِ

فـنم يـا خـيـر إخـواني وصـحـبـي
ولا تـسـأل عن الـخـطـبِ الألـيـمِ

□ □ □

مع «الأخطل الصغير»

قيل لي أن الشاعر «بشارة الخوري» الملقّب بـ «الأخطل الصغير» يتردّد إلى مقهى أبـي عفيف في ساحة الشهداء ببيروت، فقصدته في ظهر اليوم الثاني عشر من تموز سنة ١٩٥١ فلم أجده في المقهى المذكور، فسألتُ عنه فقيل لي: ربما يكون في مكتبه في الطابق الأعلى من البناية، فصعدتُ إلى مكتبه ولم أكد أنظر من فتحة الباب حتى استقرّت عيناي على شيخ نحيف الجسم مخسوف الخدّين، طويل الأنف، غائر العينين، أشيب الشعر، وعلى أنفه نظارة صغيرة مستقرّة من غير طرفين يثبتانها على الأذنين. . .

كان هذا الرجل العجوز مضطجعاً على أريكة عريضة، وقد اتخذ من مسندها وسادة، فسألته:

ــ حضرتك الشاعر «بشارة الخوري»؟

ــ نعم.

ــ أنا فلان الفلاني.

عند ذاك نهض الشاعر وصافحني بلهفة ورحّب بـي قائلاً:

ــ أهلاً وسهلاً ومرحباً. تفضّل واجلس كما تشاء ودعنا من الرسميّات. . .

استهل الأخطل حديثه بالسؤال عن مهنتي، فأجبته:
ـ أنا طالب في «كلية الحقوق».

ـ حقوقي وأديب؟ غـريب وعجيب...

وضحكنا، فأردف قائلاً:
ـ رسالتك في الحياة ـ والحالة هذه ـ رسالة قانونية مشحونة بنزعة أدبية...

ـ إن رسـالتي في الحياة تتلخّص في الـذود عن الخير والحق والجمال...
ـ حسناً... حسناً...

وابتسم الشاعر لأن كلمة الجمال أثارت كوامن ذكرياته، لا سيما وهو شاعر الهوى والشباب والأمل المنشود... وسألني بهذه المناسبة:
ـ هل أنت مثلي تحبّ الشفاه؟
ـ ومن لا يحب الشفاه يا أستاذ؟ ولكني أعني بالجمال شموليته، لا جمال المرأة وحسب، ولهذا أحب جمال الطبيعة وجمال الأرواح وجمال الأفكار...

عندئذٍ طلب الشاعر منيّ أن أنشده شيئاً من شعري فأنشدته قصيدتين الأولى كانت بعنوان «الشعلة الباقية» والثانية كانت بعنوان «الغرباء»... وكانت تطفو على ثغر الشاعر ابتسامة حلوة عند ما كنت أنشده هاتين القصيدتين...

ولا أدري كيف تطرّقتُ إلى نقد «مـارون عبود» لبعض شعـر

«الأخطل الصغير»، وإذا بهذا الوجه المشرق المتهلّل ينقلب فجأة إلى وجهٍ كئيبٍ متجهّم، وإذا بالأخطل يقول:

ـ أنا لا أبغض مارون ولا غير مارون، وطالما يأتيني «مارون عبود» إلى هنا فأرحّب به من صميم قلبي، ولكنه، والحق يقال، تحامل عليّ من غير مبرّر في كتابه «على المحك». . .

وهنا احتدّت لهجة «الأخطل الصغير» ونهض قائلا:

ـ ومن هو «مارون عبود»؟ وما قيمة تحامله عليّ وقد قال في كبار شعراء العصر من الثناء والتعظيم ما يدعو إلى الفخر والزهو. . .

ثم اتجه إلى منضدة صغيرة وأخرج من درجها بعض رسائل مشاهير شعراء العصر كشوقي والزهاوي والرصافي وغيرهم وأطلعني عليها وأخذ يقرأ بعض سطور الثناء عليه الواردة في هذه الرسائل ويردّد بين الفينة والفينة:

ـ فمن هو مارون عبّود؟!

وتمادى الأخطل في الحديث عن نفسه وعن منزلته الكبيرة بين شعراء العصر حتى أدركني الضجر. . .، واستطعتُ، بعد أن استنجدت بلباقتي، أن أحوّل مجرى الحديث وأسأله:

ـ ما رأيك في الشعر العراقي الحديث لا سيما شعر وشعراء الشباب؟

ـ لم أقرأ لشعراء الشباب في بلدكم إلّا القليل وهذا فإني لا أستطيع أن أحكم له أو عليه!

ـ ما رأيك في «الجواهري» و «الرصافي» و «الزهاوي»؟

ـ «الجواهري» من شعراء الطليعة، و «الرصافي» و «الزهاوي» من فحول الشعراء.

وما كدت أخرج ورقة من جيبي لأسجّل نصّ رأيه في هؤلاء حتى اعترض علي ذلك قائلاً:

ـ لم أخرجت هذه الورقة؟ فأنا لا أبدي رأيي في أمور تثير التأويلات والمشكلات...

ـ غيرك يبدي رأيه الصريح ولا يتردّد.

ـ المسألة مسألة مزاج...

ولا أدري كيف جرّنا الحديث إلى الذين تحاملوا على شعره، فأنشدني بهذه المناسبة بيتين نظمهما في هؤلاء هما:

وذي خمولٍ يبتغي شهرةً
ما انفكَّ يهذي بي مساءً صباحْ

من يرفع الله به مشعلاً
للشعر يضحك من جنون الرّياحْ

وطلبتُ منه أن ينشدني شيئاً من شعره، فأخرج من بين أوراقه قصيدة طويلة جدّاً هي قصيدته في «المتنبّي» التي ألقاها في مهرجانه الألفي في دمشق سنة ١٩٣٦ وطفق ينشدها بصوته الجهوري المرتجف

فهزّتني وأطربتني. ثم أخذ يقرأ عليّ ما قالته بعض الصحف العربية في مصر وسورية ولبنان في شعره ومكانته بين الشعراء ويقارن بين ما جاء في هذه الصحف من إعجاب وثناء وبين ما يقوله المتحاملون على شعره...

وبعد حديث متشعّب المداخل والمخارج طلب «الأخطل الصغير» منيّ بإلحاح أن أتناول الغداء معه في مكتبه فاعتذرت لأن عقرب الساعة كان يشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً ولا بدّ لي من أن أسرع في الذهاب إلى الفندق الذي حللت فيه في مصيف «بحمدون» قبل أن يحرقني حرّ «بيروت» فقبل الشاعر اعتذاري وقال لي:

ـ أودّ أن تزورني أكثر من مرّة لأنّك تركت في نفسي أثراً طيباً.

ثم أطرق ونظر إلى البحر الذي لاح لنا وجهه الأزرق من نافذة غرفة الشاعر وقال:

ـ ليس من طبعي العداوة والحسد، لهذا تراني أحبّ كل الناس حتى أعدائي!، وما قيمة هذه الحياة الفانية إذا أنفقت في البغض والعداوة والحسد...

فقلتُ له من صميم قلبي:

ـ صدقتَ يا أستاذ..

وودّعته وانصرفتُ.

□ □ □

مع ميخائيل نعيمة

ترجع صلتي بالأستاذ ميخائيل نعيمة إلى صيف سنة ١٩٤٦ حيث تعارفنا عن طريق المراسلة. وكنتُ، يومئذٍ، قد بعثت إليه رسالةً ضمنتها إعجابي بشخصيته الأدبية وطلبتُ فيها منه أن يكتب مقالاً لاحدى المجلّات الأدبيّة عن صديقه وزميله في جمعية «الرابطة القلميّة» الشاعر المرحوم «نسيب عريضة» الذي توفاه الله في الخامس والعشرين من آذار تلك السنة، فأجابني نعيمة بالرسالة التالية:

بسكنتا ــ لبنان

٧ آب ١٩٤٦

عزيزي حارث الراوي،

سلام عليك، وعلى الذي أنجبَكَ، والنيّة الطاهرة التي نفحتني بمثل رسالتك الحلوة. ولكم سرّني أن أعرف أنك من المعجبين بأخي ورفيقي وصديقي المرحوم نسيب عريضة. لقد كتبتُ عنه مقالاً طويلاً في كتابي «الغربال». وأذعتُ عنه كلمة بالراديو على إثر وفاته. وبفكري أن أكتب عنه أشياء بعد حالما تصلني نسخة من ديوانه «الأرواح الحائرة» الذي صدر عند وفاته فدعاه البعض بحق «الديوان اليتيم».

ما أظنني أتأخر عن زيارة العراق لو أتيحت لي فرصة مناسبة ولكنني إلى اليوم لم أجد مثل تلك الفرصة. ففي العراق روح متوثب

يهمني أن يكون له نصيب مما أكتب وأنشر، أو أن يكون لي منه نصيب. والرسائل التي تأتيني من هناك تبين لي أن لي عندكم أصدقاء ومحبين.

ليته كان لديّ رسم من رسومي. إذن لما قدّمته إلى من هو أحقّ به منك. صوّرني في مخيلتك كما شئت. ولكن صوّرني في قلبك أخاً وصديقاً.

الداعي لك بالخير

ميخائيل نعيمة

وبعد وفاة المرحوم والدي[1] اجتاحت والدتي موجة من الحزن، فحبّذت لي أن أطلب من المفكر ميخائيل نعيمة بلسمًا لجراح روحها ودواء شافياً أو مسكناً لحزنها المحترم. فكتبتُ إلى الأستاذ في هذا الشأن وسألته، في الرسالة نفسها، عن مدى صحة رأي المرحوم أمين الريحاني في مصادر فلسفة «تولستوي» فأجابني بالرسالة التالية التي تركت في نفس والدتي أثراً إيجابياً بليغاً:

بسكنتا ــ لبنان

١٢ أيلول ١٩٤٨

عزيزي حارث،

الحزنُ في القلب كالنبات البرّي في الأرض. إذا أنت تركته وشأنه امتدّ واشتدّ وامتصّ كل ما في التربة من غذاء حتى ليصعب على نبات غيره أن يحيا معه. والمزارع الفطن لا يترك أرضه نهباً للأعشاب البرّية. ونحن مطالبون بالتربة التي هي نفسنا وبما نزرع فيها ونستغلّ منها.

---

(١) توفاه الله في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦.

والذي نزرعه ليس لنا وحدنا بل لكثير سوانا من الناس، فلا يليق بنا أن نزرع الحزن والكآبة والوجع للناس وبإمكاننا أن نـزرع لهم الفرحَ والسرور واللذّة.

إن محبتنا لمن ندعوهم أمواتاً ـ وما هم بأموات ـ يجب أن تثمر محبّة في قلوب الأحياء. وإن هي أثمرت خوفاً وقلقاً وحزناً ودمعاً كانت أنانية جريحة لا محبّة ظافرة طليقة. ومن ثمَّ فالموتُ والنوم في نظري هما من مقلعٍ واحد: نحن بالنوم نتخدّر بأتعاب نهار لنصحو وفي استطاعتنا تحمّل أتعاب نهار جديد. ونحن بالموت نتخدّر بأتعاب حياة لنصحو وفي استطاعتنا استقبال حياة جديدة.

ما كان تولستوي مقلّداً في تعاليمه الاشتراكية والدينية. ولكن تفكيره المستقلّ اتفق وتفكير روسو وماركس وهنري جورج من جهة والمسيح من الأخرى. وفي الكون حقائق عامّة تلتقي عندها الأفكار المستقلة في بحثها عن الحقيقة.

هذا، وعليك السلام من المخلص. **ميخائيل نعيمة**

* * *

وكنتُ في تلك الفترة من حياتي مشغولاً بمحاولة حلّ ألغاز الحياة وأسرار الكون!!، مشغوفاً أشدّ الشغف بأمور ما وراء الطبيعة، فما أكاد أقف على رأي فيلسوف لا يهضمه عقلي الـطري ولا يفهمه إدراكي المحدود حتى أفزع إلى الأستاذ نعيمة طالباً منه العون في تفسير ما يحتاج إلى التفسير في نظري أو طالباً منه رأيه في رأي الفيلسوف الفلاني، فضلاً عن أني كنتُ معنياً بتتبع النتاج الجديد لنعيمة ملتذاً بأن يكون لي قصب

السبق في الوقوف عليه أو على أخباره. . والظاهر أنني أتعبته بلجاجتي في هذا الباب فأجابني بالرسالة «الرسميّة» التالية:

بسكنتا ــ لبنان

٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٨

عزيزي حارث طه الراوي،

ها أنا أجيبك على أسئلتك الثلاثة بالترتيب:

١ ــ إني أرحّب بكل سؤال أشتمّ منه رغبة السائل الصادقة في الحصول على جواب يفرّجُ كربة، أو يفتح باباً مغلقاً، أو يرفع حجر عثرة من الطريق، أو يزوّد السائل بمعلومات عندي هو في حاجةٍ إليها.

٢ ــ ليس لديّ كتاب بعنوان «التلميذ البطل» ولديّ مجموعة من المحاضرات لا أدري متى يتسنى لي إخراجها في كتاب. فأنا اليوم منهمك في إخراج عدة كتب أهمها كتاب إنكليزي بعنوان «مرداد» وعربي يدعى «مذكرات الأرقش» وإعادة طبع بعض مؤلفاتي التي نفذت من زمان مثل «المراحل» و «زاد المعاد» و «كان ما كان» وغيرها.

٣ ــ أذاعت لي محطة الشرق الأدنى بضعة أحاديث عن «شعراء المهجر» وليس في نيتي الآن جمعها ونشرها في كتاب.

هذا والسلام عليك من المخلص.

ميخائيل نعيمة

* * *

التقيتُ بمخائيل نعيمة وجهاً لوجه، لأوّل مرّة، في صباح يوم الخميس الموافق ٢٨ تموز ١٩٤٩ في المحل التجاري للمرحوم بهيج

عريضة في «بيروت». وذهبنا مشياً على الأقدام إلى فندق «ريجنت» بالبرج، حيث جلسنا بالقرب من النافذة في قاعته الكبيرة.

وضع الأستاذ قبّعته البيضاء المصنوعة من القصب على المنضدة، أما عصاه السوداء الأنيقة التي نقرَ بها الطريق فقد آثر أن يضعها بقربه حرصاً عليها كما قال لي...

وتطلعتُ، بإمعان، إلى وجه هذا الأديب المفكّر الذي طالما هزّني أسلوبه وسحرتني أفكاره مثلما هزّتني وسحرتني أساليبُ وأفكار رفاقه في «الرابطة القلميّة»: «جبران خليل جبران» و«إيليا أبي ماضي» و«نسيب عريضة» وغيرهم...

لقد كنتُ أمام وجهٍ معبّر، والتعبير، على أشدّه، في هذا الوجه الستيني البيضوي، إنما يتألّقُ في العينين العسليتين المتقدتين النفّاذتين..

ولا يدري المرء، من أي موضعٍ في العينين يتطاير الشرر. أمِنَ الحدقتين الناريتين أم من البياض العجيب الذي تشابكت فيه الأوردة الحمراء...

وأحسستُ، أمام صرامة هاتين العينين، إنني أمام قائد جيش، أو فيلسوف أمة، أو رئيس محكمة جنايات، أو ما شابه ذلك لا أمام شاعر(٢)...

---

(٢) قال عنه الدكتور إسماعيل أدهم «عالم صاحب فن في الكتابة. ليس له روح الفنان ولا إحساس الشاعر والأديب، وإن كان له عمق العالم ودقة الفيلسوف. وأسلوبه يمتاز بالدقة والسرعة. والوحدة أبرز ما فيه»، محمد صفوة، «حديث مع الدكتور أدهم»، «السياسة الأسبوعية»، العدد ٧٠، ١٤ مايو ١٩٣٨، ص ١٤.

وتدفّق نعيمة في حديث عذب، فسألته بعد برهة من الزمن:

ـ ما سرّ التكتم بينك وبين الدكتور طه حسين؟ وهل تربطك بالدكتور علاقة ما؟

ـ ليس بيني وبين الدكتور طه أي تكتّم. وأنا لا أعرفه معرفة شخصيّة. ولقد شاء الدكتور عبدالرحمن بدوي أن يعارفنا في اجتماع «الأونسكو» في «بيروت» فتعارفنا ومكثتُ بالقرب منه نصف ساعة تحدّثنا خلالها عن مفهوم الحرّية. وكانت آراؤه سطحية في هذا الباب فهو يحصر الحرّية في عدم وضع القيود على الآراء ولا يتعمّق إلى معانيها الشاملة الواسعة. ولا أكتمك أنني من المعجبين بالدكتور طه حسين، فقد استطاع، وهو الضرير الذي لا يبصر، أن يتوسع في دراسته وأن يتعلم لغات كثيرة وليس هذا بالهين. . .

وسألت نعيمة: ـ هل تغيرّ رأيك في الشاعر أحمد شوقي؟

ـ لا لم يتغيرّ رأيي فيه فهو يجيد (النظم) في (شعر المناسبات) وقد تجاهل مهمة الشاعر الحق فطرق أبواباً كان يجدر به ألاّ يطرقها لو شاء أن يضمن لشعره الخلود!!

وسألته عن رأيه في الشاعرين «معروف الرصافي» و«جميل صدقي الزهاوي» فأجاب:

ـ إن هذين الشاعرين مقلّدان وأفق الشاعرية عندهما ضيّق!!

كان نعيمة يطلق هذه الآراء المتطرفة وكأنه يتحدث عن أمور بدهية مفروغ منها. . . ولم يكن ليسمع صوت الانصاف، ولم تكن بي

القدرة، آنذاك، لا سماعه هذا الصوت الذي كان ولم يزل يأبى سماعه في هذه الأمور. . .

* * *

وطلبتُ من «نعيمة» أن يرافقني مع جماعة من أدباء لبنان لأضع باسم أدباء العراق إكليلاً من الأزاهير على ضريح الشاعر الياس أبي شبكة، فاعتذر عن المشاركة، ولكنه استحسن الفكرة وأثنى على الشاعر الراحل. . .

واقترحت عليه إعادة جمعيّة «الرابطة القلمية» على أن يكون عميدها وعلى أن يشترك فيها أعضاء يراسلونها من مختلف أقطار الأمة العربية، فاعتذر عن ذلك بقوله:

ــ هذه محاولة غير مجدية. . . لأن أعضاء الرابطة القلميّة في عهد «جبران خليل جبران» كانوا متآخين متساندين وغير متحاسدين بالرغم من أن ثلاثة أو أربعة منهم كانوا منتجين. . . أما الآن فالحسد يغمر قلوب الأدباء ويعمي بصائرهم. وقد عرض عليّ جماعة من أدباء لبنان فكرة الاشتراك في جمعية «الرابطة الأدبية» فرفضت، إلاّ أن الجمعية تشكلت وباشرت العمل طوال سنة واحدة ثم ماتت بعد أن حُرمت من مساعدة الشعب والحكومة. . .

وبعد برهة من الزمن جاء صديقه الأستاذ أميل جبر ضومط(٣). ولما أراد الأستاذ نعيمة أن يعارفنا اتضح له أن كل واحد منا يعرف الآخر

(٣) راجع انطباعات نعيمة عن أميل ضومط في فصل «صديقان» المنشور في كتابه «سبعون»، المرحلة الثانية، ط ١، ص ٢٦٤ وما بعدها.

بالاسم والوجه، فجلس الأستاذ إميل وبدأنا نتجاذب أطراف الأحاديث الأدبية الروحية اللذيذة. وبعد فترة من الزمن بارحنا الفندق وودعنا الأستاذ أميل واتجهتُ مع نعيمة إلى «مطبعة صادر» حيث أبدى بعض ملاحظاته عن بعض مؤلفاته التي كانت تحت الطبع. ثم أوصلنا صاحب المطبعة بسيّارته إلى مكتب «محطة الشرق الأدنى» فسجّل ميخائيل نعيمة حديثاً عن خليل مطران بعنوان «خليل مطران ـ بداية عهد ونهاية عهد» ثم ودعنا المحطة وذهبنا ماشين إلى دار شقيق أميل لتلبية دعوة أميل لنا على الغداء، وفي الطريق قلت لنعيمة:

ـ صدق القائل: «أزرع قلبي على الورق فينبت في قلوب الناس». والقائل هو نعيمة بالذات في كتابه «كرْم على درب».

واتفقنا، بعد الغداء، على أن نلتقي في اليوم التالي (٢٩ تموز ١٩٤٩) في دار الأستاذ أميل بسوق الغرب ـ رأس الجبل حيث التقينا في الموعد المقرر صباحاً وجلسنا على أريكة منحوتة من الصخر، وطفقت الأستاذ نعيمة يحدّثنا عن الحياة وأسرارها والإنسان وغرائزه وشهواته وإرادته حديث المفكّر الخبير. وما هي إلاّ دقائق حتى أطلّ علينا الأستاذ «جورج البارودي»(٤) الذي قال لنعيمة بعد فترة طويلة من جلوسه

ـ جئتُ لأستفاد منكم.

فظهرت سمات الخجل على وجه نعيمة وقال له:

ـ أرجوك لا تقل أستفاد يا أستاذ فأنت قد أفدتنا بأحاديثك..

---

(٤) أحد الأساتذة اللبنانيين البارزين الذين أمضوا فترة طويلة من عمرهم في التدريس في العراق.

وبعد أحاديث شيقة ودعنا «البارودي» وتوارى بين أشجار الصنوبر. . .، ولما حان وقت الغداء وجلسنا حول المائدة لاحظت أن ميخائيل نعيمة أخذ يكتفي بوضع القليل من الزاد في صحنه بالرغم من أن الطعام كان شهياً للغاية، واتضح لي بعد ذلك أن الأستاذ ذو منهج صارم في هذا الباب لا يحيد عنه ولا يتساهل فيه. .

وبعد أن انتهينا من تناول الغداء ذهبنا إلى غرفة مجاورة حيث تمتعنا بلذّة التدخين وبالأحاديث الأدبية الممتعة، ثم انصرفتُ، بعد ذلك، لأتيح للأستاذ نعيمة أن ينام، لأنه ـ كما علمت ـ لا يستطيع الاستغناء عن القيلولة. . .

* * *

وفي صباح اليوم التالي التقينا في نفس المكان، والتقط لنا مصوّر بعض الصور التذكارية. ومن المصادفات الطريفة أن جريدة «بيروت ـ المساء» البيروتية كانت قد نشرت لي في نفس هذا اليوم مقالاً عنوانه «ميخائيل نعيمة كما عرفته» مشحوناً بالإعجاب الأعمى والآراء المرتجلة المعهودة عند الأدباء الناشئين الذي تتغلّب عندهم المحبّة على اعتبارات النقد الموضوعي. . .

أعطيت الجريدة لنعيمة فطالع المقال. ثم تلوته على الحاضرين نزولاً عند رغبتهم. فقال نعيمة بعد انتهائي من تلاوته، بالعامية اللبنانية:

ـ عربيتو كويسة. . .

أي أن لغته العربية جيّدة. وطرب نعيمة للمقال وأبدى بعض الملاحظات القيمة وأعجبه كثيراً أن استشهد ببعض أقواله. ثم أخذ

يحدثنا عن صديقه الشاعر الراحل، «رشيد أيوب»، وذكر لنا بعض طرائفه التي ذكرها، فيما بعد، في كتابه «سبعون». ولا أذكر ما دار بعد ذلك من أحاديث.

وسبق لي في هذه السنة (١٩٤٩) أيضاً أن وجهتُ بعض الأسئلة باسم جريدة «الزمان» البغدادية إلى ميخائيل نعيمة فأجابني عليها ونشرت إجابته في صدر الجريدة(٥) المذكورة تحت عنوان «المفكر العربي ميخائيل نعيمة يكتب إلى الزمان ويخاطب الجيل العراقي الجديد ــ إصلاح الجيل الطالع بإصلاح مفاهيمه للعدل والحرية» ومهدت الجريدة للأسئلة والأجوبة بما يلي:

وجه الأديب الفاضل السيد حارث نجل العلامة المرحوم طه الراوي أسئلة باسم [الزمان] إلى المفكر العربي الكبير الأستاذ ميخائيل نعيمة، فأجاب عنها بروح الأديب المتطلع إلى المثل العليا والساعي وراء الحق ونشدان الحياة الصالحة. وهذه هي بنصها:

بسكنتا ــ لبنان.

في ٢ كانون الثاني سنة ١٩٤٩.

عزيزي حارث،

وعليك السلام. وبعد فإني مجيب بإيجاز كلي على الأسئلة الأربعة التي تطرحها عليّ من قبل جريدة «الزمان» وذلك إكراماً لك وللأستاذ السمعاني:

---

(٥) العدد ٣٤٣٩ في ٥ شباط ١٩٤٩، ص ١.

١ ــ بماذا تشيرون لتوجيه الجيل العربي الجديد؟

ــ في البلاد العربية اليوم نوع من الوعي السياسي الذي هو في اعتقادي أول درجات الوعي الاجتماعي وأقلّها قدراً، وهو الكره للحكم الأجنبي والسعي إلى استبداله بحكم وطني. وذلك يعني في قاموس الجيل الجديد الاستقلال والحرية. وإني لأخشى على هذا الجيل عنف الصدمة ومرارة الخيبة إذ يجلو آخر أجنبي عن دياره ويبقى الظلم والعسف والفاقة والجهل والمحاباة والنفاق والرشوة والاستغلال نصيبه من حكّامه. فعليه أن يستعدّ لتلك الصدمة منذ الآن، وأن يفقه أن الحكّام العادلين والصالحين لا يقومون إلاّ من شعب وفي شعب يفهم معنى العدل والصلاح. فعلى الجيل الطالع أن يصلح نفسه بتصحيح مفاهيمه للعدل والصلاح والحرية، إذا هو شاء أن يكون له حكام عادلون وصالحون وأحرار.

وتصحيح مفاهيم العدل والصلاح والحرية لا يكون بالمشاغبات والمظاهرات والضجيج وهرق الدماء بل بتنقية النفس من كل آثار الظلم والفساد والاستبداد[٦].

---

(٦) اختلف مع ميخائيل نعيمة في كون الوعي السياسي هو أقل أنواع الوعي قدراً ــ كما يرى ــ وأرى أن لا أهمية لكل أنواع الوعي من غير الوعي السياسي الصحيح. واختلف معه في الأسلوب السلبي الذي يتصوره طريقاً إلى الخلاص. فتنقية النفس من كل آثار الظلم والفساد والاستبداد، عملية بطيئة لا تجدي شيئاً ما لم تقترن بالأعمال الإيجابية ذات الأثر الملموس. فالثورات التحررية التي قامت في بعض أقطار الوطن العربي بعد هذه السنة (١٩٤٩) وقضت على الاستعمار وأذنابه ومفاهيمه، إنما كانت مدينة للمظاهرات الوطنية ولدماء الشهداء الزكية لا للأساليب السلبية التي يبشر بها الأستاذ نعيمة. (المؤلف).

٢ ـ ما رأيكم في حاضر الأدب العربي، وهل تعتقدون أنه يفي بحاجات العصر الحاضر؟

ـ الأدب هو وجه الأمة، وقد تدبّره الكتّاب بشيء من التجميل. ووجوه البلدان العربيّة اليوم تنعكس إنعكاساً صادقاً في آدابها. وهذه الآداب قد لا تفي بحاجات «العصر» ولكنها وافية بالحاجات التي تحسها الأمم العربية[٧] من حاجات هذا العصر. ولا بدّ للأدب من أن يماشي حياة أمة يعيش منها ولها ـ شاء ذلك أم أبى. ومتى زادت حاجات الأمم العربية عمّا هي اليوم زاد شعور الأدب بها.

٣ ـ ما رأيكم في الاتجاهات التي ينبغي أن يسلكها الأدب العربي ليصبح أدباً عالياً عزيز المكانة؟

ـ ليس أفضل في نظري ولا أفعل في حياة الأمة من الأدب الواقعي إذا ما تدبرته أقلام تبصر ظواهر الواقع وبواطنه. فلا نكتفي بالرغوة، بل تنفذ إلى ما تحتها من اللبن الصريح، ولا تضيف جوّ الواقع بل تمتد به إلى أبعد من مجال البصر المحدود. وإذن فنحن في الشرق لا يليق بنا أن نتقيد بأدب البصر دون البصيرة. أما البصر والبصيرة، إذا اتفقا تمكنا من خلق أدب جدير بأن يُقرأ في كل مكان وزمان.

٤ ـ ما هي الكلمة التي ترغبون في توجيهها إلى الشباب العراقي؟

ـ في الشباب العربي ـ والعراقي بنوع أخص ـ ثروة هائلة من حرارة الدم والحماسة والإيمان بحياة أفضل من حياة الساعة، ومثل أعلى

---

(٧) لا توجد أمم عربية بل أقطار عربية تنتمي إلى أمة عربية واحدة. (المؤلف).

من مثل حكامه وزعمائه، وهذه الثروة تهدر هدراً في سبيل أهداف قريبة المنال، ضئيلة القدر يزينها ذوو الغايات كما لو كانت تنطوي على السعادة الكاملة والحرية القصوى. وأحطّ هذه الأهداف الوظيفة. وأبخسها المجد يغدقه الرعاع على من يحسنون الألعاب البهلوانية والشعوذات السياسية. فنصيحتي إلى الشباب العراقي أن يبتعد عن هذه الأهداف «الخسيسة» وأن يجعل نصب عينيه هدف المعرفة التي تحرر من كل خوف والتي تقرّب الإنسان من الإنسان. وتقرّب جميع الناس من الله ومخلوقاته. وهذا الهدف جدير بأن تسخّر في سبيله سائر الأهداف.

هذا وإليك أحسن التمنيات من المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

وبعد سنة من لقائي مع نعيمة في لبنان أرسلتُ إليه رسالة من بغداد سألته فيها عن الشاعر المهجري الراحل «أمين مشرق» وكنتُ، يومئذٍ، أهمّ بالكتابة عنه، فأجابني بالرسالة التالية:

بسكنتا ٢٩ تموز ١٩٥٠.

في أوائل الخريف القادم
سيصدر في نيويورك كتابي
عن جبران مترجماً إلى الانكليزية بقلمي

عزيزي حارث،

وعليك أطيب السلام ممن يذكرك أبداً بالخير ويرجو لك الفلاح، مثلما يرجو أن يتاح لك المجيء في هذا الصيف إلى ربوع لبنان علّنا نجتمع ونتحدّث في أكثر مما يستطيع نقله القرطاس.

تعجبني حماستك للأدب والأدباء على ما أنت منهمك فيه من دروس حقوقيّة. أين من دروسك ومتى تنتهي وتنال شهادتك؟ ـ حديثي عن خليل مطران الذي حضرت تسجيله في بيروت أذيع بعد التسجيل بأسابيع قليلة ـ المرحوم أمين مشرق كان صديقي. ولكني لا أعرف الكثير عن حياته إلاّ أنه هجر إلى الولايات المتحدة أولاً ومنها إلى الأكوادور. ثم عاد إلى لبنان عام ١٩٣٢ حيث كانت الفرصة الأولى لتعارفنا. وتزوّج في العام ذاته ثم عاد إلى الأكوادور. وبعد عام أو عامين قضى في حادث سيّارة. أما آثاره الشعرية ـ على قلتها ـ فأكثرها من طراز ممتاز. وأعرف ابن أخت له اسمه «مروان نصر» وهو يعمل في وزارة الاقتصاد اللبنانية. وعساه، إذا كتبت إليه، يعطيك عنه معلومات وافية.

الأستاذ أميل صرف عندي أسبوعاً في أوائل هذا الشهر وسيعود في أواسط الشهر المقبل. وقد ذكرناك بالخير. وهو وهو يسلم عليك أطيب السلام.

المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

وفي الحادي والعشرين من تموز سنة ١٩٥١ التقيت بميخائيل نعيمة في دار أميل ضومط بسوق الغرب فسألني عن دروسي في «كلية الحقوق» وقال أن دراسة الحقوق ضرورية جداً للمثقف لأن أمور الناس ومشكلاتهم الاجتماعية تفرض علينا أن نتفهم دروس الحقوق بإمعان لكي تستطيع أن نحل مشكلاتهم المتجدّدة...

ثم سألت نعيمة عن مشكلة «السلام العالمي» ورأيه فيها فأجابني بما فحواه:

ـ لقد قلت للناس في كتابي «زاد المعاد»: سلامكم في قلوبكم. فإذا نجحت مؤتمرات السلام في تحقيق سلام القلوب فستكون إذ ذاك أمنية كل إنسان قد تحققت. ولكن البشرية ستظل ـ ويا للأسف ـ فوق فوهة بركان ربما يثور قريباً لأنها بعيدة عن سلام القلوب...

ثم تلوت على مسمعه بعض قصائد مسودة ديواني الصغير الأوّل «الأنغام الحائرة» الذي صرفتُ النظر عن طبعه، فكان يسمعها بإمعان ويصارحني، بين الآونة والأخرى برأيه. فكنتُ أسمع منه الإعجاب المقرون بالسبب أو النقد المقرون بالسبب أيضاً. ولما لمح صورتي التي رسمتها بريشتي تحت قصيدة «من أنا» أعجب بها، فشجعني ذلك على استئذانه في رسم صورة له فرحب بذلك، وظلّ طبيعيّاً وهادئاً في جلسته فأتممتُ رسم الجهة اليمنى من وجهه على ورقة من ورقات مسودة الديوان. فعلّق عليها قائلاً:

ـ الصورة جميلة. ولكن ألا ترى أن الأنف أطول بكثير من أنفي؟

وكان محقاً في قوله. وقد أبقيتُ حجم الأنف على حالته كتذكار على ما حصل...

وانتقلنا بعد ذلك إلى موضوع الصور التي رسمها نعيمة لديوانه «همس الجفون» فشرحها لي شرحاً وافياً نشره فيما بعد في كتابه «سبعون».

وتطرقنا إلى موضوع الشعر والشعراء فسألته عن رأيه في زميله بالرابطة القلمية الشاعر الكبير «إيليا أبو ماضي» فأجابني بقوله:

ـ هو الآن شاعر مبدع. وقد كان شاعراً مقلداً. ونقصه الوحيد أنه لا يترفّع عن مدح ذوي الجاه والسلطان في سبيل منافعه الشخصيّة...

ثم قطب نعيمة جبينه ورفع صوته محتداً وقال:

ـ للنفس كرامة وللفن كرامة وقد أساء أبو ماضي للكرامتين ـ ويا للأسف ـ لأنه من الشعراء المبدعين.

وبعد أحاديث لا أتذكرها، خرجنا من الغرفة إلى الطبيعة وجلسنا على الأريكة الصخرية فسألته عن عقيدة «وحدة الوجود» وهل هو من المؤمنين بأن الجزء في الكل أو المتناهي في اللامتناهي أم أن الكل في الجزء أي اللامتناهي في المتناهي؟ فأجابني قائلاً:

ـ أنظر إلى هذه الشجرة وقل لي: ماذا ترى منها؟

ـ أرى ـ بطبيعة الحال ـ ساقاً وأغصاناً وأوراقاً.

ـ أما أنا فأرى جذوراً في التراب وأرى القوة الخفية التي تبعثُ فيها الحياة. ألا تسأل ذاتك من الذي يرفع الغذاء ـ أي النسغ الصاعد ـ إلى كل ورقة في أعلى غصن من الشجرة من غير مضخة؟ ـ أنها قوّة الله. ولذا فأنا أقول أن الله في الشجرة أي الكل في الجزء.

ثم نظر الأستاذ نعيمة إلى الأفق البعيد وقال:

ـ سبحان الله..، تباركت الطبيعة التي فاضت من روحه. تباً

للذي لا يدرك عدل الطبيعة ولا يطاوع نظامها الشامل، فيقيم عليها ــ بدافع جهله وغروره، السدود والحدود. . .

إن دار الأستاذ أميل هي داري لأنني أتناول طعامي وأصيب الراحة والسرور في داري، وكذلك في دار الأستاذ أميل، وإذن فإن داره داري. . .

ينظر صاحب الحقل إلى مروج الحنطة وأوّل ما يفكّر فيه هو كم ستدّر عليه هذه المروج من الأرباح وقد يمرّ على مروجه إنسان لا يملك شبراً منها. ولكنأ يتأمّل جمالها فينتشي بخمرة المحبّة الإلهية ويشعر بالخشوع تجاه القوّة الخفية المبدعة. في شرعي أن الثاني هو مالك الحقل لأنه عبدالله. أما الأول فهو عبدالفلس. .

ولا أدري كيف انتقلنا، بعد ذلك، إلى الحديث عن أبي العلاء المعرّي، فقال نعيمة:

ــ أنا أحبّ أبا العلاء لأنه مفكّر عميق، تأمّل كثيراً وأبدع كثيراً، ولكنه ــ ويا للأسف ــ حسب الزمان حلقات منفصلة. وهذه هي نقطة الخلاف بيني وبينه. فللحياة نهاية في عقيدته ولا نهاية لها في عقيدتي. فالموت ــ في نظري ــ شبح يخلع أجسادنا عن أرواحنا في جيل ثم يمنح أرواحنا المتعطشة إلى المعرفة أجساداً أخرى تسير من جديد على طريق الخير والشر الذي ينتهي حيث لا خير ولا شر ــ عند الالوهة. . .

وبعد أن أكلنا معاً من زاد الأستاذ أميل على مائدة يصرخ فيها السخاء رجعنا إلى الأريكة في الحديقة فلمحنا أمواج الضباب تتناثر كالقطن المندوف على قمم الجبال البعيدة. وكان الهواء البارد والمنعش يـ

على أشجار الصنوبر والشربين فتسمع له الأذن ما يشبه الأنغام الشجيّة. . .

صمت ميخائيل نعيمة قليلاً ثم قال:

ـ ما أجمل هذه الموسيقى. .

وعدنا من جديد إلى الأسئلة والأجوبة فسألته:

ـ أنت تعتقد، يا أستاذ، إن الإنسان يسير في معارج الخير والشر إلى أن يبلغ قمة الألوهة، فهل سيصبح الناس، في اعتقادك، مجموعة آلهة؟!!

فابتسم وقال:

ـ أنا أشبه البشريّة، يا حارث، بهرمٍ كبير، والهرم ـ كما لا يخفى على أحد ـ ذو قاعدة وذو قمة. وقاعدة هرم البشرية تضم الذين جُنّت غرائزهم وصغرت عقولهم وضعفت مداركهم وتحجرت أخيلتهم، وفوقهم طبقة أرقى نوعاً ما وهكذا دواليك. أما إنسان القمة فهو الذي أفلت من شراك الغريزة وحطّم قضبان سجن الخير والشر. ومثل هذا الإنسان يجذبه الله إليه، فيحل محله من كان دونه في الدرجة، وهكذا دواليك. .

* * *

في صباح اليوم التالي (٢٢ تموز ١٩٥١) ذهبتُ إلى دار الأستاذ أميل والتقيتُ بالأستاذ نعيمة والتقط لنا مصوّر بعض الصور التذكارية الجميلة. ثم جلسنا على أريكتنا الصخريّة المحبوبة فقلتُ للأستاذ:

ـ أنا أدري بأنك قد هجرت القريض منذ أمد بعيد، ولكن

لا بدّ وأنك قد نظمت خلال هذه المدّة الطويلة قصيدة أو قصيدتين بدافع تجربة مُلحّة أو مناسبة جميلة.

ـ إن آخر ما نظمته «نشيد صنين». وقد نظمته بناء على طلب مدرسة بسكنتا ولحنته لهم بنفسي. والطلاب ينشدونه، اليوم، كما لحنته لهم.

ثم أخذ يترنّم بالنشيد كما لحنه فأطربني صوته الشجيّ المتدفق من أعماق قلبه. فرجوت منه تدوين نشيده هذا بخطه في دفتر ذكرياتي فلبى طلبي. وهذا هو النشيد:

صنين يا زين الجبالْ
يا بكر آيات الخيالْ
يا حادياً طعن الجبالْ
من فوق أشلاء السنين
(صنين. صنين)
صنين خذ منّا وهاتْ
ما شئتَ من غالي الهباتْ
واسمح بأن نقضي الحياةْ
في حضنكَ الرحب الأمينْ
(صنين. صنين)

وبعد الغداء رجعنا إلى الأريكة وتحدّثنا في شؤون الأدب والسياسة والفلسفة والفن، وكثر الزائرون الذين تقاطروا من المحلّات المجاورة لتحيّة الأستاذ والتمتع بحديثه. وقد أنفقتُ، في هذا اليوم مع ميخائيل نعيمة عشر ساعات كاملة...

وبعد هذه المقابلة وعودتي إلى بغداد تسلّمتُ منه الرسالة التالية:

بسكنتا ٢ آب ١٩٥١.
عزيزي حارث،

شقّ عليّ جداً أن حُرمت الاستماع إلى حديثك عن أمين مشرق. فقد اجتمعنا الليلة البارحة حول الراديو في انتظار الساعة الثامنة والنصف. وإذا بالتيار الكهربائي ينقطع فجأة قبيل الموعد بدقيقة أو دقيقتين فلا يعود حتى التاسعة. ولا تسل عن خيبة أملي. وحتى الآن لا أعرف إذا كان التيار قد انقطع في بيروت كذلك فتعطلت المحطة عن الإذاعة، أم أنه ما تناول غير المنطقة التي تقع بسكنتا فيها. على أنني أرجو أن تكون قد أذعت حديثك في حينه وإن لم يكن لي ولأبناء منطقتي الحظ في سماعه.

شكراً على رسالتك الأخيرة من بحمدون. فهي حلوة كجميع رسائلك. والرسوم التي جاءت معها حلوة كذلك.

رجائي أن تكون إقامتك القصيرة في لبنان قد عادت عليك بالخير الجسداني والروحي، وأن تبلغ بغداد في خير وعافية فتجد الوالدة وباقي الأهل كما تتمنى ويتمنون. ولعلّك، وقد عرفت لبنان وأحببته، تعود إليه عاماً بعد عام. وإن شاء الله لن يعوقك الوادي عن زيارة بسكنتا.

هل لك أن تعطيني المعلومات الآتية:

عندي ابن أخت له من العمر ١٩ سنة. وهو شاب ممتاز الأخلاق متوقّد الذهن. وقد أنهى مدرسة برمانا العالية (BRUMMANA HIGH SCHOOL) والصف الأول من كلية الشرق الأوسط.

(MIDDLE EAST COLLEGE). وهو يريد أن يعلم إذا كان بإمكانه درس الحقوق في بغداد بما لديه من شهادات. وإذا لم تكن شهاداته كافية فماذا يطلب منه علاوة عليها؟ وما هو الراتب السنوي عندكم؟

أما أنه فكّر في بغداد بدلاً من دمشق أو بيروت فلأن الأخيرتين تصرّان على بكالوريا سورية أو لبنانية. ولأن هناك خلافاً بين الفرنسيين من جهة والانكليز والأميركان من جهة أخرى بشأن معادلة الصفوف في مدارس الكليتين. وأنت تعلم أن النفوذ الثقافي في لبنان وسوريا ما يزال للافرنسيين - أرجو الجواب في أقرب وقت ممكن. والله يحفظك ويباركك.

محبّك

ميخائيل نعيمة

ووردتني بعد هذه الرسالة رسالتان من نعيمة حول قضية ابن أخته السيد جرير أبو حيدر الذي بذلتُ له جهداً كبيراً في وزارة المعارف لمعادلة شهادته وتوسطّتُ له عند عميد كلية الحقوق أستاذنا المرحوم منير القاضي، فابتسم الحظ لجرير وقُبل في كلية الحقوق...

* * *

ولا بدّ لي أن أذكر، في هذه الفترة، حدثاً هاماً في حياتي الأدبية، ذلك أني جمعتُ ما نظمته من شعر صباي وفجر شبابي في دفتر صغير أطلقت عليه اسم «الأنغام الحائرة». وكنتُ - كشاب متحمسّ - شديد التوق إلى طبعه مصدّراً بمقدمة من ميخائيل نعيمة آتية بها على أترابي وأندادي من الشعراء... وبدافع هذا الحُلُم الرومانسي المغري أرسلتُ

نسخة من مسوّدة الديوان إلى الأستاذ نعيمة وانتظرتُ بفارغ الصبر رأيه فيها، فأجابني بالرسالة التالية:

بسكنتا ٢٣ أيلول ١٩٥١

أتريدني أن أردّ إليك مخطوطك
أم عندك نسخة أخرى؟

عزيزي حارث،

بارك الله فيك. والشكر لك على مساعيك الناجحة بشأن جرير الذي أرجو أن يعرفك وتعرفه قريباً إن شاء الله فيجد فيك وتجد فيه أخاً ورفيقاً وصديقاً.

لستُ أدري متى يبدأ التسجيل عندكم في كلية الحقوق. إلاّ أنني سأسعى منذ الغد لإنجاز معاملات جرير من باسبورت وتأشيرة وجواز سفر وابتياع بعض الحاجات لعلّه يبلغ بغداد قبل انتهاء مدّة التسجيل وابتداء الدروس. أما الأستاذ أميل فموعد سفره بعد الغد. وقد زرته مودّعاً في سوق الغرب منذ ثلاثة أيام. ولي في وجوده ووجودك في بغداد خير الكفيل بترتيب حياة جرير وتدريبه على المعيشة في بيئته الجديدة.

والآن كلمة عن مجموعتك الشعرية ـ كلمة رجل يحبك ويغار على مستقبلك الأدبي فلا يرضى لك بمثل هذه الباكورة تشقّ بها طريقك في دنيا الأدب العربي. فالتقليد بادٍ في أكثر من قصيدة ـ حتى في العنوان. واللغة ما تزال تتعثرّ. وإليك بعض الأمثلة: «فيجيبه: ما من سبيل لكنهه، ما من سبيل» ففي هذا البيت التواء في اللغة إذا استقام الوزن. والتواء في الوزن إذا استقامت اللغة. فاللغة تقضي بأن تقول «ما من

بسبيلٍ» والوزن يقضي بأن تقول «ما من سبيلَ». (من أنا؟). وكذلك في قولك: «وتراقصت ألفاظُ في شفتيهـا». (مطر وكـوخ) وصحيحها: ألفاظٌ. وإذ ذاك فالوزن مكسور. كذلك: «هو القلب ينشد هذا الوجود أغانٍ» وصحيحها: أغانيَ. (دعيني أموت). ناهيك باستعمال «لّما» بمعنى عندما مع المضارع. والمعروف عن «لّما» أنها إذا دخلت على المضارع كانت حرف جزم. أما المعاني فلا أتعرض لنقدها في هذه العجالة. الخلاصة يا عزيزي حارث أنك تملك موهبة شعريّة لا شكّ فيها. ولكن عدّتها لما تكتمل بعد. فاعمل على تقويتها بالمطالعة والمران ولا تكن لجوجاً في النشر. واذكر قولي في «كرم على درب»: «لا تستعجل الشهرة إليك لئلا تستعجلها عنك». وليكن الله معك.

المخلص

ميخائيل نعيمة

وقد أزعجتني وأثارتني من ميخائيل ـ في حينه ـ هذه الصراحة التي حسبتها، يومئذٍ، ضرباً من المسّ بكرامتي كشاعر. فحملتُ عليه حملة شعواء في رسالة ناريّة بعثها إليه من بغداد، وعزّزت الرسالة بدفاع طويل عن نهجي في الشعر وفهمي لرسالة القريض. ولم أدرك خطئي وصوابه إلاّ بعد أن انطوت سنون وتلاحقت تجارب واتسعت ثقافة. وقد كان نعيمة مصيباً عندما أجابني على رسالتي الثائرة بالرسالة التالية:

بسكنتا ٧ تشرين أول ١٩٥١.

عزيزي حارث،

عدُت مساء أمس (السبت) من دفن صديقي بهيج عريضة فوجدتُ رسالتك الأخيرة في انتظاري، وقد انطوت على ثورة عصبية

عنيفة أثارتها فيك صراحتي المتناهية بشأن مجموعتك الشعرية. وأنا لن أؤنبك على ثورتك هذه لأنني واثق من أنك ستؤنب نفسك عليها بعد سنة أو سنين يوم تدرك أن نصيحة يسوقها إليك هذا القلم هي نصيحة يسديها قلب يعطف عليك وفكر يبصر من حياتك أكثر من ساعة أنت فيها. إني أتطلّع إلى مستقبلك يا حارث وأريده أكثر إشراقاً وأرحب آفاقاً مما تريده أنت. ولذلك أسكت عمّا بدا منك فلا ألقي عليك محاضرةً في الشعر ومقوماته كالمحاضرة التي تلقيها عليّ في رسالتك. ولعلّك توفّق إلى قلمٍ يكون أوفر إخلاصاً لكَ وأشّد حدباً عليك، وأكثر فهمًا للقيم الشعريّة من قلمي، فيقدّم مجموعتك إلى الناس بكلمات ترضيك وترضيهم.

حالت وفاة بهيج في ضهور الشوير دون رغبتي في مرافقة جرير إلى بيروت وتوديعه. ورجائي أن يكون قد وصل بغداد صبيحة اليوم وتمكّن من الاتصال بك أو بأميل. فقد كنت كتبت قبل أيام لأميل عن موعد سفره ووعدت أن أبرق إليه أمس. لكن انقطاع المواصلات البريديّة والبرقية بيننا وبين دمشق بسبب إضراب [illegible] سوريا لم تمكني من إرسال برقية.

سلامي إلى السيدة والدتك وإلى أميل وباقي الأخوان عندكم.

المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

ولما أصدر زميلي في كلية الحقوق الصديق خالص عزمي جريدته الأدبية «الأسبوع» عهد إليّ الإشراف على تحرير الصفحة الأدبية

لاتصال بأصدقائي من أدباء لبنان للمساهمة فيها فأرسلتُ إلى ميخائيل ميمة رسالة طلبتُ فيها منه أن يرفد الأسبوع بنتاجه الأدبي، وبعثتُ له لأعداد التي صدرت منها فأرسل إليّ الرسالة التالية:

بسكنتا ــ لبنان.
٨ كانون الأول ١٩٥٢.

عزيزي حارث،

أسلم عليك أطيب السلام وأرجو أن تكون في خير حال. وبعد فقد وصلتني جميع الأعداد التي صدرت حتى اليوم من صحيفتكم الفتية «الأسبوع». فلمستُ في أعمدتها روح الشباب التوّاق أبداً إلى ارتياد عوالم جديدة، والنافر أبداً من الهجوع والخنوع والاكتفاء بما قاله وفعله الذين احتلوا هذه الأرض قبله ثم ارتحلوا عنها.

وكأنّي بالشباب العراقي يحاول القيام بنهضة عامة شاملة تتناول جميع مرافق حياته. وكل نهضة لا ترافقها وثبة فكرية، أدبية مقضيّ عليها بالإجهاض. لذلك أرحب بصحيفتكم لعلّها تستميل إليها خيرة الأقلام الفتيّة في البلاد فتكون منها قوّة لها شأنها في افتتاح آفاق أدبية جديدة وواسعة يتنفسّ فيها الفكر بملء رئتيه، ولا يخشى أن يبصر الدنيا بكلتا عينيه.

فاعملوا بإخلاص، والفوز للعاملين المخلصين

ميخائيل نعيمة

ثم تسلّمتُ منه، بعد ذلك، الرسالة التالية حول عزمنا على إصدار «الأسبوع» على شكل مجلة أدبية، شهرية:

بسكنتا ــ لبنان.

٢٨ شباط ١٩٥٣

عزيزي حارث،

سلام عليك، وبعد فقد تناولتُ رسالتك التي تخبرني فيها عن عزمكم على إصدار «الأسبوع» في شكل مجلة أدبية شهرية من الطراز العالي. وذلك خبر تقبّلته بالسرور. ثم تطلب إليّ أن أوافيك بكلمة كنتُ قد أذعتها من زمان عن الشاعر الأميركي «وولت هويتمن» لنشرها في العدد الأوّل من المجلة. وما كنتُ لأخيبك لولا أني وعدتُ مجلة «الآداب» بذلك المقال.

ومن ثمَّ فإني أوثر أن أرى العدد الأوّل في الأقل من مجلتكم قبل أن أنشر فيها شيئاً. إذ يبدو لي أنكم في العراق ما تزالون في حاجةٍ إلى الاتقان في الإخراج والطباعة. وأنا ما نسيت أن الرسالة الصغيرة التي نشرتموها في «الأسبوع» كانت مشوّهة بأغلاط مطبعية عدّة ــ منها ما هو شائن وغير مغفور لجريدة تدّعي خدمة الأدب والفن(٨)

(٨) يهوّل الأستاذ ميخائيل نعيمة الأغلاط المطبعية التي ظهرت في رسالته عندما يصفها بالشائنة وغير المغفورة.. ولو فرضنا أن الأغلاط المطبعية بهذا المستوى البائس الذي يصفه فهل يبيح له ذلك غمز وتجريح جريدتنا بقوله عنها «**تدعي** خدمة الأدب والفن». ألا يناقض هذا الاعتداء ما أورده عنها من ثناء في رسالته السابقة؟ وعلى أي حال فيكفي «الأسبوع» فخراً أنها كانت أجرأ وأصدق مجلة أدبية عراقية خلال النصف الأول من عقد الخمسينات استطاعت بإمكانياتها المحدودة أن تستقطب أبرز الأدباء والشعراء في القطر العراقي وباقي أقطار الوطن العربي. (المؤلف).

أرجو أن تكون في خير حال وأن يوفقك الله إلى كل ما تصبو إليه من خير لنفسك ولأمتك.

المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

وفي نهاية شهر كانون الثاني سنة **١٩٥٥** قرأت في إحدى الجرائد نبأ مفاده أن سيارة قد صدمت الأستاذ ميخائيل نعيمة في بيروت وسببت له رضوضاً نقل على أثرها للمستشفى فقلقت كثيراً وأرسلت إليه رسالة عاطفية معطّرة بالابتهال إلى الله بأن يمن عليه بالشفاء العاجل. فأجابني نعيمة برسالة مشتركة مع صديقه ضومط هذا نصّه:

بسكنتا ــ لبنان

٥ شباط ١٩٥٥

بلغني من العزيز أميل أنك اضطربت كثيراً للخبر الذي نشرته جريدة «الهدف» في بيروت ونقلته بعض جرائد بغداد عن حادث مزعوم مفاده أن سيارة صدمتني وسببت لي رضوضاً وجروحاً نُقلتُ على أثرها إلى المستشفى. والخبر كان ملفقاً من أساسه وقد كذّبته أكثر جرائد بيروت في اليوم التالي.

ما عجبتُ لانزعاجك وأنتَ من أنتَ من طيب العنصر وصافي المودّة. وأزعجني أن يأتيك انزعاج بسببي ولو لم يكن لي فيه إصبع. بارك الله فيك.

تحدّثنا عنك كثيراً وسرني أن أعلم من أميل أنك في خير وأنك

تسعى منذ الآن، ولو سعياً بطيئاً. للالتحاق في المستقبل بالسلك الدبلوماسي. وأرى أنك تليق لمثل هذه الخدمة. وأتمنى لك التوفيق وعليك أطيب السلام من المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

ولما قرأت في إحدى الصحف نبأ مفاده أن الأستاذ نعيمة قد لبس خاتم الخطوبة وودّع العزوبة ذهلت وتملكني العجب لأني أعرف جيداً أن «ناسك الشخروب» لن يتزوّج حتى نهاية عمره، فكتبتُ إليه رسالة استفسار واستغراب، وأخبرته بنبأ زواجي وإتمامي في كتابة مسوّدة كتابي عن «أمين الريحاني» فأجابني بالرسالة التالية:

بسكنتا ــ لبنان ٤ أيلول ١٩٥٦

عزيزي حارث،

يبدو أنك قرأت في الصحف خبر خطوبتي ــ وهو خبر مزيف من أساسه ــ ولم تقرأ عن رحلتي إلى الاتحاد السوفياتي تلبية لدعوة خاصّة جاءتني من اتحاد الكتّاب في تلك البلاد. غادرتُ بيروت في أول آب وعدتُ إليها في السابع والعشرين منه. وسرنيّ جداً أن أقع في كدسة الرسائل التي كانت تنتظرني في البيت على رسالة منك. بورك ما فعلت إذ كنتَ فرداً فازدوجت. وإني لأرجو لك وللتي اخترتها شريكة في حياتك كل خير. وذلك ما تعرفه من غير أن أفوه به.

انقضى أسبوع وبعض الآخر منذ عودتي وأنا لا أكاد أجد فرصة حتى لحك رأسي ــ كما تقول العامة عندنا. وسينقضي أسبوع آخر قبل

أن أفرغ من الرد على الرسائل واستقبال الزائرين. ومن بعدها أرجو أن أنصرف إلى الأعمال الأخرى المتراكمة لديّ. فعليّ أن أعدّ للطبع مجموعة من قصصي، وكتاباً لدار المعارف في مصر، ثم كتاباً عن الانطباعات التي تركتها في ذهني رحلتي إلى الديار السوفيتية وقد جاءت بعد نصف قرن بالتمام من زيارتي الأولى لروسيا في العام ١٩٠٦.

جرير نال شهادة الـ (B. A) من الجامعة الأميركية في أوائل هذا الصيف. وعلى الأثر تلقى دعوة من البحرين للعمل في تحرير صحيفة جديدة هناك باسم «الخليج». وهو اليوم هناك. ولعلّ العدد الأوّل من الجريدة قد صدر في الأيام الأخيرة. وليس لديّ الآن عنوانه لأبعث به إليك.

أتوقّع أن أرى الصديق أميل عندي قريباً. وسأبلغه سلامك. أما كتابك عن الريحاني فأرجو أن أقرأه حال صدوره، وأن أراك قد وفقت في عرض حياة الرجل وأدبه. فحياته غنية بالصورة وأدبه متنوع الجهات والاتجاهات.

هذا، وإليك وإلى رفيقتك المختارة أزكى السلام وأطيب التمنيات من المخلص.

ميخائيل نعيمة

ولما طُبع كتابي عن «أمين الريحاني» أهديتُ نسخة منه إلى نعيمة وبعثتُ له برسالة لأطمئن على وصول الكتاب إليه فأجابني بالرسالة التالية:

بسكنتا ــ لبنان ١٩٥٨/٣/٢٣.
عزيزي حارث،

أسلّم عليك أطيب السلام وأرجو أن تكون في خير حال. وبعد فقد سرّني جداً أن أتلقى رسالتك الأخيرة. وكانت قد سبقتها النسخة التي تلطفتَ بإهدائها إليّ من كتابك عن الريحاني. وكنتُ آمل أن أتفرّغ لمطالعتها على مهل ثم أن أكتب إليك عنها. إلاّ أنني، وقد تجمّع لديّ لا أقل من ثلاثين كتاباً مهداة من مؤلفيها، لم أستطع أن أقرأ حتى الآن من كتابك غير القليل منه. وهذا القليل جعلني أستبشر الخيرٌ لك ولقلمك. فبيانك أقوى اليوم بكثير منه أوّل عهدي بك.

لعلّ الظروف لا تخيّب أملك وأملي، فنلتقي إن شاء الله في ربوع لبنان في الصيف، ونتحدّث مليّاً في شؤون كثيرة، ويكون لكتابك نصيب وافر من حديثنا.

الأخ أميل بنى لنفسه بيتاً مستقلاً لا يفصله عن البيت القديم الذي تعرفه في سوق الغرب سوى الطريق العمومي. وهو بيت جميل «مكنكن». ولا شك أنك ستزوره إذا جئت في الصيف. وستسر إن تجلس فيه.

أتمنى لك أن تكون في بحبوحة من العافية والنشاط.

المخلص

ميخائيل نعيمة

لم تقنعني هذه الرسالة من الأستاذ نعيمة لأنها أشعرتني بأنه يريد التهرّب من إبداء الرأي في كتابي عن الريحاني، وقد استفزنيّ قوله «فبيانك أقوى اليوم بكثير منه أول عهدي بك». فقد تخطيت مرحلة

تلمذتي عليه أو على غيره من الأدباء وأصبحت ذا شخصيّة أدبيّة مستقلة. فمقارنة أسلوبي في الكتابة في الوقت الحاضر بأسلوبي في الكتابة في الماضي، لا تعني إلاّ فرض الوصاية والأستاذية عليّ من نعيمة، وهذا ما يرفضه الواقع بشدّة...

تمالكتُ أعصابي، وحسبتُ إلى العشرة ــ كما يقولون ــ ثم توكلت على الله وكتبتُ رسالة عتاب رقيق إلى الأستاذ نعيمة حول قوله هذا وتهربه من إبداء الرأي في كتابي فوجد نفسه محاصراً بالحرج فأجابني بالرسالة الصريحة التالية:

بسكنتا ــ لبنان ١٩ نيسان ١٩٥٨

الأخ أميل بخير. وأنا أجتمع به كلما هبطت بيروت. وسأبلغه سلامك قريباً إن شاء الله.

انتبه إلى «الضاد» و«الظاء» فقد ورد في كتابك ــ رأس صفحة ٢٧ «وقرّضها أدباء الغرب تقريضاً...» بدلاً من قرّظها تقريظاً.

عزيزي حارث،

جاءني عتابك الناعم، الرقيق ليذكرني بما لستُ بناسيه. فرسالتي السابقة المقتضبة لم تكن تقديراً لكتابك عن الريحاني، بل مجرد «علم وخبر» عن وصوله. فقد خشيتُ إذا أنا لم أعلمك بوصوله حتى تتسنى لي مطالعته على مهل أن يطول بي الوقت فتظن أن الكتاب ضاع في الطريق أو أني أهملته. ولو عرفتَ أن لديّ الآن ما لا يقل عن ثلاثين مؤلفاً جديداً جاءتني من مختلف الأدباء في مختلف الديار العربية لما عجبت أني لم أطالع كتابك كلّه حال وصوله.

أما الآن وقد طالعتُ الكتاب من الدفّة إلى الدفة فيهمني أن أقل إليك مجمل رأيي فيه: لقد أحسستُ إحساساً عميقاً لدى مطالعتي كتابك أنك ما أقدمت على تأليفه إلاّ من بعد أن تملكّك موضوعه فأثار فيك الرغبة في الإفصاح عما أثاره في نفسك من تقدير وإعجاب. والكاتب لا يتملكّه موضوعه لا ينفع نفسه وقارءه بشيء. بل قد يسيء إلى الاثنين. وتلك شهادة بجانبك. وشهادة أخرى لك هي أنك أحسنت الكلام عن الريحاني «الفاتح، والسائح، والمصلح، والثائر على الأدب الباكي، والمتفائل، والناقد، والأديب الفيلسوف». مثلما أحسنت اختيار الأمثلة من مؤلفاته لتوضيح تلك الجوانب من شخصيته المتعددة الجوانب. فقد كان أكثر شمولاً من أولئك الأدباء الذين يقفون أقلامهم على ضربٍ واحد من ضروب الأدب الكثيرة. وشهادة ثالثة أشهدها لك هي أنك كتبت ما كتبته بحماسة، واندفاع، ومحبة، وبلغةٍ لا تتأنّق ولا تتبذّل، بل تجري بخفّة ورشاقة ولباقة إلى هدفها فلا تخطئه.

والشهادة الوحيدة التي قد تكون عليك لا لك هي إسرافك في التمجيد. إسرافاً ينزع عن كتابك صفة الدراسة العميقة، النزيهة، التي تبصر الحسنات ولا تتغاضى عن السيئات. ولكن هذا النقص في كتابك لا يقلل من قيمته كعملٍ أدبي يستأنس به قرّاء الريحاني والذي يتتبعون تأريخ الحركة الأدبية منذ مطلع هذا القرن.

أرجو أن تكون في خير حال وأن يزداد نشاطك من عامٍ لعام. والله يحفظك.

المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

وأخبرني الأستاذ أميل ضومط أن الأستاذ ميخائيل نعيمة قد هوى من مرتفع بسيط وسقط على الصخر فتعرض لجراح في جبهته ورضوض بليغة في كتفه. فكتبتُ إلى نعيمة رسالة أستفسر فيها عن صحته فأجابني بالرسالة التالية:

بسكنتا ـ لبنان ١٥ آذار ١٩٥٩

عزيزي حارث،

عليك منيّ أطيب السلام. وبعد فقد تناولت ببالغ السرور رسالتك الحلوة، الطافحة بأصفى المودّة والمحبّة. فالشكر لك. أما الحادث الذي وقع لي في الصيف الماضي، والذي أخبرك عنه الأخ أميل، فلا تزال له بعض الآثار في جبهتي وفي كتفي. ولكنها في دور التصفية. والمهم أنها لا تعوقني عن العمل، وإني لأحمد الله على ذلك.

أكرهتني موجة الصقيع التي اجتاحت لبنان مؤخراً أن أمضي معظم شباط والقسم الأول من آذار في بيروت، حيث كنت في كل يوم تقريباً أحظى بزيارة أميل. ولقد ذكرناك أكثر من مرّة، وذكرك جرير عندما جاءني منذ ساعة وعرف أني أفكّر في الكتابة إليك. جرير لا يزال يعمل في البحرين، وقد جاءنا لتمضية عطلة قصيرة في ربوعنا وسيعود إلى مقر عملَه في نهاية الأسبوع ـ أي بعد خمسة أو ستة أيام. ونحن الثلاثة ـ أميل وجرير وأنا ـ ندعو لك بالخير ونرجو أن تكون في مأمن من كل سوء.

عدتُ أمس من بيروت. وفي نيتي أن أبقى هنا ما دام الطقس على شيء من الصفاء والدفء. إن أرضنا ما برحت مكسوّة بالثلج. ولكن الشمس تذهب به بسرعة. وإني في سبيل مؤلف جديد قد يستغرق

القسم الأكبر من هذه السنة. وقد تتجاوز صفحاته ٥٠٠ صفحة. ويسرنيَ أن أعلم أنك منهمك في وضع كتاب جديد. بارك الله فيك وزادك نشاطاً.

وإليك أخلص التمنيات وأصدق الدعاء من

المخلص
ميخائيل نعيمة

ولما بلغ الأستاذ نعيمة السبعين من عمره هنئته بالأبيات التالية:

حباكَ الإله بعمرٍ مديد
وأبقاك شيخاً نقياً تقيا

وجاد عليك بعزم الشباب
فأصبحت كالفجر طلق المحيا

فما شاخ منك فؤاد كبير
سيبقى برغم الزمان فتيا

وما شاخ منكَ خيال طليق
إذا طار لامسَ وجه الثريّا

وعقلك ـ وهو سراج الوجود ـ
سيبقى منيراً ويبقى غنيا

فأجابني الأستاذ بالرسالة التالية:

بسكنتا ــ لبنان ١٤ تشرين الأول ١٩٥٩

عزيزي حارث،

شكراً لك يا أخي على تهانيك الطيبة لمناسبة بلوغي السبعين. إن لم يكن لي من هذه السبعين التي عشتها على الأرض حتى اليوم غير هذا الفيض من التقدير والمحبّة يتدفق عليّ من قلوب صافية كقلبك لكفاني ذلك أجراً ثم إيماناً بأنني لم أهدر عمري هدراً. وما كان أطيب وقع أبياتك الرقيقة في قلبي! صانك الله وسدّد خطاك في طريق الخير والنور والمعرفة.

سيسّرك، ولا شك، أن تعرف أن الأخ أميل سيعود للتدريس في بغداد قريباً إن شاء الله. لقد تم التعاقد بينه وبين دار المعلمين منذ أسابيع ولكنه لا يزال يترقب وصول سمة السفر. وقد جرت مخابرات كثيرة بشأنها بين السفارة هنا وبين وزارة المعارف. وليس من يعرف سبب التأخر في إرسالها هل هو من قبل الأمن العام أم أي دائرة أخرى.

العزيز جرير أصبح اليوم في لندن حيث يعمل في محطة الإذاعة هناك ويدرس في King's College. ويبدو أنه مسرور جداً بعمله ودرسه.

أرجو أن تكون في عافية طيبة وفي بحبوحة من النشاط وصفو البال وعليك أطيب السلام، وإليك أحسن التمنيات من

المخلص

ميخائيل نعيمة

والتقينا، بعد ذلك، في بغداد عندما زارها ميخائيل تلبية للدعوة التي وجهت إليه لحضور مهرجان «بغداد الكندي» في أواخر عام ١٩٦٢.
وفي أول لقاء لي معه في «مدينة السلام» دار الحديث بيني وبينه وبين الدكتور سليم حيدر، عندما كانت السيارة تجري بنا في نزهة نحو «قناة الجيش»، حول الشاعر أحمد شوقي. فأبديتُ إعجابي بشعره فخالفني ميخائيل في هذا الإعجاب والتفت إلى سليم حيدر وسأله قائلاً:

ـ كم تطرح من شعر شوقي لتبقي على الجيد؟ ـ النصف أم ثلاثة الأرباع؟

ـ لا أطرح شيئاً على الإطلاق...، وأعتقد أن شعر شوقي يمثّل عصره أروع وأدق تصوير...

وتمادى الدكتور سليم في الثناء على شوقي فشعر نعيمة بالحرج، ولم يستأنف حملته عليه...

ودعوت ميخائيل نعيمة وأميل ضومط وسليم حيدر وحافظ جميل وقنبر الطويل إلى بيتي فلبوا الدعوة. وكنت علائم الجدّ والرزانة المتناهية بادية على ميخائيل، وكان يستمع أكثر مما يتكلّم ويبتسم أكثر بكثير مما يضحك بالرغم من أن نكات الشاعر حافظ جميل كانت تهزّ حتى الصخر الأصم. وكان حافظ يتدفق في الشعر والأحاديث الأدبية والنكات وكان نعيمة يستمع ويعلّق، أحياناً، تعليقات مقتضبة! أما سليم حيدر فلم يكن تدفقه في الشعر والنكات بأقل من تدفق حافظ..

لقد اعتاد نعيمة أن يمسك وحده، بزمام الحديث في المجالس الأدبية. وحيث أنه لم يكن أكثر من شاعر (متقاعد) ولم يكن من هواة الهزل والنكات، فقد أعطى الزمام لغيره مرغمًا. فحاولتُ أن أشركه في

الشعر لأشده إلى المجلس، وطلبتُ منه أن ينشدنا قصيدته الرائعة «أخي» بطريقته الجميلة في الإلقاء فاعتذر بعذر عدم حفظه لها. ولكني أحرجته بالأمر الواقع عندما جلبتُ له من مكتبتي كتابَ «بلاغة العرب في القرن العشرين» وفتحت الصفحة التي فيها قصيدته ثم وضعت الكتاب بين يديه. فما كان منه ألا وأنشدها بشكل حماسي رائع. وكان يضرب يده بفخذه عند الإلقاء لشدّة انفعاله....

ثم دعاه الدكتور قنبر الطويل ودعاني وأميل ضومط إلى العشاء في مطعم «الميناء» ولم يكن الجو، في هذه الدعوة جوّ شعر ومرح ونكات وإنما كان جوّاً يحيطه الجد من كل الجوانب، وفي مثل هذا الجو الجدّي يتألق ميخائيل ويتدفق وهكذا كان.. فقد تجلّ الرجل بشكل غريب وهو يحدثنا عن عالم الروح وتناسخ الأرواح والكون والحياة، وأسرف في إيراد البراهين التي تدعم ــ بنظره ــ نظرية التناسخ. ولما اعترضتُ واعترض صاحب الدعوة على ما يصدم عقولنا من عقيدته الغيبية التي تبدو في أطار من الخرافات والأساطير قال بنبرات متحمسة حاسمة:

ــ إن الأمور الروحية التي لا تتجلى لغيري إنما تتجلّ لي بشكل شديد الوضوح، فأنا لا أشتت فكري بل أجمعه وأحصره في نقطة محدّدة، مثلما يلتقط المذياع الاذاعة المطلوبة التي لا تُسمع قبل أن ينطبق المؤشر على رقمها..

* * *

ومن الجدير بالذكر أنني قد أرسلت مقالاً، قبل مجيء نعيمة إلى العراق بأيام، إلى مجلة «المعرفة»(٩) السورية عن كتابه «سبعون» أبديتُ فيه ما لكتابه هذا وما عليه بصراحة وموضوعية. ولما كان نعيمة يضيق

---

(٩) نشر في العدد الممتاز الصادر في شباط ١٩٦٣.

ذرعاً بالنقد، كان لا بدّ لي ـ بعد أن أقدمت على إرسال نقدي هذا إلى المجلة المذكورة ـ أن أنبهه ـ وهو محاط بحسن رعايتي وضيافتي في بغداد ـ إلى أني حسن النية فيما كتبت وإني لم أكتب عنه سطراً واحداً عنه إلا بدافع حب الحقيقة، وذلك لئلا يصبح ترحيبي به نوعاً من النفاق والعياذ بالله. . ولهذا كتبت له الرسالة (١٠) التالية التي سلمتها إليه أثناء توديعي له في مطار بغداد:

تشرين الثاني ١٩٦٢

أخي الكبير وصديقي الأثير ميخائيل

لا أريد في هذه الرسالة، التي لم تتسلم مثلها من قبل، أن أسبق اسمك بالألقاب، لأن الحياة علمتني أن أنفر من جعجعة الألقاب وطنينها ورنينها، يكيلها إنسان لإنسان، مهما كانت منزلته في الحياة، فكيف بين صديقين أخوين. . . ولا أخالك من الذين تهتز أعطافهم لأي لقب تستحقه أو لا تستحقه، لأنك بلغت مرتبة يتضاءل أمام نورها بريق هذه التوافه. .

لا أكتمك، يا ميخائيل، إن زيارتك إلى بغداد تركت في نفسي أثراً طيباً لا يستطيع قلمي أن يحيط بروعته. . فقد لمست من محبتك وتواضعك ولطفك وأنسك، الشيء الكثير. وقد كنت ـ والحق يقال ـ كالمغناطيس، تجذب إليك القلوب والعقول والأرواح. . .، يتحدّث إليك الصديق فينسى الدنيا وما فيها من هموم وأوجاع وأهواء وخداع، بالرغم من أنك تجنح إلى الجد في كل أحاديثك. . في حين أن الدنيا،

(١٠) جريدة الرافدان البغدادية، العدد ٦، ١٣ أيلول ١٩٦٧، ص ٦ ـ ٧.

كما لا يخفى عليك، تحتاج إلى شيء، ولو يسير، من المرح والضحك...

وزبدة القول إنني ازددتُ محبةً لك وإكبارا عندما رأيتك في بغداد: أما زيارتك لبيتي فقد تركت في نفسي وفي نفوس كافة أفراد عائلتنا أثراً طيباً جداً، فما كانت زيارة رسمية محفوفة بالمجاملات والمظاهر البرّاقة وإنما كانت زيارة أخ كبير لأخيه الصغير، حتى إنني شعرت شعوراً عميقاً، صادقاً – وأنت في بيتي – بأنك أنت صاحب البيت لا أنا. وترحمت على روح الشاعر القائل:

يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا

نحن الضيوف وأنت ربّ المنزل

فأهلاً بكَ في بيتك.. وأهلاً بك في بغداد.. وأهلاً بك في كل مكان سنلتقي فيه إن شاء الله.

أخي الكبير...

هناك أمور أود أن أوضحها لك لكي تزول احتمالات سوء التفاهم بيننا في الحاضر والمستقبل وأوّل أمر بل أهم أمر أودّ أن تعرفه عنيّ هو أنني أصبحتُ منذ عام ١٩٥٤ حتى كتابة هذه السطور أعشق الصراحة في كل ما أكتبه، شعراً أم نثراً، وأعترف بأنني كنتُ قبل هذا التاريخ منجرفاً في تيار المحبة والإعجاب الأعمى. فإذا كتبت عن أديبٍ من الأدباء أو شاعر من الشعراء، تغاضيتُ عن هفواته وعثراته، وأغمضت عين النقد عن مواطن ضعفه وإخفاقه!، ومنذ ذلك التاريخ أصبحتُ أنظر إلى الأدب والأدباء بمنظارٍ آخر..، فقد ازدادت تجاربي

في الحياة، عن ذي قبل، وعلمتني الحياة أشياء كثيرة لم أتعلمها من الأدباء وكتبهم. . . حتى ألفيتني أنفر أشدّ النفور من التبخير لأي إنسانٍ مهما كانت منزلته في دنيا الفكر والأدب. .

وعلى ضوء هذه الحقيقة أقول لك بأنني إذا كتبتُ شيئاً عنك وعن كتبك، يوماً ما، فسترى وستلمس إن الصراحة ديني في كل سطرٍ من سطوري. . . ، فإذا أظهرتُ هفواتك ـ كما تبدو لي ـ فأرجو ألا يتبادر إلى ذهنك قول الشاعر:

أعـلّمـه الـرمـايـةَ كـل يـومٍ
فـلـمـا اشـتـدّ سـاعـده رمـانـي

فليست غايتي أن أرميك، يا أخي الكبير. وليستْ غايتي أن أبني مجدي على أنقاض مجدك. . فمجدك خالد ما دامت الحياة على وجه الأرض. . . وإنما غايتي هي أن أكون مخلصاً لنفسي وفنيّ قبل أي اعتبار آخر. ولا شك بأنك كنت، وما زلتَ صريحاً إلى درجة العنف ـ ولا أقول القسوة ـ في كل ما كتبته عن مؤلفاتي. . .

وإذا غضبت، بالأمس، من صراحتك المتناهية، فلن اغضب منها، إن شاء الله، في الحاضر والمستقبل، لأنني صرتُ اتخذ من الصراحة ديناً ويقيناً. . . ، وما أقلّ الذين يبصرون عيوب أنفسهم وما أقلّ الذين يعترفون بهفواتهم وعثراتهم في طريق الفكر. . .

وأخيراً أرجو أن تعذرني عن أي خطأ صدر مني أو قد يصدر في المستقبل فإن محبتي لك لا حدود لها. . كما أرجو أن تتقبل صراحتي معك

في كل ما سأكتبه عنك برحابة صدر، لأنك رجل الحقيقة، ورجل الحقيقة مطالب أكثر من غيره بأن يحترم الحقيقة التي يعتقدها سواه.

والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته

أخوك الصريح
حارث طه الراوي

* * *

وفي صيف السنة التالية (١٩٦٣) زرت لبنان وأرسلتُ ــ كعادتي ــ رسالةً إليه فأجابني بالرسالة التالية:

بسكنتا ــ لبنان **٢٥** تموز **١٩٦٣**

عزيزي حارث

سرّني أن أتلقى رسالتك من حمّانا، وأن أعرف أنك تنعم بعافية طيبة في جوٍ لبناني ممتاز. وسيسرني أكثر أن ألتقيك ــ إن شاء الله ــ عند الأستاذ أمبل يوم السبت الواقع في **٣** آب القادم. ولعلّ الأخ قنبر ينضمّ إلينا في ذلك الموعد.

فإلى اللقاء القريب، وعليك وعلى عائلتك الكريمة أطيب السلام

من
المخلص
ميخائيل نعيمة

* * *

والتقينا في الثالث من آب ـ الموعد الذي حدّده نعيمة، في منزل أميل ضومط بسوق الغرب ـ رأس الجبل بحضور أميل وقنبر وبعض الضيوف. كان نعيمة منفعلاً، ولكنه كان يقاوم انفعاله فينجح تارةً ويخفق تارةً أخرى. لا شك إن رسالتي الصريحة إليه التي سلمتها إليه في بغداد، لم تسبب له المسرّة والارتياح. ولا شك في أنه قرأ مقالي الصريح جداً في نقد كتابه «سبعون» في «المعرفة» الدمشقية وإلاّ فما الداعي إلى استقبال الضيوف في هذا الجو المتوتر؟!

أطلعته على رسائله إلَيّ، وكان يهمّ يومئذٍ بجمع رسائله التي أرسلها إلى أصدقائه في مجلدٍ مستقلٍ يعده للنشر ـ فأخذ يتصفحها ويبدي إعجابه ببعضها. وذكرته إحدى الرسائل بشيء فأفلت منه زمام الهدوء النسبي فأظهر انفعاله بكلمات لا تدلّ على اتزان في التفكير حيث قال لي: ـ هل أبغي الشهرة منك من وراء مراسلتك؟

هذه هي اللذعة الأولى ولا أقول اللدغة الأولى. أما اللذعة الثانية فجاءت بغتة باللهجة العامية اللبنانية:

ـ حاسب حالك نضجت؟ ـ لا ما نضجت...

تمالكتُ أعصابي أمام هذه الكلمات الفجّة المنطلقة كالقذائف من فم رجل يُفترض فيه ألاّ يحترق بعد أن نضج...

وما دام نعيمة في حالة الاحتراق والانفجار فلا عجب إذا ما انطلقت منه شظية إلى صديقي الشاعر اللبناني الكبير أمين نخلة ـ رحمه الله ـ حيث اعتبر قصيدته التي صدّر بها ديواني «بتاريخ»: (إهانة للشعر)!!. ما دام الأمين قد انتصر فيها للتراث والأصالة!!.

ودار الحديث عن ثورة اليمن والمعارك التي كانت دائـرة بين الجمهورين يساندهم الجيش العربـي المصري وبين فلول الملكيين من أنصار الإمام البدر المتسللين من وراء الحدود الذين يساندهم النظام السعـودي. وكان بعض الحـاضرين يهـاجمون اليمنيـين الجمهوريـين والمصريين وعلى رأسهم جمال عبدالناصر، بدافع طائفي ضيّق، مظهرين استبشارهم بإسقاط بعض الطائرات المصرية!! وبدلاً من أن يردهم ميخائيل نعيمة رداً مفحمًا اكتفى بقوله بلهجة باردة:

ـ أنا لا أريد أن ينتصر إمام اليمن..

وورد ذكر الثورات فتطرّق نعيمة إلى ثورة أكتوبـر في الاتحاد السوفييتي وأخذ يثني على قائدها لنين ومنجزاته. فأثنى أحد الحاضرين على جمال عبدالناصر ومنجزاته في مصر، فلم يعلّق نعيمة على هذا الثناء بشيء...

والظاهر أن (الاجتماع الممتع) في نظر نعيمة هو الاجتماع الذي يسوده الجد والتوتر النفسي، ذلك لأني ما كدتُ أعود إلى بغداد حتى تسلمت رسالة منه مؤرخة بتأريخ **١٩** آب **١٩٦٣** جاء فيها حـول اجتماعنا هذا ما يلي:

«ليت اجتماعنا في سوق الغرب كان أطول مما كان. إلاّ أنه، على قصره، كان اجتماعاً ممتعاً».

* * *

كان هذا آخر لقاء لي مع ميخائيل نعيمة أما آخر رسالة تسلمتها منه فكانت مؤرخة بتأريخ ١٧ تموز ١٩٧٠ وهي التي أجابني فيها على رسالتي التي نعيت له فيها والدتي. وهذا هو نصها:

عزيزي حارث

تلقيتُ رسالتك التي وصلت ما انقطع بيننا لأسباب أنت أدرى بها. فسرّني إنك باقٍ على ولائك لرجلٍ ما تمنّى لك يوماً إلّا الخير.

فقدتَ أمك ولكنك لم تفقد محبتها. فقلوب الأمهات لا تموت حتى وإن هي كفّت عن النبض. فتيار المحبة الذي انطلق منها لتيّار لا ينقطع أبداً.

أصبحتُ لا أقوى على الكتابة إلّا بالكثير من المشقّـة. وذلك لارتجاف يدي عند الكتابة. فاعذر اقتضابي في جوابـي وتقبّل أطيب السلام وأصدق الدعاء من المخلص

ميخائيل نعيمة

* * *

كانت أمّي ـ رحمها الله ـ تعاتبني بإلحاح على أية جفوة تبدر مني تجاه الأستاذ ميخائيل نعيمة ولا يرضيها إلّا دوام الصداقة والمراسلة بيننا. فكنتُ ـ إكراماً لها ـ أبذل المستحيل للتوفيق بين رغبتها السامية وبين مواقف الأستاذ نعيمة واتجاهاته الفكريّة الغيبية البعيدة عن الطموحات الراهنة للأمة العربية. إذ كان يعزّ عليّ ـ ولم يزل ـ أن أرى مفكراً عربياً من عيار ميخائيل نعيمة منسحباً من معركة الأمة العربية التي ما تزال محتدمة بينها وبين الصهيونية والأمبريالية المجرمتين...

وكنتُ أتمنى ـ ولم أزل ـ أن يكون له ـ كقائد من قواد الفكر العربـي المعاصر ـ موقفاً مشرّفاً يسجل له ضد الاستعمار والصهيونية،

ولكن الرجل آثر السلبية، وآثر السلامة، ولم يتورّع عن حمل غصن الزيتون ومداعبة حمامة السلام أمام أعداء الدّاء يحملون الصـواريخ ولا يحلمون بغير التوسع في العدوان وابتلاع أمتنا برمتها. . . ، فكيف نكون العلاقة بيني وبينه على صفاء وكيف لا تتلبد الأجواء بيني وبينه بالغيوم؟!

□ □ □

مع الشاعر القروي

أول مقال لي نشر لي في الصحف هو مقالي «الشاعر القروي وفلسطين» الذي نشرته جريدة «اليقظة» البغدادية في عددها ١٤٢ الصادر في ٢٠ أيلول ١٩٤٧ ص ٣. ولم أكد أرسل نسخة منه إلى القروي ـ وكان مقيماً يومئذٍ في «سان باولو» بالبرازيل ـ حتى وردتني رسالة رقيقة منه متدثرة بكراسه الشعري «اللاميات الثلاث».

وفي سنة ١٩٥٨ دعته حكومة الجمهورية العربية المتحدة «ليقيم أينما شاء، لأن كل بقعة من أرض الوطن هي ملكه، ولأنه أحبَّ السبعين مليون عربي كما أحبَّ ذاته، ولأنه الشاعر الذي تجسدت في حياته وشعره أجزل معاني الشعور بقوميته الخالصة المجردة والاعتزاز بها. ولأنه الشاعر الفارس الذي تغنىّ بأمجاد أمته وكافح وشقي من أجلها، وكان يزداد مع البلاء عناداً، ومع مرِّ الشدائد ولوعاً وهياماً حتى غدا الحبّ لديه على البعد عبادةً وتقديساً»(١).

ولم أكد أعلم بوصوله إلى دمشق حتى شددتُ الرحال إليها وسألت عنه في فندق «سمير أميس» حيث كان يقيم فقيل لي أنه مدعو خارج دمشق وسيرجع بعد أيام قلائل، فتركت له عنواني في ورقة.

وفي صبيحة اليوم الثامن من أيلول ١٩٥٨ رنّ جرس الهاتف في

---

(١) فؤاد الشايب، كيف عرفت الشاعر، مجلة «الثقافة» السورية، العدد ٦، تشرين الأول ١٩٥٨.

فندق «النعمان» حيث كنت أقيم، وطَلبت للتكلم، وإذا بالمتكلم الشاعر القَروي يدعوني بلهفة لزيارته في «سمير أميس» فذهبتُ إليه وتعانقنا ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث. . .

لاحظتُ أن صاحب «الأعاصير» يتحدث بهدوء فتتدفق النسمات المنعشة من بين شفتيه، وكنتُ أظنه إنساناً عصبي المزاج يتحدث بانفعال. إن هذا الليث الغاضب في «الأعاصير» و «الزمازم» هو بلبل وديع في المجالس. ولكن ثورته التي تتأجج في صدره، يتوهج لهيبها، أحياناً، في بعض الكلمات التي يطلقها لسانه ببساطةً وثقة. . .

ولاحظتُ أن «القروي» يستمع إلى محدّثه، بإمعان، ويقتنص جوهر الموضوع بسرعة خارقة، فإذا أسهب المحدّث في حديثه، تغمر القروي، عندئذٍ، موجةٌ من الشرود الذهني، ثم يفيق من سكرة شروده ويعلّق على جوهر الموضوع الذي اقتنصه في بداية الحديث.

أما النكات المستلحة فتتدفق من فمه بلا حساب، وهو بالرغم من ذلك يبدو مقتصداً في الضحك، وكثيراً ما يقنع بالابتسامة المشرقة ولا يضحك ضحكة ذات أجراس إلاّ في الحالات الاستثنائية التي تهزّه بالطرب الكامل. . .

تحدّثنا، بحضور بعض الأدباء، عن ثورة العراق المجيدة في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ فأبدى الحاضرون وفي طليعتهم الشاعر القروي إعجابهم بهذه الثورة المباركة.

كان القروي يستشهد بشعره خلال الأحاديث التي دارت بيننا، وكان يلقيه بصورة خطابية مؤثرة من غير تكلّف وتصنّع، بحيث أصبح

الشعر جزءًا متممًا للأحاديث التي كانت تدور بيننا، ولعلّ أروع قصيدة سمعتها منه هي التي رثى بها أبا ماضي..

ثم ودعنا القروي، بعد أن دعانا القروي على الغداء في الساعة الواحدة وفي الفندق نفسه. وفي الموعد المحدّد صعدت إلى غرفة القروي في الفندق فألفيته مع الشاعر أنور العطار ـ رحمه الله ـ فقدّمني القروي إلى العطار الذي أبدى سروره بفرصة تعارفنا. وبعد أن أمطرنا القروي بوابل من النكات نزلنا إلى قاعة الطعام فانهمرت علينا من جديد نكات القروي، وكانت إحدى النكات من النوع الدسم الذي لا يروى أمام السيّدات المحتشمات...، وقد أحدثت هذه النكتة زلزالاً من الضحك في أجسامنا. وأخذ القروي يروي لنا بعض ذكرياته الجميلة في البرازيل.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام نهضنا متوجهين إلى بهو الفندق وإذا بالمغنيّ المعروف محمد سلمان يتقدّم نحو القروي مرحباً مستبشراً، وما كاد القروي يقدّمني إليه حتى أبدى إعجابه بشعري وطلب مني قصيدة في تمجيد ثورة ١٤ تموز لتنشدها زوجته السيدة نجاح سلام... ولكن حال سفري السريع دون تحقيق هذه الأمنية الحلوة...

وقد اقترحتُ على محمد سلمان أن يلحنّ وينشد مقطعين ملتهبين من ملحمة القروي «تنديل» فوافق المطرب ووافق الشاعر وطلب محمد سلمان موافقة خطيّة من الشاعر القروي على ذلك فلبى الشاعر هذا الطلب... ولكني لم أسمع هذه الأغنية حتى كتابة هذه السطور!!..

وفي العاشر من أيلول ١٩٥٨ دعانا الشاعر أنور العطار لتناول الغداء في أشهر مطعم شعبي في دمشق ألا وهو مطعم «صدّيق». اعتذر القروي في البداية عن قبول الدعوة قائلاً:

ـ ما أكثر الإخوان، في بلدكم، الذين يتلطفون بدعوتي على الغداء ثم يحتجزونني إلى وقت العشاء، فألقى تعباً وإرهاقاً من جراء ذلك. فأجابه العطار بقوله:

ـ إن دعوتي تقتصر على الغداء فقط يا أخي القروي...

ـ هذا ما سمعته من كل صاحب دعوة في هذا البلد...، أتكون وحدك صادقاً؟!

فضحك الجميع. ثم قال العطار:

ـ يا أخي القروي.. سيكون غداؤنا في أشهر مطعم شعبي في دمشق. ألم تسمع بمطعم صدّيق؟ ألا يشتهي شاعر الشعب أكلة شعبية؟

ـ أوافق على دعوتك من صميم قلبي ما دامت في مطعم لا في بيتك..

وهكذا انتهت الأزمة بسلام، فذهبنا ماشين إلى مطعم صدّيق، حيث أكلنا أشهى الزاد وبينما كنّا نتناول الطعام شرع القروي يحدثنا عن المطاعم في البرازيل ويشيد بها ويثني على أصحابها ثم قال بلهجة المستغرب:

ـ لماذا لا ترتفع مطاعمنا إلى مستوى المطاعم في البرازيل من حيث جودة الطعام ونظافة المطعم ومن حيث الخدمة؟ ـ ليس هذا بالأمر

العسير، فهو يتطلب جمعيات تعاونية بين الشباب المثقف. إن الترفع عن القيام بهذه الأعمال الحيويّة ينبغي أن يزول، وينغي علينا أن ننظر إلى العمل الشريف، مهما كان نوعه، نظرة احترامٍ وإعجاب، وإلاّ فسنبقى متأخرين في هذه النواحي الحيوية...

وبعد برهة من الزمن نهضنا متوجهين إلى مقهى «الكمال» في «المرجة». وما كدنا نصل إلى المقهى حتى سأل الشاعر القروي خادم المقهى عن شاعرنا الصافي النجفي الذي اعتاد التردد على هذا المقهى، ولما أخبره الخادم أنه لا يعرف الصافي النجفي تألم القروي كثيراً وقال له:

ـ كيف لا تعرف الصافي النجفي، وهو الشاعر الكبير الشهير؟

وبعد ذلك شرعنا نتجاذب أطراف الأحاديث الأدبية الشيقة، ثم طلبنا من القروي أن ينشدنا شيئاً من قصيدته الجيدة «الربيع الأخير» فلبى طلبنا بصوته الشجي المعبّر. وطلبنا منه أن ينشد بعض أبيات نونيته في شاعرنا الخالد أبي الطيب المتنبي فنزل عند رغبتنا وزاد في طربنا ونشوتنا ثم ذكرنا نخبة من شعراء وادي الرافدين بالخير وأكبرنا مواقف تلك النفوس الأبية التي صفعت الاستعمار وندّدت بأذنابه..

وقد كنت أتمنى لو أن تلك الجلسة الأدبية الممتعة تمتد حتى منتصف الليل لازداد طرباً وأنساً، ولكن عقرب الساعة كان يقول لي: هيا إلى الفندق وخذ حقيبتك منه وتوجه فوراً إلى شركة نرن، فلم يبق بينك وبين الرحيل إلى بغداد سوى ساعتين...

فنهضت وقبلت العطار، ولما اقتربت من الشاعر القروي لأقبله أبى إلاّ أن يودعني في فندق «النعمان». ولما رجوت منه ألاّ يكلف نفسه عناء الذهاب إلى الفندق الذي أحلّ فيه، أبى وأصر وقال:

ـ هذا بعض الواجب الذي عليَّ تجاهك . .

فذهبنا إلى الفندق وجلسنا في محل الاستراحة. وبعد برهة من الزمن عانقت الجميع ومضيت في سبيلي إلى بغداد وأنا أحمل أجمل الذكريات عن «الشاعر القروي».

* * *

وعلى أثر وصولي إلى بغداد أرسلت إلى القروي رسالة فأجابني عليها برسالة طويلة اقتطف منها بعض السطور التي وردت في مقدمتها:

«عن دمشق ١٩٥٨/٩/٢٥

أخي البرّ فتى بغداد الحرّ الأديب حارث طه الراوي أعزّه الله،

أحببتك بعيداً وقريباً. وأعجبتُ بكَ خَبراً وخُبراً. وسمعتُ من أدبكَ أحسن مما قرأت. ولمستُ من فضلك أكثر مما تصوّرت. . ولقد غادرتنا إلى عاصمة الرشيد بعد أن ترك لطفكَ وتهذيبك وعروبتك في نفسي أثراً يوسفيّ الحسن، مسكيّ النفحات» الخ . . .

* * *

وفي صيف سنة ١٩٦٠ زرت القروي برفقة الصديق البرت الريحاني وذلك في قريته «البربارة» حيث كان يقيم في منزلٍ صغيرٍ ذي غرفةٍ واحدة مع المرافق. ولم نجده فانتظرناه فجاء إلينا بعد برهة من الزمن وعلى رأسه قبعة من القش. . فسلّم ورحّب وجلسنا نتحدث في غرفته الوحيدة البسيطة المتواضعة. وكان القروي غاضباً على المصريين الذين أخّروا طبع ديوانه في مصر وأبدوا تحفظاً على نشر قصيدته «حضن الأم» الخ . . .

ولما وجه إليه البرت الدعوة لحضور الدعوة الكبرى على العشاء في منزله بالفريكة في مساء الثامن والعشرين من آب ١٩٦٠ قبل الدعوة شاكراً ممتناً..

وبينما نحن نتحدث جاءه شيخ هرم يحمل أناءً معدنياً كبيراً مملوءاً بالعنب والتين.. فقال القروي:

ــ هذا غدائي، فتفضلوا لمشاركتي فيه.

عندئذٍ اعتذرنا بكثرة مشاغلنا وودعناه وعدنا إلى بيروت.

* * *

وفي الثامن والعشرين من آب حضرت مع عائلتي الدعوة التي أقامها البرت في منزله في قرية أمين الريحاني ــ الفريكة. وجلستُ بالقرب من الشاعر القروي الذي كان يجلس خلفه الصديق الأديب وديع ديب. ولما كان الديب بالعامية اللبنانية يعني الذئب بالفصحى انتهزتها فرصة لأستفز قريحة القروي بنكتة حول هذه المفارقة فقلت له:

ــ الديب خلفك يا أستاذ، ألا تخشاه؟

ــ كلا لا أخشاه لأن أنيابه مستعارة...

كانت سرعة بديهة من القروي طريفة جداً. فكون وديع ديب أنيابه مستعارة يعني أن رده في كتابه «الشعر العربي في المهجر الأميركي» على تعريض القروي بأحد كبار المراجع الطائفية كان بوحي من رجال الطائفة...

وهكذا أضحكنا القروي وكان أعمقنا ضحكاً وديع ديب...

ولا داعي لإعادة ما حصل للقروي مع بعض المحسوبين على الصحافة في لبنان في بيت آل الريحاني فقد ذكرت ذلك في ذكرياتي عن عبدالمسيح حدّاد في هذا الكتاب، ولكن لا بدّ لي أن أشير إلى أن العناصر المتعصبة المؤمنة بالطائفية الضيقة كانت هي الغالبة في الحاضرين والحاضرات، ولهذا أحجم القروي عندما دعي لإلقاء شيء من شعره عن إنشاد أية قصيدة قومية ذات طابع عربي تحرري واكتفى بتلاوة قصيدته «حضن الأم». والظاهر أنني كنت جريئاً عندما دعيت لإلقاء قصيدتي في تحية الشاعر القروي لما فيها من الحسّ القومي الوحدوي الملتهب كالأبيات التالية:

أبعدتَ شعركَ عن مديحٍ كاذبٍ
وعصمته عن مغرياتِ المالِ

ووقفتَ شعركَ للعروبةِ رافعاً
راياتها فوق السماك العالي

أيقظتَ أمّة يعربٍ من غفوةٍ
طالت وما طالت بغير وبالِ

كم صرخةٍ أطلقتَها فتأججت
هممٌ وماجَ الدهر بالأبطال الخ...

والغريب أن سحر الشعر قد دبّ في أعصاب الحاضرين فأنشدوا إليّ وطربوا بشكل غريب. وقد أحسّ القروي إحساساً عميقاً بصدق لهجتي وعمق محبتي له فنهض على أثر انتهائي من إنشاد قصيدتي وتلطف

علي بثناء كثير وأذكر مما قال: «لا عجب أن يبدع الحـارث والحارث اسم من أسماء الأسد، والاسم منطبق على المسمّى!»

وبعد عودتي إلى بغداد تلطف الشاعر القروي بالذهاب إلى فندق «بالاس» في «عين السيدة» قاصداً زيارتي فـأشعره صـاحب الفندق بسفري فخاب أمل الشاعر الوفي وأرسل إليّ رسالة مؤرخة بتأريخ ١٢/١٠/١٩٦٠ جاء فيها حول الزيارة ما يلي:

«. . . لم أكن أتوقّع أن تهد الأطناب وتقلع الأوتاد. وتوليّ وجهكَ شطرَ بغداد. قبل أن أستمتع بساعةٍ هادئةٍ معك. أذكرها بالخير بعد رحيلك. فقد عمدتُ إلى التعريج على عين السّيدة بطريقي إلى دمشق وكليّ رجاء بأن ألقاك وأقضي شطراً من النهار والمساء بقربك ثم أتصبّح بجبينكَ متيمناً ساعة براحي وأزوّدك محبتي ودعائي في قفولك إلى دار السلام. ولكم كان أسفي شديداً حين أنذرني صاحب الفندق بمغادرتك ذلك المصيف الجميل إلى حيث لا يعلم» الخ. . .

* * *

وفي سنة ١٩٦٣ أرسلت إلى الشاعر القروي رسالة مؤرخة بتأريخ ١٠/٣ مع عدد من جريدة «الأيام» البغدادية فيه مقتطفات من دراستي عن القروي فأجابني بالرسالة التي أقتطف منها السطور التالية:

«بيروت ٣ نيسان ١٩٦٣

حضرة الأخ العزيز الأستاذ حارث طه الراوي المحترم،

تحية العروبة وبعد فإني كنتُ قد حرّرت لكم جواباً بتأريـخ ٢٧/٢/١٩٦٣ أشكر لكم رسالتكم الرقيقة وهديتكم القيمة «نظرت في

النحو والأدب»(*) للمرحوم والدكم. وقد حظيتُ بعده برسالتكم المؤرخة ١/٢٠. واليوم طالعت مرسلكم عدد «الأيام» الحاوي فصلاً من مؤلفكم «شعراء العرب المعاصرون»(**) منوهاً بأخيكم. مما يضاعف منّنكم ويزيد في تقصيري بإزائها وضوحاً وقبحاً. وإني لأسف أن يحول سوء صحتي وكثرة شواغلي دون تجاوب قلمي وقريحتي مع الأحداث الخطيرة المفرحة في دنيانا العربية، فمثلي مثل شيخ يرى الاحتفالات في عيد أحفاده ويعييه مشاركة المحتفلين في العزف والغناء» الخ...

وفي تموز ١٩٦٤ أرسلت إلى الشاعر القروي رسالة من مصيفي «ريفون» بلبنان أدعوه فيها لقضاء يوم واحد معي في هذا المصيف الجميل فأعتذر اعتذاراً رقيقاً عن قبول الدعوة بالرسالة التالية المؤرخة في ١٩٦٤/٧/٢٠:

«... أهلاً بالصديق الكريم ومرحباً. بيدي رسالتك الأنيقة التي كنتُ أتفاءل بأن تصلني يوماً ما من أيام هذا الصيف ومن مصيفٍ ما من مصايف لبنان. فكم سرّني صدق حدسي أيها العزيز!

أهنيك بصدورِ كتابك الموعود بحلته القشيبة وأشكر لك عنايتك الخاصة بأدب أخيك. أما بصدد تشرّفي بزيارة الأسرة الكريمة ورب الأسرة المحبوب فيعود إلى تجاوزي طور النقه إلى حالتي الصحية الطبيعية بعد وعكة شديدة أوهت قواي. وإني مضطر إلى الغياب عن البربارة اليوم إلى مكانٍ قريب حتى الأحد القادم إذ أنتظر زيارة الأخ فريد جحا،

(*) يقصد «نظرات في اللغة والنحو».

(**) نشرته دار القلم بالقاهرة سنة ١٩٦٤ بعنوان «مع الشعراء».

فحبذا لو تمكنت من خطفةٍ إلينا فنتغدّى معاً وآمل أن يسعدني المولى برؤيتك أيضاً فى ريفون في الظرف المناسب بإذنه تعالى وألف تحية من أخيك المشتاق.

رشيد سليم الخوري

الشاعر القروي

حاشية ـ بيتنا على الطريق العام بين بيروت وطرابلس لا في الطريق الفوقانية».

* * *

وفي الحادي والثلاثين من تموز ١٩٦٤ استبدّ بـي الشوق فذهبت إلى البربارة، لزيارة القروي وبعد مسيرة طويلة منهكة في الطريق العام الذي تطل عليه قرية البربارة ببيوتها المتناثرة المتباعـدة وبعد سؤال وجواب اهتديت إلى منزل القروي الجديد فرأيت من خلال زجاج نافذته الأمامية امرأتين تخيطان الثياب، فطرقتِ الباب فاستقبلتني إحداهما وهي في العقد السادس من عمرها وبعد أن حييتها قلت: «الشاعر القروي» فقالت: «تفضل». وبعد أقل من خمس دقائق جاء القروي فنهضتُ وقلتُ له:

ـ من أنا؟

ـ حارث.

فتعانقنا. كان القروي يرتدي «البيجامة» و«الروب» وفي قدميه «شحّاطة» قديمة. والظاهر أنه لم يكن حالقاً لحيته في ذلك اليوم. وبعد السؤال عن صحتي والسؤال عن صحته قال الشـاعر وهـو لا يخفي اغتباطه:

ـ لأوّل مرّة في حياتي أملك داراً. فقد كنتُ مشتتاً بلا مأوى، وقد أقمتُ فترةً من الزمن في مدرسة القرية...

وبعد برهة من الزمن جاء أحد أبناء أخيه أنيس الذي يشاركه السكنى في هذه الدار فأعطيته إحدى سلتي التين اللتين اشتريتهما من القرية كهدية بسيطة فأبى القروي ذلك وقال بلهجته اللبنانية:

ـ يا عيب الشوم. يجب علينا أن نزودك بالتين لا أن تزودنا أنت به...

ثم جاءت السيدة التي فتحت لي الباب فقدمها إلّي القروي وكان اسمها السيدة صفدي، وقد أثنى عليها القروي بقوله: إنها الامرأة الراقية التهذيب التي خدمت العروبة في المهجر. وقال لها عني وهو يعرّفني إليها من الثناء ما أخجل تواضعي..

وأنشدتها بعض الأبيات من قصيدتي في تحية الشاعر القروي التي ذكرتُ منها بعض الأبيات آنفاً فاهتزّت لها اهتزازاً شديداً. فقال لها القروي:

ـ إنَ هذه القصيدَة هي أجمل ما في ديوان الأستاذ حارث حتى انها تفوق قصائده الغزلية في حرارة العاطف ومن ذلك يتضح مدى وفائه لإخوانه... ولم أقل له ذلك عندما كتبتُ له رأيي في الديوان لئلا يقال بأن القروي يروم مدح نفسه...

ثم سألتني السيدة صفدي عن عنوان الشاعرة «نازك الملائكة» وقالت أن أختها قد درّست السيّدة نازك في العراق منذ مدّة طويلة..

ولما تركتنا السيدة صفدي وذهبت إلى داخل البيت تحدّثنا عن الصداقة والأصدقاء فأبدى القروي انزعاجه من صديق الطرفين «البرت الريحاني» وكيف أنه دعاه إلى قرية «بيت شباب» لإلقاء قصيدة عن أخيه المرحوم «أمين الريحاني» ولكنه لم يرسل إليه سيّارة إلى «البربارة». .

واستأنف «القروي» كلامه عن «البرت» قائلاً:

ـ وعندما زرته في دار الريحاني للطباعة والنشر ألفيته متجهّم الوجه وقال لي بكل صفاقة: لماذا لا تأتي كلّما دعوتك إلى دعوة؟ ـ لقد ورطتنا مرتين. . . الخ. . . فقلت له: إذا كنت تكلمني بهذه اللهجة يا ألبرت فاسمح لي أن أقول لك: من قال لك إن أخاك أمين الريحاني راضياً عنكَ وأنتَ في «بيت شباب» أكثر من رضائه عنيّ وأنا في «البربارة»؟ ومن قال لك إن الريحاني يرضى عن خطباء الحفلة أكثر من رضائه عني. ؟. ثم خرجتُ غاضباً. .

واستأنف القروي كلامه قائلاً:

ـ ولكنه ـ يعني البرت ـ على أيّ حال إذا ما اعتذر منيّ عن هذا التصرّف فسأعذره أماإذا لم يعتذر فلن أراه ولن أكلمه طوال حياتي. . .

ثم حدّثني القروي عن مقالين كتبهما بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ ونشرهما في إحدى الجرائد العربية بالبرازيل ونهض ليجلب دفتراً قديماً وأخذ يقرأ على مسمعي رأيه في الشريعة الإسلامية الغرّاء فوجدته شديد الإعجاب بها محيطاً بمحاسنها إحاطة العالم المدقق. . .

ودعينا إلى مائدة الغداء. وكان الطعام مؤلفاً من السمك المشوي والبطاطا المقلية والبطاطا «البودية» و «الزلاطة» والزيتون. فوضع القروي أكبر سمكة في صحني ووضع سمكةً في صحنه، فأخذت أتناول سمكتي

بيدي بشهية عظيمة. فقد كانت السمكة لذيذة وكان القروي لذيذاً والبحر الذي نطل عليه لذيذاً إذا جاز التعبير... وكان لبنان بأسره، يومئذٍ، لذيذاً...

وطلب القروي شيئاً من البصل وقال: أنا لا ألتذّ بأكل السمك إلاّ مع البصل. وروى لنا كيف أن المرحوم والده طلب من والدته ذات يوم أن يذكروا له ما يطلبونه مع البصل فأجابه القروي: لا ينقصني مع البصل إلاّ البصل! فقال له والده: أحسنت يا رشيد، ستكون شاعراً يا بنيّ!..

* * *

وفي سنة ١٩٦٥ تسلّمت من الشاعر الكبير قيصر سليم الخوري شقيق الشاعر القروي الملقّب بـ«الشاعر المدني» والمقيم في البرازيل رسالة طويلة مؤرخة بتأريخ ٢٥ كانون الثاني ورد فيها بخصوص قاموس «المنجد» الذي أضاعه ما يلي:

«.. أخي – كان لي صديق عزيز لم يفارقني أربعين سنة. وكان ذلك الرفيق معلّماً وهادياً ومرشداً فقدته بين ليلة وضحاها! كان معروفاً في كل الأقطار العربية، وفي كل المهاجر أيضاً ولا ريب أن أخي حارثاً يعرفه أكثر مما أعرفه أنا! ويا طالما التقيت به في بغداد وكان لك رفيقاً ولا يزال كذلك لحدّ الآن...

أما اسمه فهو المعجم المعروف «بالمنجد»... (لا حاجة لمكتوب تعزية فإن أخي رشيداً سيرسل التعزية الكبرى التي تنسيني فقيدي الغالي).

فقدت هذا المعجم (كأن الأرض انشقت وابتلعته) فتّشتُ عن

نسخة في المكاتب المعروفة هنا فلم أجدها. أشارت عليّ زوجتي أن أكتب لرشيد فيرسل لي نسخة جديدة، فقلتُ لها كلّا «يا رشيدة» ربما يكون ثمنها باهضاً وما لرشيد طاقة بذلك. ثم عدتُ أفكّر فقررتُ أن أكتب دون أن أطلب وأن تكون الكتابة شعراً لا نثراً. فنظمتُ أبياتاً تراها في آخر صفحة في هذه الرسالة. فأرجو من أخي حارث أن ينشرها بجريدة أو مجلة تسهّل وصولها ليد شقيقي رشيد فيطّلع عليها فإنه لحدّ الآن لا يعلم شيئاً من أمر هذه القصيدة الظاهرة معانيها والسهلة ألفاظها، يفهمها الأمي كالمتعلم على السواء!! فالمداعبات الشعرية لا تشوق أحداً إلا إذا كسيت حللاً من الألفاظ الرقيقة كالحسان بأبرادهنّ الشفّافة...». والقصيدة التي أشار إليها «الشاعر المدني» هي:

قد كان في مكتبتي «منجدٌ»
يا طالما سرنا وبتنا معا

وكان مهما غمضت جملةٌ
يكشفُ عن غامضها البرقعا

واللّهِ لا أعلمُ كيف اختفى
فتّشتُ عنه موضعاً موضعاً!

في كل جرّارٍ ورفٍّ ولم
أترك مكاناً يسعُ الإصبعا!

قالت لنا جارتنا إنها
رأتْ كتاباً طائراً مسرعاً

قـلتُ: إذاً فـرَّ لـبـيـروت كـي
يـرتـاحَ فـي مـكـتـبـةٍ أوسـعـا!

صحتُ! فـصـاحت زوجتي صيحـةً
تُسكتُ فيـهـا الـرعـدَ والمـدفعـا!

قـلتُ اسكـتي! سـمّعت حتى أخي!
قـالت أليس القصـد أن يـسـمعـا!
قـلتَ لهـا كـلّا! أجـابـت بلى...
مـا أكـره الكـذبَ ومـا أشنعـا.

لكن أيـن تـشـري «منـجـداً» آخـراً
وأنـتَ لا تـقـدر أن تـدفـعـا!!

فـارقـنـا لـم يـلتـفـت خـلفـه
ولـم يـقـل شـيئـاً ولا ودّعـا!

مـضـى نـهـاري لـم أذقْ لـقـمـةً
ومـرَّ لـيـلي دونَ أن أهـجـا

لـم يـبقَ لي صـبـرٌ عـلى بـعـده
قـولـوا لـه بـالله أن يـرجـعـا!!

ـ المدني ـ

ونشرتُ نصّ رسالة «الشاعر المدني» ونص قصيدته في «المنجد» بجريدة «البلد» البغدادية وأرسلتُ نسخة من الجريدة إلى «الشاعر

القروي» الذي لم يكد يتسلمها حتى أرسل إلـيّ رسالةً مؤرخة بتأريخ ١٩٦٥/٣/٢٠ مع قصيدة أجاب فيها أخاه عنوانها «عـودة المنجد الهارب». ومما جاء برسالته بخصوص رسالة أخيه وقصيدته:ـ

«... وصلني يا عزيزي عدد (البلد) ورسالتك الرقيقة معاً. فما أظرف أبيات المدني التي أجيبه عليها في نفس الوزن والقافية ولكن ليس من نفس النَّفَس الدعابـي اللطيف الذي امتاز به أخي الحبيب القيصر. فإذا وجدت لها مجالاً للنشر فلك الرأي».

وقد نشرتُ رسالة القروي وقصيدته في جريدة «البلد». وإليك نص قصيدة القروي:

عودة (المنجد الهارب)

أسـمعـتَ يـا أطـربَ مـن أسـمـعـا
مـا أرخـم الصـوتَ الـذي لـعـلعـا

لحنٌ من المهجـر فـي الشـرق كـم
ردّده الـشـرق وكـم ذيّـعـا

رجّـعـه «الـرّاوي» فـأحـيـت بـه
بـغـداد فـنَّ الـسـلف الأرفـعـا

فـهـبَّ «هـارونُ» لـه قـائـمـاً
وصـاح «إبـراهـيـم» مـا أبـدعـا

وانـقـطعَ الـبـلـبـلُ عـن شـدوه
واسـتحـيـت الـورقـاء أن تـسجـعـا

مـقـطوعـةً واحـدةً تـنـحـنـي
كـل الـدواويـن لـهـا خُـشَّـعـا

رقـرقـهـا الـظرف فـلولا الـتـقـى
طـارت بـألـبـاب الـورى أجـمـعـا
مـن فضـلةِ الـكـأس الـتـي صـبَّـهـا
رحنـا سكـارى، كـيف لـو اتـرعـا

* * *

لـبـيـكَ يـا قـيـصـرُ تـدعـو أخـاً
لـو كـان في الـقبـر للـبّى الـدعـا
«منجـدكَ الهـاربُ» مـا ضـاعَ بـل
أمّـل أن يـلقـى الـذي ضـيّـعـا
لـمـا رأى الضـاد هـوت شـمـسـهـا
فـي المـهجـريـن افتـقـد المـطلعـا
عـاد إلـى مـوطـنـه بـعـدمـا
قـلتَ لـه أنـكَ لـن تـرجـعـا
وقـد وجـدنـاه صـريـعَ الأسـى
يـذرفُ مـن فـرقـتـكَ الأدمـعـا
قـد خـدعتـه كـأخيـكَ الـمنـى
إيّـاكَ يـا قـيـصـرُ أن تُـخـدعـا
أرجـعـتُـه الـيـوم وفـي قـلبـه
وجـدٌ كـوجـدي يـحـرق الأضلعـا

من لي وقد طال التنائي بأن
أراكما عمّا قريبٍ معا

الشاعر القروي

وعلى أثر ذلك أرسلتُ إلى «الشاعر القروي» رسالة أخويّة رقيقة صارحته فيها بالمبالغة والغلو في بيته:

مقطوعة واحدة تنحي
كل الدواوين لها خُشّعا

فأجابني القروي برسالة مؤرخة بتاريخ ١٩٦٥/٤/١٧ جاء فيها بخصوص ملاحظتي الصريحة ما يلي:

«... عزيزي، لقد استقبلتُ بابتسامة الرضى والشكر، ملاحظتك على مبالغة البيت:

مقطوعة واحدة تنحي
كلّ الدواوين لها خُشّعا

فهي حقاً لا تتجاوز حدّ المبالغة حسب، بل حدّي الغلو والإغراق كذلك.. وعذري في هذا التضخيم **أولاً** أنه تعبير عاطفي عن فرحي غير المحدود بسماع صوت أخي الحبيب قيصر ونداء روحه الذي ينعش قلبي، وكلانا يائس من اللقاء بعد في هذه الدنيا، إلّا بقدر لطيف من ربّ العالمين، الرحمان الرحيم. **وثانياً** لأن هذه المبالغة من الوضوح بحيث يفهمها الجاهل والعاقل على السواء، فهي لا تغش أحداً ولا تحمل محمل الجدّ من أحد. وحرّي بكل من هو أدنى إلى حسن

التأويل أن يطلق حال سماعها أو قراءتها القول المأثور: «أعذب الشعر أكذبه».

* * *

وفي هذه السنة (١٩٦٥) أيضاً حدثتني نفسي أن أشتري الكوخ الذي كان يسكن فيه «الشاعر القروي» قبل أن يشيّد منزله الجديد. فالبربارة نعم المصيف والقروي نِعمَ الجار. وهكذا كتبتُ إلى الشاعر القروي ورجوته أن يستفسر لي عن سعر الكوخ، فأجابني الشاعر بالرسالة التالية التي جاءت أسطع برهان على طيب معدنه وعمق كرمه وأصالة صداقته، فقد تبرّع لي بنصف قطعة من الأرض تعود له ولأخوته، فاعتذرت عن قبولها بطبيعة الحال. وإليك ما يتعلق بهذا الموقف الرائع من رسالة القروي:

«البربارة ٦٥/٥/٩

الأخ الأعز حارثاً لا عدمته،

عدتُ من سفرةٍ إلى بيروت فوجدتُ رسالتك المؤرخة ٤/٢٥ تعرب فيها عن أمنيتك شراء بيت في البربارة كالبيت الذي زرتني فيه. وقد أممتُ القرية نهار أمس السبت ماشياً وتحادثت بهذا الشأن مع صاحب البيت المذكور عمنا السيد جرجس نعمة الخوري، وهو من أقرباء الكلالة، فقال أنه يأسف لتعذّر البيع إذ قد وزّع أملاكه على بنيه وبناته، وخرج البيت في حصة ولدين مهاجرين. ولكن في وسعه إيجاره لك بمائة ليرة مدة ثلاثة أشهر الصيف إذا شئت، أي زهاء ليرة لبنانية واحدة يومياً. أما الأثاث فيقتصر على ثلاثة كراسي ومائدة ومقعد خشبي بسيط. وقال أن من عقاره قطعة، أعرفها، وهي في مشرف من

مشارف القرية، مساحتها نحو خمسمائة متر مربع فيها بئر للشطف والغسيل وجنبها «سبيل» ماء نمير للشرب وهو يتعهد لك ببناء غرفة ومطبخ وحمام فيها وكل ذلك بخمسة آلاف ليرة لبنانية.

هذا وإن لي ولأخوتي على بعد خمسمائة متر شمالي بيتنا قطعة صالحة للعمارة تقع فوق متكسّر الموج تماماً، أنوب عنهم في إقطاعك نصفها كسباً لجوارك. وما هو بالثمن البخس ـ وسنلتقي في الصيف إن شاء الله فتشاهد وتختار».

* * *

وفي خلال شهر آب من هذه السنة أرسلتُ إلى «الشاعر القروي» نسخة من كتابي عن والدي «طه الراوي» الذي طبع في مَصر في هذه السنة، مع رسالة شوق. والظاهر أن القروي قرأ التحفظات التي ذكرتها في مقدمتي للكتاب التي جعلتني متردداً في تأليفه فأرسل إلي الرسالة المنصفة التالية التي أعتبرها خير مقدمة للكتاب في طبعته الثانية إن شاء الله. وهذه هي الرسالة:

البربارة ٢٨/٨/٦٥

الأخ البّر الوفّي الأستاذ حارث طه الراوي المحترم،

تنسمتُ من رسالتك الأخيرة كوكتيلاً صيدحيّاً[١] هو هذا المزيج الشهي الذي سكبته في سطورها من طيب أنفاس لبنان والاسكندرية

---

(١) نسبة إلى قصيدة الكوكتيل لجورج صيدح وهي من أرق ما نظم في الخمر. (القروي).

والقاهرة ودار السلام أو مدينة السلام كما كان المرحوم والدك يؤثر تسمية بغداد. ومع الرسالة مؤلفك الجديد القيّم (طه الراوي).

لقد أحسنت صنعاً. وحقّقت بّراً. وأرحت ضميراً بقيامك بهذا الواجب نحو الراحل الكريم أبيك العالم العلّامة. ولكم كنت غافلاً مغفّلاً وولداً عاقاً لو أنك لم تفعل.

وإني لأراني معبّراً عن شعور الملايين من العرب إذ أشكر لك هذا الصنيع. فقد أحسنت به إلينا إحسانك إلى نفسك. فمن الغبن الفاضح ألّا تعم معرفة سيرة هذا الرجل العصامي المفضال. وأن يجهل النشء العربي أستاذاً كبيراً نظيره أدّى للعلم والتربية والثقافة تلك الخدمة النصوح. وأفنى حياته في تلقين لغة العرب السليمة الصحيحة لطلّابه الذي لا يحصرهم ـ كما لا يحصر سني حياته النافعة ـ عدّ إذ هو ممن يصّح فيهم قول عمّك القروي في يوبيل المقتطف:

عمـر الفتى مجمـوع أعمـار الأولى
منـه استفـادوا نـاقـلاً عن نـاقـلِ
والـلانـهـايـة مـن ثـوانٍ سـاوقـت
نـبضـاتـهـا نبضـات قلبٍ عـامـلِ

* * *

طالعتُ الكتاب كلّه خلال يومين. ولولا شغلي بكثير يضيق عنه الذرع لما رضيتُ بهذه الإلمامة السريعة. فإن ما قرأتُ للمرحوم وعنه في مؤلفك هذا ليقتضي الأدباء إنصافه على أدق وأوسع وأكمل وجه، وهو ما تقصّر عنه كلمتي المتواضعة.

وإني لأهنيك أن الأخطاء المطبعية في هذا الكتاب أقلّ منها في كتاب «مع الشعراء» واستمحيك الملاحظة على ما درجته منها ومن سواها في الجدول المطوي على حدة.

هذا ما سمح الوقتُ بالإشارة إليه لا الإفاضة فيه. وإني لأعود على ما بدأت من الثناء على عملك المبرور شاكراً لكَ يدك الأدبية الجديدة.

وتلطف بتقديم احترامي للسيدة الفاضلة أم طـه ومي. وقبلاتي للملاكين الصغيرين ولك من عمكَ وأخيك.

الشاعر القروي

صفحة ٢٥ كلغوي متضلّع. هذا تعبير افرنجي تصويبه العربي ـ لغويّاً متضلعاً.

٢٩ دعاة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ـ صوابه العكس أي استبدال الحروف اللاتينية بالحروف أو من الحروف العربية.

٨٦ سلام عليك ـ فسلام عليك.

٩٠ أصبح جداً (بكسر الجيم) ـ أصبح جداً بفتح الجيم.

٨٦ لا تقل نعم بل قل أجل ـ الأصوب نعم لأنها بعد استفهام ولا أخالك إلاّ ناسياً ما قال العلاّمة المرحوم لأن ذلك مما لا يجوز على مدقق لغوي نظيره.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

القروي

* * *

وفي أوائل السبعينات لبى القروي الدعوة الرسمية لزيارة بغداد فالتقينا أكثر من مرة ودعوته إلى بيتي فاعتذر عن تلبية الدعوة لارتباطه بموعد آخر..

وأني لأمسك عن تدوين ذكرياتي عن القروي في بغداد بعد أن اتضحت لي بعض سلبياته في زيارته لمدينتنا، لأنني لا أريد للصورة الجميلة التي رسمتها للرجل أن تهتز...، وسيبقى القروي ـ رغم سلبياته ـ ذلك الشاعر العظيم والعم الكريم والصديق الحميم..

□ □ □

مع بدر شاكر السياب

في أواخر الأربعينيات تعرّفت على الشاعر بدر شاكر السيّاب الذي كان يُكبر فيّ عنايتي بشعراء المهجر ومواصلة إنصافي لهم. وكنتُ أُكبر فيه نزعته الجديدة المبدعة في الشعر. . .

كنّا صديقين متحابين، ولكننا لم نكن بالصاحبين المتلازمين. ولم تكن صداقتنا لتتعدى الإعجاب والاحترام المتبادل واللقاءات المتقطعة في «كازينو بلقيس» بشارع أبي نواس حيث تجمعنا الكأس مع أدباء آخرين لم يبق في الذاكرة منهم سوى القاص المعروف «عبدالملك نوري».

وعلى سطح «كازينو بلقيس» أهداني بدر ديوانه الجميل «أساطير» المشحون بالقصائد التي تنبض بالحب والحياة. ولا أدري كيف فُقد منيّ هذا الديوان الأخضر الجميل!

* * *

وفي مستهل الخمسينات طلب مني أحد المشرفين على الأحاديث الأدبية في الإذاعة العراقية المساهمة في ندوة أدبية في الإذاعة وترك لي حرية اختيار الأدباء الذين سيساهمون فيها، فوقع اختياري على بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ولميعة عباس عمارة. ولما بلّغت بدراً تردّد في البداية، لأن صلته بالإذاعة كانت مقطوعة، ولكني لم أكد أذكر له اسم الشاعرة لميعة عباس عمارة حتى أشرقت أساريره وقال بلهفة:

ـ حسناً. سأساهم في الندوة ما دامت لميعة معنا لأنني لم أرها منذ مدة طويلة...

وقبل أن أتصل بلميعة اتصلتُ بنازك فاعتذرت، ولا أذكر سبب اعتذارها. وباعتذارها طويت الندوة ويا للأسف الشديد...

* * *

وفي مستهل الستينات شاهدت السّياب ينشد بعض قصائده في «جمعية المؤلفين» والكتاب العراقيين في العيواضية، وكان يجلس بجانبي الصديق الشاعر عبدالقادر رشيد الناصري رحمه الله. فأنشد السياب قصيدة قال فيها ما معناه: «الله نخلة في مدينتي». فقاطعه الناصري قائلاً:

ـ ـ بب كل ألغاز شعرك يا استاد بدر، اما ان تجعل الله نخلة فهذا أمر لا يحتمل..

ودّوت عاصفة من الضحك..

وإذا كانت هذه الحادثة نكتة في ظاهرها فهي في باطنها وبواعثها لا تعدو أن تكون صورة من صور الصراع بين أنصار الشعر العمودي ومفاهيمه وبين أنصار الشعر الحر ومفاهيمه..

وكان بدر، في تلك الفترة، قد بلغ أبعد المراحل في مجال التجديد وأقحم بعض صدور الشعر الغربي والأساطير الغربية بل حتى أجواء الشعر الغربي في الشعر العربي. فكان يلقى تأييداً حارّاً من أنصاره وفتوراً مشوباً بالسخرية من مناوئيه في طريقته الجديدة.

* * *

وآخر مرة رأيت فيها بدراً كانت في مقهى على ضفاف دجلة بشارع أبـي نواس مع جماعة من الأدباء أذكر منهم الدكتور علي الزبيدي والسيد خضر الولي. ولأول مرة سمعتُ أبا غيلان وهو يتبسط في حديث لا يخلو من الألفاظ الجنسية ويتدفق في روايات مـا كان أغنـانا عن سماعها..

وبعد أن تركنا المقهى وسرنا في الشارع، علمت أن بدراً يعاني بداية انهيار في قوى ساقيه، لهذا كان يسحب قدميه سحباً على الأرض، ولكن في شيء من النشاط الذي تضاءل وانعدام فيما بعد، بعد مرضه المعلوم الذي أودى بحياته. رحمه الله.

□ □ □

مع خليل الهنداوي

سمعت باسمه لأوّل مرة في حياتي أثناء وليمة غداء أقامها الصحفي الأديب صبيح الغافقي للأديب السوري بديع حقيّ سنة ١٩٤٢ وحضرها لفيف من أدباء بغداد لم يبق في ذاكرتي منهم سوى الأديب عبدالمجيد لطفي.

امتدح بديع حقيّ خليلاً الهنداوي إلى درجة أنه فضّل «بجماليون» الهنداوي على «بجماليون» الحكيم لأسباب بسطها في حينه بصراحة ووضوح...

ثم تتبعتُ آثار الهنداوي الشعرية والنثرية في «الرسالة» المصرية و «الكتاب» و «الكاتب المصري» فكنتُ به من المعجبين، وتجاوبت مع رده على المرحوم سيد قطب في مجلة «الكتاب» المصرية عندما عرّض قطب بمقال «نعيمة» عن «الصخور» في كتابه «البيادر».

ودارت الأيام. وتعاقبت السنون، فالتقيتُ بالهنداوي، لأول مرة في حياتي أثناء انعقاد مؤتمر الأدباء العرب الأول ببيت مري بلبنان في أيلول ١٩٥٤. فكان هذا الرجل الأسمر، الكبير الرأس، الفاحم الشعر، الكثّ الحاجبين، الأسود العينين، القصير القامة، الممتلىء الهامة، الكبير العقل والقلب، الخفيف الدم والروح، من أقرب الأدباء

الى نفسي وأحبهم إلى قلبـي، بعد الشعراء: أمين نخلة، وأحمد رامي، وصلاح لبكي...

لم ألمح على وجه هذا الأديب الحلبـي الظريف ذلك الـوجوم المصطنع الذي يشوّه وجوه بعض الأدباء والمفكرين الذين يطيب لهم أن يعـرفـوا بـالتفكـير العميق عن طـريق التشنـج المصـطنـع والـوقـار المتكلف!...، وإنما لمحتُ على وجهه تهللاً وتألقاً، لا سيما على ثغره الأهرث الذي قلما تفارقه الابتسامة الطفولية البريئة..، أما ضحكته العذبة التي تكشف، بوضوح، أسنانه المتباعدة، فلم أجد ضحكة أعذب منها وأشدّ نفاذاً إلى القلب إلاّ ضحكة سامي الكيّالي، رحمه الله...

إن حيوية الشباب المتألقة على وجهه الذي عجز الزمن عن تشويهه بالتجاعيد، تنفي أن يكون من المعلمين القدامى والمربين المخضرمين، ولكن المرحوم كامل مروّة ـ صاحب جريدة الحياة البيروتية ـ كشف لنا أمامه سرّاً أيده الخليل، وهو أنه ـ أي كامل ـ من الذين تتلمذوا على خليل الهنداوي في المدرسة!

* * *

في إحدى الأمسيات الشعرية لمؤتمر الأدباء في «بيت مري» وقف الخليل على المنبر لينشدنا رائيته الوصفية الموفقة في «بعلبك» فكان من المجلينّ في الصور والأخيلة، وكان من الساحرين في الإلقاء. فقد كان صوته الجهوري ينساب مع موسيقى القافية إلى نهاية القرار، وكانت إشارة يده تجسّم المعاني وتلّون الكلمات وترافق تأجج الموسيقى بكل دقة..

وانفضّ المؤتمر بعد أيامٍ من السعادة تضاهي الأعياد. وافترقنا. ولكن قلوبنا لم تفترق، وأرواحنا لم تتباعد. . .

والتقينا في بيروت مرّة أو مرتين. وكان اللقاء عابراً بحيث ظلّت أشواقنا المستعرة تبحث لها عن لقاءٍ طويل تروي فيه الغليل. . .، حتى أسعدني الله بلقائه في اليوم الأول من آب ١٩٦٩ بشقته الأنيقة الكائنة في الطابق الثاني من بناية الأوقاف الإسلامية بحلب، فتعانقنا عناق أخوين، وكان قلبانا يردّدان:

وقــد يجمــع اللّـه الشتيتين بعــدمــا
يــظنّــان، بعــد البين، ألا تــلاقيــا

وكم يخدع المصعد الكهربائي المظلم وهو يقلنا إلى الطابق الثاني من عمارة الأوقاف، فقد يخيل للصاعد فيه والنازل ـ لفرط العتمة ـ أنه يصعد وينزل في بئر لا منفذ للنور فيه، ولكني ما كدتُ أفارق عتمته الكئيبة وألج منزل الخليل حتى ارتطمتُ بـالنور المتـلألىء في أرجاء منـزل أبـي كمال. . .

أهو نور الشمس فقط؟! أم هو مزيج من نورها ونور الفكر، يضفي على هذه الشقة الصغيرة الهادئة هذا الجو الطلق المتألق الذي يُشعر الداخل إليه بالإلفة والسعادة. . .

ولا بدّ لك، وأنت تقصد الشرفة المشرقة، من البهو، من أن تمرّ بالمكتبة، ومكتبة الخليل ليست بالكبيرة. ولكنها تضّم أمهات الكتب الفرنسيّة والعربيّة والمعرّبة. .

جلسنا في الشرفة المطلّة على الشارع العريض، وفتح الخليل قلبه لي مثلما فتحتُ قلبـي له، وطفقنا نتجاذبُ أطراف الأحاديث الأدبية

لممتعة، ومما ذكره لي أنه رأى، ذات مرّة، في مكتبة الريحاني بالفريكة ديوان «الجداول» لأبي ماضي وعليه هوامش بخط «الريحاني» يُرجع فيها قصيدتين من قصائد أبي ماضي إلى أصلهما الانكليزي!

وعندما تطرقنا إلى ذكر «ميخائيل نعيمة» بمناسبة صدور كتابه «ابن آدم» قال الخليل: — إن نعيمة يكرّر نفسه.

واستغرق في ضحكة عميقة عندما ذكر لي جملته التي ختم بها مقاله عن كتاب «البيادر» في الردّ على المرحوم سيد قطب حيث قال:

— «وأخشى أن يمرّ سيّد قطب على بيدرٍ من الحنطة فلا يرى فيه إلّا السنابل».

وربت على كتفي وآثار الضحكة تتلألأ على وجهه وهو يقول:

— ألا ترى كيف أني لذعته بهذه الجملة؟

واستغرق في الضحك...

وأخبرني بأنه ينوي كتابة مقال يقارن فيه بين الريحاني ونعيمة كرجلين من حيث سيرتهما الشخصية إلّا أنني لم أقف على هذا المقال.

ودار الحديث عن شؤون وشجون أمتنا العربية، فكان حديث جراح تنزف...

* * *

وفي الخامس من آب ١٩٧٠ وصلتُ حلب قادماً من الموصل. وبعد سهرة ممتعة في منتزه «المنشية» الكائن في قلب المدينة، توجهتُ إلى

الفندق لأنام بعد أن استريت العدد الأخير من مجلة «الأديب» البيروتية (عدد آب ١٩٧٠). وبعد أن استسلمتُ لسلطان النوم، استيقظت في الثانية والنصف بعد منتصف الليل بسبب سوء الهضم، وأدركني أرقٌ لا يرحم حتى الصباح. ولم يكن لي من سمير في تلك الوحدة الموحشة غير هذه المجلّة. وبكيتُ عندما قرأتُ نعي الصديق الأديب الكبير فؤاد الشايب رحمه الله الذي توفاه الله غريباً في الأرجنتين. وهزّتني القصيدة الوجدانية التي ألقاها خليل الهنداوي في حفلة تكريمه التي أقيمت في حلب بمناسبة إحالته على التقاعد، فأعدتُ قراءتها مراراً فأبكتني: صوّرته من شعور الأديب العربي الحرّ الأبيّ، بالإجحاف وأدبار الدنيا عنه لا لشيء إلاّ لأنه يأبى أن ينافق ويتلّون ويتمرغ...

وبلغ تجاوبي مع هذه القصيدة الوجدانية الرائعة إلى درجة اني أمسكتُ القلم لأحيي الخليل بنفس الوزن والقافية، وقد أترعتُ كل كلمة من كلمات القصيدة بقطرات من جراحي، فلم تكد تشرق الشمسُ وأتناول فطوري حتى أمسكتُ بالهاتف واتصلتُ بمنزل الخليل، ولم أكد أسمع صوته حتى بادرته قبل التحية والسلام بمطلع تحيتي له:

حليلَ القلب، يا خير الصحابِ
ويا نَسراً تغلغلَ في السّحابِ

فقال، قبل أن يسأل عن اسم صاحب هذا البيت الموجّه إليه:

ـ طيّب. طيّب. هل وصلت «الأديب»؟!

ـ نعم وصلت.

ولما أعدتُ إنشاد البيت الآنف الذكر قال:

ـ أهلاً.. أهلاً بالحارث.. أهلاً بك في حلب.. أهـلاً.. أهلاً.. متى القدوم؟

ـ البارحة ليلاً.

ـ ستتغدى معاً هذا اليوم.

ولما حاولتُ الاعتذار لئلا أتعب عائلته بهذه السرعـة، ألحّ، فذهبتُ إليه في الحادية عشرة قبل الظهر، ولم أخرج من منزله إلاّ في الثالثة بعد الظهر!

ولكَ أن تتصوّر كم أسمعني الخليل في هذه الفترة الطويلة من قصائده الوجدانية والقومية، وكم أسمعته، وكانت معظم القصائد التي أنشدني إياها غير منشورة، ولم أكن لأعلم بأن مسّودة ديوان خليـل الهنداوي تضم هذا العدد الكبير من القصائد.

وهيهات أن أنسى قصيدته الوجدانية المؤثرة في عتاب ابنه الذي آثر الهجرة والقطيعة مع أبيه! فقد أذهلني وآلمني هذا العقوق الذي لا يمكن أن يجد له أي نوعٍ من التبرير لا سيما تجاه أب حنون كخليل الهنداوي، فهتف قلبـي من الأعماق: اللهّم أعن الآباء على تحمل ما لا يحتمل من عقوق الأبناء...

ولما أنشدته قصيدتي الوجدانية «إلى ولدي طـه» التي نظمتهـا سنة ١٩٦١ ذات المطلع التالي:

أقـبّـلُ ثـغـركَ أم أرشـفُ؟

ألـثـمُ خـدّك أم أقـطفُ

طربَ لها واهتزّ في الأعماق وقال أنها تحوي من العواطف والصور المبتكرة ما يضمن لها الخلود...

ولا أريد أن أتكلف التواضع فأقول أن الخليل قد بالغ في حسن ظنّه، لأني أعتبر هذه القصيدة من أجمل قصائدي..

وبعد الغداء، دعوتُ الهنداوي وزوجته أم كمال على العشاء في اليوم نفسه في منتزه «السبيل» حيث استأنفنا أحاديثنا الأدبية الممتعة وتناشدنا من الشّعر أعذبه وأصدقه، وبعد العشاء رجعنا من المتنزه الكائن في ضاحية حلب إلى قلب مدينة سيف الدولة مشياً على الأقدام، وهي أوّل مرة أجرّب فيها هذه المسيرة الطويلة من غير أن أشعر بالتعب!..

وفي اليوم الثاني من آب اجتمعتُ بالهنداوي في مقهى «السندباد» حيث اعتاد أن ينزوي مع نارجيلته وأوراقه ويسليّ نفسه بلعبة النرد مع أصحابه ومحبيه، فأراني دفتراً ضخماً، أنيق الورق، متين الجلد، دوّن فيه، بخطه الواضح الجميل أسماء مؤلفاته وعناوين مقالاته المنشورة وغير المنشورة، وأسماء الذين راسلوه من الأدباء، اعتباراً من العشرينات فصاعداً. وهكذا يَسَّر الخليل للباحثين عن سيرته وأدبه أمر الرجوع إلى أصدق وأوثق المصادر.

* * *

وفي صباح يومٍ مشرق متألّق، قمتُ مع الخليل بجولة ممتعة في حديقة أبي فراس الحمداني بحلب، حيث الأشجار الباسقة والخمائل المتعانقة والأزاهير الضاحكة والنافورات الملوّنة، ووجوه الحسان المتألّقة، فطاب للهنداوي أن يتحدث عن ذكرياته الأدبية، فنقلني إلى جوٍّ من

الامتاع والمؤانسة. وأخبرني انه يحتفظ برسالة من الزهاوي وانه يحتفظ برسائل للريحاني ونعيمة منذ العشرينات...

وعلمت أنه مزمع على إتمام فصول كتابه عن قصة حياته، لا سيما حياته الأدبية، فشجعته على المضي في هذا المشروع الوثائقي الهام..

ولما أزمعت على السفر، أبى إلاّ أن يخفّ لوداعي في محطة القطار بحلب، في يوم عودتي إلى العراق، بعد أن ألحّ عليّ في معرفة يوم السّفر وساعته..

والتقينا في آب ١٩٧١ عندما اصطحبتُ عائلتي إلى حلب فكنّا موضع كرم وتكريم الهنداوي وعائلته. وفتح الرجل لي قلبه الكبير كالمعتاد، وانطلقنا معاً إلى سماوات الفكر الحر ويممنا جنان الذكريات الساحرة وجلنا في رياض الشعر الزاهية.

وفي ١٨ تموز ١٩٧٣ كان لقائي الأخير مع خليل الهنداوي. فقد اتصلت بهذا اليوم هاتفياً بدار الصديق الهنداوي لأتأكد من وصوله من الشام فكلمني ابنه ثم كلمني هو ودعاني مع عائلتي لمنزله في الثامنة من مساء اليوم نفسه. فاصطحبت معي في الحقيبة زجاجة من عرق أبي سعدى استعداداً للطوارىء! واعتاد أولادي العشاء في الثامنة ولم يدر بخلدهم ولا بخلدي أن الهنداوي الذي عوّدنا على الولائم السخيّة سيكتفي بتقديم «البوضة» و«البسكويت» و«القهوة» لنا..

ولم يكتف ـ سامحه الله ـ بهذا التصرف البعيد عن الذوق والكرم وإنما أقحم في مجلسنا عائلة ثقيلة قال انها من جيرانهم فكانت الأحاديث أقرب إلى الاستجواب منها إلى الأحاديث الطبيعية بين الأحباب. ولهذا

شعرت بالضيق والقرف وشعر أولادي بوطأة الجوع فتململوا وعبّروا بنظراتهم عن واقعهم الأليم. ولما أشار عقرب الساعة إلى العاشرة شعرت أن الضرورات تبيح المحضورات ولهذا اضطررت إلى الاعتذار بعذر مختلق لأنقذ نفسي من مغبة انفجار الأعصاب وأنقذ أولادي من جوعهم وهكذا ودعنا الحاضرين وانطلقنا بسيارة إلى متنزه السبيل حيث أكلنا أشهى الزاد، وأسرفنا في الأكل لنثأر من الجوع. ولا داعي للقول بأني أسرفت في احتساء الخمرة..

بعد هذا التصرف المزعج الذي بدر من الهنداوي ـ سامحه الله ـ كانت القطيعة أمراً لا حفرّ منه. ولكني كنت ـ وأنا في أوج الغضب ـ أتوقّع منه أن يعتذر اعتذاراً صريحاً مريحاً يقشع جميع السُحُب السوداء المتلبدة في نفسي. ولكنه بدل أن يعتذر أرسل إليّ رسالة مؤرخة بتأريخ ١٩٧٤/١/١٥ يعاتبني فيها على القطيعة بأسلوبٍ ملتوٍ لا يخلو من التجاهل كقوله:

«.. أما بعد، فكيف تسيغ لنفسك هذه القطيعة، وأنتَ تعلم أن نسب الأدب فوق كل سبب. كم انتظرناك ـ أنا والأسرة، في طريق عودتك، ولكن يبدو أنك بدلت الطريق، وغيّرت الرفيق!».

وبدلاً من أن يوجه إليّ الدعوة الرسمية لحضور مهرجان تكريمه بحلب في ٢٧ آذار ١٩٧٤ فإنه يتمنىّ أن أحضره: «لقد تقرر يوم مهرجان تكريمي بحلب في ٢٧ آذار المقبل.. وليتك تستطيع أن تحضره!!!».

وفوق ذلك فقد شحن الرسالة بطلبات شخصية خاصّة لا يطلبها صديق من صديقه في حالة الغضب والقطيعة مطلقاً. فأجبته برسالة عنيفة يكفي أن أقتطف منها السطور التي رددتُ فيها على عتابه لي على القطيعة:

«.. تقول ـ يا سيّدي ـ «إن نسب الأدب فوق كل سبب». فهل يبيح نسب الأدب التقصير تجاه الصديق والتقتير نحوه وعدم الاهتمام بوجوده ومقابلته بأسلوب رسمي جاف ثم التنصّل من كل ذلك تحت ستار من التمويه..

إذا كان الأمر كذلك ـ يا سيّدي ـ فأنا بريء اعتباراً من هذه اللحظة من الأدب والأدباء ومن نسبتي إليه وإليهم».

* * *

والظاهر أن عنف الجواب حال بينه وبين الاعتذار المطلوب وأرغمه على الإيمان بالقطيعة، فواصل سكوته وواصلت سكوتي أن سمعتُ بنعيه(١) فأسفتُ على فقده وأسفتُ على القطيعة وتناسيت المزعجات وتذكرت أبهج أيامنا وأحلاها. رحمه الله.

□ □ □

(١) توفاه الله في ٩ حزيران ١٩٧٦.

مع الشيخ محمد رضا الشبيبي

لا أنسى قصيدة «الشبيبي»: «أنتمُ متّعتُم بالسؤددِ» التي وقفتُ عليها لأول مرّة قبل أكثر من ثلاثين سنة على مقاعد الدراسة الإبتدائية. وقد كانت تطربني وتهزني وتفعل بي فعل السحر. وهي التي ألهمتني، وأنا طريّ العود، حب الوحدة الوطنية وعشق الوحدة العربية. ولم يكن صاحب هذه القصيدة، بالغريب عليّ. فقد كنتُ أراه في بيتنا في مجلس المرحوم والدي، فأرى الرزانة مجتمعة في تقاطيع وجهه الأسمر المشرّب بالحمرة، ذي الأنف الأقنى والعينين السوداوين الواسعتين الحالمتين والفم الواسع ذي الشفة السفلى البارزة واللحية الخفيفة التي اشتبك بياضها الكثيف بسوادها الخفيف. أما عمامته البيضاء فقد كانت تزيد جبهته العريضة البارزة، هيبةً.

ودارت الأيام وانطوت سنون، وإذا بالشبيبي يزور مكتبة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٧ وكنتُ، يومئذٍ، أميناً لها. وأذكر أن بداية الحديث كانت عن «أمين الريحاني» وكتابه «قلب العراق» وكان البرت الريحاني ــ شقيق أمين ــ قد كلّف الشيخ الشبيبي بكتابة مقدمة طبعته الثانية المنقحة، فحدّثني الشبيبي عن مزايا صديقه الريحاني وأبدى إعجابه بأسلوبه دون لغته، وطلب منيّ أن أعيره كتاب «قلب لبنان» لأمين الريحاني من مكتبتي الخاصة، فأعرته إياه بكل سرور..

* * *

ـ ما قولك بينبوع الماء الذي يواصل العابثون رجمه بالحجارة لمدة تزيد على ربع القرن، ألا ينقطع عن التدفق؟ ألا ينضب؟ ـ هذا هو حالي مع الشعر، فأحداث العراق الجسيمة وظروفه القاسية لم تدع لي مجالاً أو مزاجاً لنظم الشعر. . .

واستمر الشيخ الشبيبي في زياراته للمجمع العلمي بعد انتقال المجمع من شارع الزهاوي إلى الوزيرية. وسألته ذات مرّة:

ـ لماذا هجرتَ القريض؟

ثم أردف مستشهداً ببيت من لاميته الشهيرة:

من الحق جس الشعـر إلاّ لغـايـة

تـفـرّق فيـهـا بـيـن حقٍ وبـاطـلِ

وخلال رئاسة الشبيبي للمجمع العلمي العراقي (١٩٦٣ ـ ١٩٦٥) كان يطيب له أن يملي عليّ بعض مقالاته من دفتر مسوّداته الخاص. وأذكر انه أملى عليّ بتأريخ ١٨ كانون الثاني ١٩٦٥ مقاله القومي الرائع «وشائج القربى بين مصر والعراق» الذي أثبت فيه الخصائص المشتركة بين القطرين العربيين الشقيقين من النواحي الجغرافية ومن ناحية تشابه أبناء مصر والعراق بالملامح والسحنات ومقاطع الأعضاء، وحتى الأمزجة!

وأملى عليّ، على اثر وفاة صديقه المرحوم الأستاذ أحمد لطفي السيد رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ذكرياته عنه، التي دونها في دفتر مذكراته على شكل يوميّات، وبينما كنت منهمكاً بتدوين ما يمليه عليّ الشيخ، رنّ جرس الهاتف وإذا بالمتكلم الأستاذ حسنين ـ أستاذ

الصحافة في كلية الآداب بجامعة بغداد، يومئذٍ، وكان مراسلاً لمجلّة «بناء الوطن» المصرية، ورجا الشيخ الشبيبي أن يأذن له بزيارته في المجمع بعد دقائق، ليطرح عليه بعض الأسئلة الثقافية التي ستنشر أجوبتها المجلة المذكورة.

وجاء حسنين فهممتُ بمغادرة الغرفة كما يقتضي الحال، فمسكني الشيخ الشبيبي من يدي وأصرَّ على بقائي، فامتثلتُ لرغبته..

وكان أحرج سؤال وجهه حسنين إلى الشبيبي هو:

ـ ما رأيكم بكتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين؟

ووجه الأحراج ما أثاره هذا الكتاب من ضجة كبرى على صدوره سنة ١٩٢٦ لتعرّضه إلى بعض الأمور المتعلّقة بالقرآن الكريم بشكلٍ يثير بعض الحساسيّات الدينية مما أغضب بعض رجال الدين في مصر وقت صدوره فتعرّض مؤلفه لمتاعب كثيرة..

كان صديقه «طه حسين» يومئذٍ رئيساً لمجمع اللغة العربية، فإذا قال الشيخ الحقيقة بحق كتاب صديقه أغضب طه، وإذا لم يقلها أغضب الحقيقة، لقد تركه حسنين بين هذين الخيارين الصعبين. فاحتدمت أعصابه وشبك كفيه محاولاً أن يعصر انفعاله بهما. وكدتُ أن أكون فضولياً إذ حدّثتني نفسي أن أرجو من الأستاذ حسنين أن يسحب سؤاله لما فيه من إحراج وإزعاج للشيخ، ولم يدر بخلدي أن شيخنا سيتخلّص من هذا الإحراج بجوابٍ مفحمٍ لا يخطر على بال أحد. فقد أجاب بكل بساطة وهدوء:

ـ لم أقرأ هذا الكتاب..

فاندهش حسنين، وفغرَ فاه، وكاد أن ينهض من كرسيه لفرط عجبه وقال:

– وكيف لم يقرأ أستاذنا الشبيبي هذا الكتاب؟

– ليس من المفروض فيّ أن أقرأ جميع مؤلفات طه حسين... أما المؤلفات التي قرأتها لطّه فتدلّ على غزارة علمه وجمال أسلوبه الأخّاذ..

□ □ □

مع رفائيل بطي

في أواخر الثلاثينات سمعتُ باسمه كصحافي وأديب كبير يرأس تحرير جريدة «البلاد» الذائعة الصيت. ورأيته يتردّد على مجلس المرحوم والدي في مستهل الأربعينات. وشُغفتُ، في أواسط الأربعينات بكتابه «الأدب العصري في العراق العربي» الذي أهدى نسخة منه إلى أستاذه طه الراوي كتب عليها العبارة التالية التي تدلّ على احترامه الصادق لأستاذه: «إلى أستاذي العظيم طه الراوي».

واختطف الموت أستاذه في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦ وكان رفائيل يمارس العمل الصحفي في الكنانة فكتب مقالاً عنوانه «مات أستاذ الأدب في العراق» نشرته له جريدة «الأسبوع» القاهرية وأعادت نشره جريدته «البلاد» في بغداد فكان له صدى وأيّ صدى في نفوسنا ونفوس محبي الأستاذ الراحل.

وكنت متلهفاً أشدّ التلهّف للاجتماع برفائيل والتحدث إليه، إلى أن عاد إلى العراق سنة ١٩٤٨ على اثر الوثبة القومية الكبرى التي وثبها الشعب العراقي بإطاحته بحكومة صالح جبر التي فشلت مرغمة، في عقد معاهدة «بورت سموث» السيئة الصيت مع الجانب الإنكليزي المستعمر..

* * *

نزل رفائيل، عند رجوعه من مصر في منزل أخيه سليم بطي في شارع الجسر الحديدي للقطار في الوقت الحاضر بمحلة العيواضية من جانب الرصافة، فذهبت للسلام عليه، والتقيتُ عنده بالشاعر المرحوم عدنان الراوي. وقد أطلعته على رسالة كانت قد وردتني من الأستاذ ميخائيل نعيمة فاستحسنها وأثنى على نعيمة. ورنَّ جرسُ الهاتف فخفَّ رفائيل إليه، والظاهر أن المتحدث كان يخبره بقرب استيزاره في الوزارة التي أعقبت وزارة صالح جبر، بدليل أن رفائيل بطي أجابه قائلاً:

ــ أقبل الاستيزار، ولكن على مبادىء الوثبة فقط ولن أحيد عنها...

* * *

ولما أتممتُ دراستي الثانوية في أواخر الأربعينات زرتُ رفائيل في مسكنه بالكرادة الشرقية فحبّذ لي مواصلة دراستي العالية في باريس لأطّلع اطلاعاً واسعاً على الأدب الفرنسي باللغة الفرنسيـة على أن أصطحب معي نسخة من القرآن الكريم لأكون على صلة وثيقة باللغة العربية وأرفع أساليبها فسألته قائلاً:

ــ وكيف أتعلّم الفرنسية وأنا لا أعرف حرفاً منها.

ــ تستطيع ببساطة أن تصادق شابة فرنسية، وانشدادك إليها يعلّمك لغتها بكل يُسر...

ولكن الحظ اللعين دفعني إلى كلية الحقوق لأتخرّج محامياً ثم موظفاً... ولو عاد إليّ شبابـي، لعملت برأي الأستاذ رفائيل بطي لأنه يحقق مطامح ذاتي الحقيقية..

وكان رفائيل يؤمن بالتخصّص وضرورة الإبداع في الميدان الذي يعمل فيه الإنسان، وأذكر أنه قال لأخي الأكبر هاشم، وهو من رجال القانون المعروفين:

ـ لا يكفي يا هاشم أن تجيد فهم القانون وتحسن تطبيقه في المحاماة، بل عليك أن تتوسع فيه وتؤلف كتباً ذات قيمة في الميدان القانوني..

إن أخاك حارث، رغم دراسته القانونية، قد انصرف للأدب وتخصّص بالأدب الحديث، فعرف طريقه، وهو في مجاله من المبدعين، فيجب أن تتخصّص وتبدع في الميدان الذي أنت فيه...

* * *

وفي أيلول ١٩٥٤ دعيتُ مع رفائيل بطّي ومصطفى جواد وآخرين لحضور مؤتمر الأدباء العرب في بيت مري بلبنان. وقد استقطبت شخصيّة رفائيل الجذّابة ونفسيته الشفّافة بعض الحسناوات الشابات في المؤتمر وهو يذوب رقّةً معهنّ، ولكن علاقته مع حوّاء، تبقى محدودة بحدود الخوان والكراسي، ويبقى رفائيل ذلك الرجل الرزين الوقور العفيف، رغم خفّة روحه وطراوة أحاديثه ونكاته..

وأذكر أن الأستاذ خالد الساكت عضو وفد الأردن استلطف إحدى فاتنات المؤتمر ففتح لها قلبه، وكان يحدّثني عمّا يلقاه من حبّه الوليد وأحدّثه عن حبيبي الهارب البعيد..

وفي ذات يوم وجدته قلقاً يبحث عن فاتنته في زوايا الفندق وما أكثرها، ولما شاركته بالبحث عنها وجدناها بالقرب من رفائيل بطي وقد استرسلا في حديث ممتع.. فقلت لخالد جاداً لا مازحاً:

ـ دعني أصارح رفائيل بعلاقتك الروحية بالفتاة وبوضعك النفسي الناجم عن هذه العلاقة...

وكنتُ أتوقع، بعد هذه المفاجأة غير السّارة لمثله ـ أن يشجعني على مفاتحة رفائيل بذلك، ولكن اعتزازه برفائيل كان أكبر من حبه، فقد أجابني قائلاً:

ـ لا. لن أغار من هذا الرجل النبيل، ولا مانع عندي من أن يدفن شيخوخته في هذا الحديث الشيق مع هذه الحسناء!..

لقد صدق الساكت فرفائيل بطّي كان رجلاً نبيلاً، وله في مجال النبل أكثر من موقف أذكر منها الموقف التالي الذي شهدته بنفسي:

على اثر صدور ديوان «أباريق مهشمة» للصديق الشاعر عبدالوهاب البياتي سنة ١٩٥٤ أهداني البياتي نسخة منه، فقرأته بإمعان فما راقني منه أن يقحم التعابير النثرية في الشعر بحجّة الواقعية، فضلاً عن سلبيات أخرى وجدتها في هذا الديوان الذي لا يخلو من الإيجابيات فكتبتُ بقلمي الصريح عنه مقالاً ذكرت فيه ما للديوان وما عليه، وآثرت نشر المقال في الصفحة الأدبية من جريدة «البلاد» فذهبتُ إلى إدارة الجريدة وقابلت رفائيل بطي فاستقبلني هاشّاً باشّاً كعادته، فسلّمته المقال المتدثّر بغلافه وقلتُ له:

ـ هذا مقال عن ديوان البياتي الأخير «أباريق مهشمة».

ـ سينشر غداً في الصفحة الأدبية.

فشكرته وودعته وانصرفت وما كدت أخطو خطوتين حتى ناداني رحمه الله قائلاً:

ـ نسيت أن أسألك: هل المقال مع عبدالوهاب أم عليه؟

ـ لا معه ولا عليه. انه يعرض سلبيات شعره وإيجابياته.

ـ أيهما أكثر؟

ـ السلبيّات.

ـ اعذرني إذن. وهاك المقال. لأني لن أنشر في جريدتي ما يغضب البياتي ذلك لأنه كان زميلي في حزب الاستقلال، ثم اتجه نحو اليسار، وهو اليوم مفصول من وظيفته. وأنا صاحب جريدة ووضعي المالي جيّد، فإذا نشرت أي مقال يزعجه فمعنى ذلك أني أتنكر لصداقة وزمالة قديمة. ورغم اختلافي الفكري مع الرجل فسأبقى أحترم قديم الاخاء...

وهكذا ألقى عليّ رفائيل بطي درساً في النبل لن أنساه...

* * *

وفي سنة ١٩٥٥ زرتُ الأستاذ رفائيل بطي في منزله بالكرادة الشرقية مع الأستاذ أميل جبر ضومط. وبين الأستاذين صداقة قديمة ترجع إلى العشرينات يوم جاء أميل للتدريس في العراق. ودار الحديث عن ميخائيل نعيمة ـ صديق أميل الحميم ـ وكتابه عن «جبران خليل جبران» فأثنى رفائيل على ميخائيل نعيمة وأثنى على كتابه بقوله:

ـ لا يوجد له نظير في الأدب العربـي.

فاستدرك أميل ضومط قائلاً:

ـ وفي الآداب الأوروبية (كمان)...

فاعترض رفائيل على رأي أميل وقال انه قرأ كثيراً من كتب التراجم بالفرنسية والإنكليزية بمستوى كتاب نعيمة المشار إليه أو أرفع من مستواه..

وبعد أحاديث لا أتذكرها سأل رفائيل صديقه أميل:

- لماذا لم تتزوج يا أستاذ؟

- أنا مرتاح بعزوبتي المنسجمة مع رسالتي الروحية في الحياة..

يشير أميل بذلك إلى نزعة التصوُّف عنده التي تتعارض مع شهوات الجسد، فلم يقنع رفائيل بهذا التعليل فقال:

- إن تكاليف الزواج وتكوين الأسرة، باهظة..

وكانت طفلة رفائيل «ايزيس» تلعب بالقرب من أبيها فناداها أبوها وأشار إلى ثوبها الأزرق الجميل وإلى حذائها المترف، وقال موجهاً سؤاله لأميل:

- بكم تتصور هذا الثوب الصغير؟ وبكم تتصور هذا الحذاء الصغير؟

وذكر رفائيل ثمناً كبيراً لهما لا أتذكر مقداره، للتدليل على تكاليف ربّ العائلة..

والأستاذ رفائيل بطي حريص كل الحرص على تشجيع شعراء الشباب، فهو الذي كتب مقدمة ديوان «أزهار ذابلة» للشاعر المرحوم بدر شاكر السيّاب، وهو الذي طلب مني أن أجمعه بالشاعر المرحوم شاذل طاقة في بداية الخمسينات على أثر صدور ديوانه «المساء الأخير».

وهو الذي وعدني بكتابة مقدمة لديواني المخطوط الذي سميته في حينه «قوافل الذكريات» وطلب مني أن أزوّده بمسوّدات الطبع لأن من عادته أن يكتب المقدمات على اثر اطلاعه على مسودات الطبع، ولكن ظروفي المالية آنذاك حالت دون تحقيق هذه الأمنية.

* * *

وفي العاشر من نيسان ١٩٥٦ رزءتُ ورزيء الأدب العربي بفقد رفائيل بطي. وقد حضرت مراسيم تشييعه، وتذكرتُ وأنا أتطلّع إلى نعشه، مواقفه الوطنية وسجنه سنة ١٩٣٠ على اثر مهاجمته للمعاهدة العراقية البريطانية الجائرة ومواقفه المشرّفة مع أصدقائه فبكيت بحرقة. وكنت قد أعددت كلمة بعنوان «من أعلام الحرية» لألقيها على قبره في اليوم المذكور، ولكن كثرة الخطباء وعتمة الغروب حالا دون تمكني من القائها، فاكتفيت بنشرها في جريدة «البلاد». رحمه الله.

□ □ □

مع سامي الكيّالي

رأيت مجلة «الحديث» الحلبيّة وقرأتها لأوّل مرة في حياتي سنة ١٩٤٤. وكان العدد مخصصاً لأبي العلاء المعرّي بمناسبة مهرجانه الألفي الذي احتفلت به سورية آنذاك. واستهوتني «الحديث» بنزعتها الأدبية المنطلقة إلى التجديد الرّصين. ومنذ ذلك التاريخ بدأتُ أتتبّع المجلّة وما ينشر فيها.

وبعد عشرة أعوام من اطلاعي الأول على «الحديث» شاءت الأيام أن ألتقي بصاحبها الأستاذ الكيالي في مؤتمر الأدباء العرب الأول الذي انعقد ببيت مري بلبنان سنة ١٩٥٤.

كان الرجل في الستين أو دونها بقليل كما تدلّ سماته. حنطاوي الوجه. وأبرز ما في وجهه عيناه العسليتان الواسعتان المشعتان. وأحلى ما في وجهه ذي الشارب الحليق والأنف المدبب والفم الصغير ذي الشفتين الرقيقتين، الابتسامة العذبة ذات الألق المتوهج الذي يجذب القلوب والأرواح...

يتمتع سامي الكيالي بنفسٍ شفّافة، مرحة، لا تعرف التكلّف والتصنّع وما إلى ذلك من سخافات النفوس المعقدة التي ابتلي بها المجتمع البشري..

يتحدّث، فيتدفق بصورة طبيعية، ويتشعب عنده الحديث فينقلك بلباقته وظرفه من روضةٍ غنّاء إلى مرج لا حدّ لروعته وبهائه..

ولا أنسى تلك الليلة البيضاء... ليلة ٢٦ أيلول ١٩٥٤ التي جمعتني بهذا الأديب الحبيب والأساتذة جورج ليان ورفائيل بطي ويوسف غصّوب رحمهم الله، في سيارة واحدة اتجهت بنا إلى قرية «الفريكة» لنلبـي دعوة الصديق البرت الريحاني شقيق أمين الريحاني، فكان سامي في السيّارة، طوال الطريق، صاحب الحديث الأجمل والأروع..

ودارت الأيام، فالتقيتُ بسامي الكيالي في بغداد سنة ١٩٦٢ أثناء الاحتفالات بمهرجان بغداد والكندي فلمستُ منه طيبة وبساطة وتواضع الرجل العظيم. ولا يسعني إلاّ أن أسجّل له الموقف المشرّف التالي للذكرى وللتاريخ: فقد زارني أثناء وجود الكيالي ببغداد الصديق الشاعر المرحوم أنور العطار بمقر عملي في مكتبة المجمع العلمي العراقي وبصحبته الأستاذ سعيد الأفغاني فدعوتهما على الشاي في بيتي في مساء اليوم نفسه وأخبرتهما بأني سأدعو الصديق الشاعر حافظ جميل أيضاً والصديق الدكتور قنبر الطويل أيضاً فحاول العطّار التنصّل من تلبية الدعوة بأعذار واهية يشاركه فيها الأستاذ سعيد الأفغاني لأسباب أجهلها، فتركتهما وشأنهما آسفاً على هذا الأسلوب الذي لا يليق بصديق كالعطّار ـ أما الأفغاني فمعذور لعدم وجود أية صداقة أو رابطة روحية تربطني به.!.

وفي المساء اتصلت هاتفياً بالأستاذ سامي الكيالي، ولم أكد أخبره بالدعوة وبمكان منزلنا حتى جاء مسرعاً مشرق الوجه هاشاً باشاً كعادته فعانقته وتعانق مع حافظ جميل..

وبينما نحن في نشوة اللقاء وإذا بجرس الباب يقرع وكان القادمان: أنور العطار وسعيد الأفغاني! وأين زيارة الاضطرار من زيارة الاختيار؟ ولَم الاضطرار وليس بين الحضور إلاّ الأديب المعروف والشاعر المحلّق. ورحم الله القائل:

وفـرحــةُ الأديــبِ بــالأديــب
كـفـرحــة الـحـبـيـبِ بـالـحـبـيـبِ

وغرّد بلبل دجلة حافظ جميل فكاد سامي الكيالي يطير طرباً وكان أوّل المعجبين والمصفقين، وكان على بلبل بردى أنور العطّار أن يغرّد كما يقتضي الموقف وكما توجب المجاملة على أقل تقدير، ولكنه اعتذر بعذر أوهى من عذره السابق وهو أنه لا يحفظ شعره! فتأمّل!..

وفي زياراتي إلى حلب خلال صيف السنين: ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ و ١٩٧٣ التقيت أكثر من مرّة بهذا الأديب الصديق المحبوب وزرته مرتين في شقته المطلة على «سوق الإنتاج» الذي كان يطلق عليه ـ رحمه الله ـ مازحاً اسم «سوق الإزعاج» لما ينبعث منه من موسيقى صاخبة متواصلة تمزّق الأعصاب..

كانت شقته أنيقة، نظيفة، وكانت مكتبته المتوسطة الحجم عامرة بالكتب الجيدة، وقد حدّثني عن مشروعه في تأليف كتاب عن الأدب العراقي. وتحدثنا عن الغناء والطرب في حلب فقال لي:

ـ إن حلب مدينة عريقة في المحافظة على أصول الغناء العربي وفيها جماعة المختصين الماهرين بضبط المقام العربي وتحديد طبقات أصوات المغنين ولهم حق إجازة أيّ مغن أو مغنية في عالمنا العربي بعد

امتحان دقيق لا مجاملة فيه. وقد اجتاز هذا الامتحان محمد عبدالوهاب وأم كلثوم.

وواصل كلامه ضاحكاً:

ــ وأما فريد الأطرش فقد سقط في الامتحان!

وقال لي ــ رحمه الله ــ أنه روى ذلك في مجلس يضم محمد عبدالوهاب وسعيد فريحة وشخص ثالث لا يعرفه من قبل. فضحك عبدالوهاب كثيراً ثم أسرّ في أذن الكيالي بألّا يتمادى في التعريض بفريد الأطرش لأن الشخص الذي لا يعرفه الكيالي هو من أقارب المرحوم فريد!..

وفي صيف ١٩٧٠ دعاني المرحوم خليل الهنداوي لقضاء السهرة في شرفة شقته. ولم أكد أذكر المرحوم الكيالي حتى قال الهنداوي بأنه سيتصل به هاتفياً ويدعوه لسهرتنا بمناسبة وجودي عند الهنداوي، ونهض الهنداوي واتصل بالكيالي الذي سُرّ بهذه الدعوة ورحّب بها وجاء مسرعاً ليزين مجلسنا الأدبي برواياته الطريفة، وأحاديثه الطريفة ونكاته المستملحة..

وأخبرت الصديقين بعزمي على زيارة لبنان والعودة إلى حلب التي عن طريقها سأرجع إلى بغداد. ولكن وباء الكوليرا الذي ظهر في سورية في ذلك الصيف حال بيني وبين العودة إلى بغداد عن طريق حلب فعدتُ عن طريق دمشق، وأرسلتُ رسالة إلى الأستاذ الكيالي من بغداد معتذراً عن عدم تمكني من العودة إلى حلب، فأجابني بالرسالة التالية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على صدق محبته وعذوبة روحه:

حلب: ١٩٧٠/٨/٣٠

الأديب الشاعر الأستاذ حارث،

تحيّة الودّ والمحبّة والتقدير لمواهبكَ المشعّة، وبعد فقد أنستُ برسالتك كل الأنس، ووددتُ مخلصاً أن لا يشوبها خلفك بالوعد وأنتَ الحريص على الوفاء بكل مظاهره. لقد وعدتنا أن تعود إلى المدينة التي أحببتها وأن تقضي معنا عدة أيام قبل العودة، وأخبرني الأخ عبدالله أنكَ وعدته بذلك.. وانتظرنا إلى أن حمل البريد رهيف صوتك من بغداد فأسف الاخوان لهذه المفاجأة غير المنتظرة، وعهدي بكَ أنكَ لا تخلف الوعد، ولعلّ ظروفاً أقسرتك إلى العودة من دمشق..

أشكركَ على صدق عواطفك وأرجو أن تسمح الظروف بزيارة العراق العزيز لتحقيق فكرة كتابي عن الأدب العراقي، فالمشروع لا يزال قائمًا، وهو فكرة لا تزال تختلج في النفس، وآمل أن أحققها وأترجمها على الورق، فرأيي في الأدب العراقي إنه أدب عريق، يتميز بالأصالة والجدّة معاً، وهو معبّر أصدق تعبير عن الخصائص العربية المتميزة، إلى لون من التجديد الذي يتجاوب مع نزعات العصر، وقد خطا خلال السنوات التي مرّت بين الحربين، خطوات جريئة، وصدرت كتب ورسائل على جانب كبير من القيمة الأدبية، وفي نفسي الكثير من الخلجات أريد أن أبسطها بتوسّع، ولا أعلم متى سيحين هذا الوقت.. أن المشروع ضخم وقد أستعين بالكثيرين من إخواني، ولا سيما وبعضهم قد سجّل هذه الظواهر بدراسات ستكون مرجعي.. وسألتقي بهم جميعاً وكلّهم رمز الوفاء وسلامة الأدب.

وختاماً أرجو أن تبلّغ الأخ العزيز الشاعر العظيم الأستاذ حافظ

جميل أخلص ما أكنه له من ود وحب وتقدير، متعه الله بأجمل صحّة، ولا تنسَ بقية الإخوان ودمت لمحبك المخلص.

سامي الكيّالي

وكان آخر لقاء لي بالكيالي خلال شهر آب ١٩٧٣ في قرية «عنجر» اللبنانية وكنتُ قد ذهبت إليها مع العائلة للترويح عن النفس وتركتُ خبراً في فندق قاصوف في «شتورة» حيث أقيم بأن وجهتي إلى «عنجر». وبينما كنا نتحدث في مطعم السمك الشهير في عنجر إذا بزوجتي تقول لي منبهة: ــ لقد جاء الشاعر القروي..

فالتفتّ وإذا بالشاعر القروي وسامي الكيالي ووديع ديب وشخص آخر لا أعرفه. وبعد العناق وبث الأشواق علمتُ منهم انهم قد تفضلوا بزيارتي في الفندق وتركوا لي بطاقة هناك وعلموا من إدارة الفندق بوجودي في عنجر فجاءوا مشتاقين.

كان سامي متعباً وعلائم الشيخوخة واضحة على قسماته وحركاته. أما حديثه فذاك الحديث الطريّ الطلي الشهيّ الذي لا يُمل ــ وجاء ذكر صديقنا أديب العراق أحمد حامد الصرّاف فسأل الكيالي القروي:

ــ هل رأيتَ الصرّاف في بغداد؟

ــ كلا.

ــ لقد فاتتك فرصة ثمينة. فهو اعجوبة الكون!...

وبعد الغداء نهضنا للوداع، فكان الوداع الأخير بالنسبة للكيالي.

رحمه الله.

□ □ □

مع ألبير أديب

في صباح اليوم الحادي عشر من آب ١٩٦٦ اتصلت هـاتفياً بالصديق «ألبير أديب» صاحب مجلة «الأديب» البيروتية الغرّاء. ثم زرته في منزله بعد ساعة، فدار الحديث حول جهاده الأدبـي في مجلته خلال ربع قرن. وأوضح الأستاذ أن المؤسسات الرسمية ما تزال تحجم عن مساعدته، وتحدَّث عن المساعدة التي يمكن أن يبديها أدباء العراق لمجلتهم «الأديب» التي احتضنت نتاجهم طوال هذه المدّة الطويلة.. إلى غير ذلك من الأحاديث التي دارت حول محور الأدب والأدباء..

وأذكر أني قلت للأستاذ ألبير أديب حول بعض التراجم الأدبية التي تنشر في مجلته: كيف يجيز بعض كُتّاب التراجم لأنفسهم أخذ الروايات المختلقة من أفواه الذين يترجمون لهم، من غير أن يمحصوا هذه الروايات ويتثبتوا من صحتها، وهل يصح أن أقول أن ألبير أديب كان يحرّر في مجلة «الضياء» للمرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي الذي توفي عام ١٩٠٦ أي قبل أن يولد ألبير أديب؟!

فابتسم الرجل الرزين وقال: ألا تعرف أن بعض الكتّاب قد امتهنوا مهنة التهويل والمبالغة والتبخير. وهؤلاء أعجز من أن يخدعوا القرّاء..

لقد كان حديث هذا الأديب والصحافي الكبير شهيّاً، مرصعاً

بالتجارب الصادقة، كعادته، وبالرغم من أني أنفقتُ ساعة أو أكثر عند صاحب هذا الحديث الممتع فإنه لم يقدم لي سائلاً من السوائل التي تقدم عادة للزائرين. . حتى ولو كانت كأس ماء! ولما تذكرت أنه فرض الصيام عليّ أيضاً عندما زرته في العام الماضي، أيقنت أنه يكتفي بفنجان القهوة الروحية الذي يقدمه لأصدقائه ومحبيه من الزوّار. .

□ □ □

مع أحمد السقاف

التقيت بشاعر الكويت وأديبها الأستاذ أحمد السقّاف، لأول مرة، قبل ربع قرن، عندما زار بغداد سنة ١٩٥٧. فقد اتصل صديقه الأخ الأستاذ فالح القصّاب بـي هاتفياً ودعاني مع العائلة إلى وليمة عشاء عائلية في داره وقال لي أن أديب الكويت الأستاذ أحمد السقّاف يريد أن يراني، فلبيت الدعوة مع العائلة، وكان الأستاذ السقّاف مع عائلته الكريمة. ولاحظت أن الأستاذ السقاف كان متواضعاً وصريحاً وودوداً، فدخل قلبـي منذ ذلك التأريخ وما يزال فيه حتى الآن..

وعلمتُ من أبـي أسامة خلال ذاك اللقاء أن في نية المسؤولين في الكويت إصدار مجلة راقية باسم «الخليج العربـي» أو «العربـي» وهم يبحثون لها عن رئيس تحرير، وقد طرح الرجل على المسؤولين هناك اسمين لاختيار أحدهما لهذه المهمة الأدبية العلمية الثقافية الكبرى هما العلاّمة فؤاد صرّوف والعلاّمة أحمد زكي، فهنأته على حسن اختياره وأخبرته أن المفاضلة بين هذين العالمين الكبيرين ليست باليسيرة...

وسألني الأستاذ السقاف قائلاً:

ـ هل لديك مانع في أن تكون مساعداً لرئيس التحرير أو مديراً للتحرير؟

ـ لا مانع لديّ إذا بقيت في وظيفتي كأمين لمكتبة المجمع العلمي العراقي..

ـ العمل في المجلة يتطلب أن تكون في الكويت..

ـ كيف أترك وظيفتي ولم يمض عليّ فيها سوى سنتين، وبيني وبين التقاعد سنين عديدة؟!

ـ سيكون راتبك في المجلة ضخمًا جدّاً يعوّضك عما تفقده..

وفكرتُ ثم اعتذرت، وصدرت مجلة «العربي» وكان رئيس تحريرها الدكتور أحمد زكي رحمه الله، وكان الفضل لأبي أسامة في اختياره لهذه المهمة التي اضطلع بها على أفضل وجه..

وغادر الأستاذ السقّاف العراق وأنا أتتبّع أخباره وأتمنىّ لهذا الرجل الأديب الذي يقدّر أهل العلم والأدب كل خير وتوفيق، ولكننا لم نتراسل، حتى إذا جاءت سنة ١٩٦٤ ووصل بغداد عدد نيسان من مجلة «العربي» قرأتُ لشاعرنا السقاف قصيدة غزلية وجدانية رائعة تحت عنوان «لَم الهجر والصد» هذا نصّها:

يا حبيبي قل لي لمَ الهجر والصّدْ
وأنا في هواكَ باكٍ مسهّدْ

أنتَ عندي كل الحياة وانّي
قسماً ما أسأتُ والله يشهدْ

إن يكن قد أتاكَ عنّي كلام
فكلام الوشاة زورٌ مفنّدْ

أنتَ في ناظري أعزّ من النو
ر وأنتَ النعيم بل أنتَ أزيدْ

كيف ترضى لي العذاب فقلبي
في همومٍ والفكر مني مشرّدْ

وطعامي قد عفتُه ومنامي
لم أذقه، وكل عيشي منكّدْ

وعلى العكس أنتَ في كل يومٍ
نزهةٍ حلوةٌ وحال مجدّدْ

أيّ ذنبٍ جنيتُ حتى أجازي
ـ بأبي أنتَ ـ بالشقاء المؤبّدْ

سائل الشارع الذي فيه دار
أنتَ فيها على الجميع مُسوّدْ

كم حواني أطوف حولك حتى
خالني ناسكاً أتى يتعبّدْ

رقّ لي، بالذي براكَ من الحسـ
ـنِ وسوّاكَ فرقداً أيّ فرقدْ

بالقوام الرشيقِ، بالبسمة الزهـ
ـراء بالناعسين، بالثغر، بالخدّ

ولما كنتُ، في تلك الأيام، أعاني ما أعاني من أزمة الصد والهجران، فقد عارضتُ قصيدة أبي أسامة بقصيدة من البحر نفسه والقافية نفسها، أما فكرة القصيدة فمناقضة لفكرة السقّاف لأنها لا تعدو أن تكون «ثورة عاشق» في حين أن قصيدة السقّاف يصح أن تسمّى «ابتهالات عاشق». وقد أطلقتُ على قصيدتي اسم «نصيحة» ويا ليتني نصحتُ نفسي بها قبل أن أنصح بها صديقي العاشق.. قلتُ ـ سامحني الله ـ:

لا تقل للحبيبِ: أسرفتَ في الصدْ
أيها العاشق الوفيّ المسهّدْ

لا تعاتبْ إذا استطعت سلوّاً
واحذر الحبَّ، انه يتجدّدُ

لا يصدّ الحبيب إلّا لأمرٍ
فاعرف السرَّ قبل أن تتعبّدْ

ربما ذبتَ من حنانٍ وشوقٍ
وتهاويتَ كالهشيم المبدّدْ

وتوهمتَ أن حالكَ هذا
يستثيرُ الوفاءَ في قلب من صَدْ

لن يعود الوفاء بعد رحيلٍ
فغياب الوفاء دوماً مؤبّدْ

ربّما حنَّ نحو صبٍ جديدٍ
وترامى يقبّلُ الكفَّ والخدْ

لا تقل: كيف؟.. لا أصدق هذا
وافتح العين جيداً وتأكده

أيها العاشق المولّه أقصر
إن (رؤيا) الوفاء لا تتجسّدْ

قد أتيح الفضاء، حلّق بعيداً
أيها الطائر السجين المصفّدْ

وتنقّل من زهرةٍ نحو أخرى
قبل أن ينضب الشباب وينفدْ

لقّن الهاجر المغامر درساً
ليس ينساه، دون أن تترددْ

* * *

والتقيت بأبي أسامة في بغداد لقاءات عديدة في الستينات والسبعينات خلال المؤتمرات الأدبية التي مثل فيها السقّاف الكويت، وأخذنا نستعيد ذكريات الخمسينات الجميلة..

وفي أواسط شباط ١٩٨٠ ذهبتُ مع زوجتي إلى الكويت للراحة والاستشفاء، وقد زرتُ الصديق العزيز في مكتبه ببناية الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي، وكان ولم يزل عضواً منتدباً في هذه الهيئة

فتعانقنا وأخذنا نستعيد ذكرياتنا الجميلة..، ولما علم بمرضي تألّم كثيراً وأشار علي بمراجعة طبيبٍ مختص بأمراض الأنف والأذن يعرفه ويعرض حذقه في هذا المجال، وقد تفضل بكتابة رسالة معطرة إليه رجاه فيها أن يبذل عناية خاصة بي، فلبى الطبيب الرجاء على أفضل وجه، فشفيت بالبلسمين: الوفاء والدواء..

ولما ودعتُ الكويت عائداً إلى بغداد في ١٩٨٠/٢/١٧ أرسلتُ إلى السقّاف من الكويت الرسالة التالية:

أخي الحبيب الأديب الشاعر الكبير الأستاذ أحمد السقّاف حفظه الله وأعزّه.

يا أبا أسامة،

يا هزار الخليج،

يا شقيق الروح،

لا يسعني، وأنا أغادر الكويت الشقيق إلاّ أن أطيل في العناق وألجّ في القبل وأسكب دموع السرور التي سكبها أستاذنا شاعر النيل حافظ إبراهيم في المجمع العلمي العربي بدمشق عندما شكر صنيع إخوانه في المجمع بقوله:

شكرتُ جميل صنعكم بدمعي
ودمع العين مقياس الشعور

لأوّل مرّة قد ذاق جفني
ـ على ما ذاقه ـ دمع السرور

إن بلداً من أبنائه أحمد السقّاف يعزّ عليّ فراقه وتطيب لي الاقامة فيه ما شاء الله. فقد لمستُ من لطفك وكرمك ولمست أم طه من أختها أم أسامة من اللطف والكرم ما يعجز البيان عن تصويره..

ألا قاتل الله كل شيطان، حتى شيطان الشعر، إذ كيف لا يستحق اللعنة والموت وقد جاءني البارحة بأبيات خمسة في مجالٍ لا أرضى فيه بالخمسين.. فاعذر أخاكَ والعن شيطانه..، وإليك الأبيات:

القلبُ قد أعطى زمامهْ
لأخي الحبيب أبي أسامهْ

الشاعر الحر المحلّق
فوق طودٍ أو غمامهْ

والصاحب العربيّ في
أصلٍ جلته لنا الشهامهْ

إني شربتُ، وفي الكويت
ـ ولم أخف ـ منه المدامهْ

لم ينههـا ربي فقد
كانت حديثاً وابتسامهْ

مع أسمى تقديري وتقدير أم طه لأخيها أبي أسامة وأختها أم أسامة حفظهما الله وأدام لهما جميع المحروسين بخير وعافية إن شاء الله. وأسلم لأخيك المخلص

حارث طه الراوي

وبعد أن أرسلت إليه هذه الرسالة اتصلتُ به هاتفياً فعلمت منه أنه يعاني آلاماً مبرحة من «سن العقل» وأنه سيذهب إلى الطبيب لاقتلاعه.. فداعبته من بغداد برسالة مؤرخة ١٩٨٠/٣/٦ جاء فيها بخصوص سن العقل ما يلي:

«.. تركتُ الكويت مرتاح البال لأنني أصبتُ قسطاً كبيراً من الشفاء في جوّها الجميل ورعايتك الأخوية الممتازة. ولكن فكري كان منشغلاً بقضية السن الذي آلمك فاقتلعته..، وخفف ألمي عليك، يا طويل العمر، كون سنّك ـ كما علمنا ـ سن العقل. فالخلاص من أي جزء من أجزاء العقل راحة يتوق إليها في عالمنا الحاضر ليس أصحاب الحسّ المرهف من أمثالك وأمثالي وحسب بل حتى الذين لم يبلغ حسهم هذه المرحلة المتقدمة من الرهافة والذين بقيت في عقولهم أجزاء كثيرة صالحة للاستعمال!!»...

فأجابني حفظه الله بالرسالة التالية المؤرخة ١٩٨٠/٣/٢٨:
«أخي الأعز الأديب الشاعر حارث طه الراوي،

تحيات ومودّات ودعاء إلى الله بأن تكون كما أحب من كافة الوجوه، وبعد فقد تسلمت رسالتك المؤرخة ١٩٨٠/٣/٦ وقرأتها بضع مرّات، فقد كانت قطعة أدبية ممتازة، ولا غرو فيراع أخي أبي طه يأتي بالعجب العجاب.

عزيزي أبا طه، أرجو أن تتأكد من أن أخاك ما زال يشعر بالتقصير نحو زيارتك الخاطفة، فقد كان أسبوع زيارتك موعداً لعلاجي كما رأيت لذلك بلغ أم طه تحيات أختها أم أسامة، فلقد طلبت مني ذلك

تلفونياً من لندن ولك من أخيك صادق الود وخالص الأخاء وإلى اللقاء إن شاء الله.

أحمد السقّاف

* * *

وفي أيلول ١٩٨٠ التقيتُ بالسقاف في الكويت وكنتُ موفداً مع أعضاء مكتب التربية العربي لدول الخليج، وذلك في دعوة شاي أقامتها رابطة الأدباء التي يرأسها السقاف لأعضاء المكتب. وكان هذا اللقاء آخر لقاء لي مع السقاف وجهاً لوجه حتى كتابة هذه السطور. أما لقائي مع شعر السقاف ونثره في الصحف والمجلات العربية فما زال مستمراً وممتعاً.

□ □ □

مع الشيخ علي الشرقي

في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات صافحت عيني، لأول مرّة، شعر الشاعر الشيخ علي الشرقي في مجلدٍ قديم لمجلّة «الحريّة» التي كان يصدرها في العشرينات الأستاذ رفائيل بطي ثم في كتاب صاحب المجلة «الأدب العصري في العراق العربـي» فكانت رقّة شعر الرجل تهزّ جميع أوتار الطرب في نفسي الفتيّة الحسّاسة...

ولم أرَ الشيخ علي الشرقي ـ رحمه الله ـ لأوّل مرّة في حياتي إلاّ في الدعوة التي أقامها الأستاذ كاظم الصلح سفير لبنان في العراق آنذاك صيف ١٩٥٤ في فندق «زيّا» على شاطىء دجلة ودعا إليها أعضاء الوفد العراقي لمؤتمر الأدباء العرب الأول، وكنتُ من ضمنهم. وكان الشيخ عضواً في الوفد، ولكنه اعتذر عن مصاحبتنا إلى لبنان لأسباب لا أعرفها حتى الآن...

جلسنا، قبل العشاء، نتبادل الأحاديث الأدبية الشيّقة، وكيف لا تكون الأحاديث شيقة في مجلس يضم رفائيل بطي ومصطفى جواد وعلي الشرقي رحمهم الله. ورغم أن مصطفى جواد مشهود له بالتجلّي والتألق في آفاق النكتة والطرائف إلاّ أن علياً الشرقي كان أكثر منه تجلياً وتألقاً في هذه الآفاق الرحبة التي تنعش الأرواح وتريح القلوب.

وإذا كانت النكات عند مصطفى جواد لا تتواصل وإنما تأتي كل

واحدة منها في مناسبتها فإن نكات شيخنا الشرقي قابلة للانشطار الذرّي، ولكنها في تفجرّها المتواصل الهائل لا تقتل إلاّ الكدر ولا تفتك إلاّ بالضجر.. وهكذا هزّنا بالضحك حتى إذا تعبنا من شدّة الضحك وحاولنا الاستراحة وجدنا أنفسنا مرغمين على مواصلة الضحك لأن النكات تتلاحق وكأن كل واحدة منها تريد أن تستأثر بحصة الأسد من ضحكنا.. فمن ينقذنا من هذه الدوّامة اللطيفة المنهكة؟!

حان وقت العشاء وازدحمت المائدة بما لذ وطاب، فحمدنا الله وعلّلنا أنفسنا بالاستراحة من الضحك، ولو لفترة تناول الطعام!

جلس الشيخ الشرقي على يميني وما كدنا نمد أيدينا إلى الزاد ونضع اللقمة الأولى في أفواهنا حتى عاد شيخنا إلى ما كان عليه من ظرف ومرح وعادت النكات وكأنها تبدو أشدّ إضحاكاً من النكات السابقة، فوضعنا بين نارين: أما أن نضحك ونأكل غير عابئين بمحذور الاختناق أو نكتفي بالاستماع والضحك ونكف عن تناول الطعام. وأحلى الأمرين مرٌّ كما ترى...

إن هذه الروح المرحة الشفافّة التي كان يتمتع بها شاعرنا الشرقي جعلته يدخل قلوبنا ويمتزج بأرواحنا كما يمتزج الراح بالماء..

وبعد انتهاء العشاء أوصلني الأستاذ كاظم الصلح بسيارته إلى بيتي، وقال لي، والسيارة ما تزال تسير في شارع الرشيد:

«لقد كنا قبل دقائق في عالم روحي لا نظير لسموه وجماله، يتجرد فيه المرء من كل ما يربطه بالمادة ومتعباتها. وأن السياسيين بحاجة ماسة إلى مجالسة الأدباء لا للاستفادة من أفكارهم الناضجة ونظراتهم الصائبة

وحسب، بل للتزوّد بهذه الراحة النفسية التي نعمت بها قبل قليل، حيث أتيح لي أن أعتق نفسي من قيود الحياة المادية وتوافهها..».

* * *

وأذكر أني زرت الشيخ علي الشرقي أكثر من مرة في ديـوانه بالقشلة، وكان يومئذٍ وزيراً بلا وزارة، فوجدته في كل زيارة يستبشر بقدومي، ويبعد عني، بتواضعه الجم ومودته الخالصة وانطلاقاته الأدبية اللطيفة الإحساس بالجو الرسمي.

وكان يُسَّر إذا استعنتُ به للحصول على حقٍ من حقوقي ولا يتردّد في بذل كل ما بوسعه من جهود مخلصة في هذا الباب ولي معه في هذه الناحية تجربة تشهد على شهامته وصدق وفائه..

وعندما زار «أمين نخلة» بغداد سنة ١٩٥٦ كان يضـع ديوان الشرقي «عواطف وعواصف» بالقرب من وسادتـه، ولم أزره مرّة في الفندق ألاّ ويتلو على مسمعي أبياتاً من دالية الشرقي «وادي السلام حول مدينة النجف» التي مطلعها:

سـل الحجـر الصـوّان والأثـر العـادي
خليلي كم جيـلٍ قد احتضن الـوادي

وكان أمين ــ رحمه الله ــ ينشد البيتين التاليين ويترنّم بهما مراراً وتكراراً:

عبـرتُ على الـوادي وسفَّت عجاجـة
فكم من بــلادٍ في الغبــار وكم نــادِ

وأبقيت لم أنفض عن الـرأس تـربـة
لأرفـع تكريمـاً على الـرأس أجـدادي

ويصرخ من أعماق قلبه: الله الله.. الله الله.. من فرط إعجابه وطربه..

وكان أمين نخلة قد طلب من صديقنا الأديب الصحفي الأستاذ خالد الدرة أن يصطحبه لزيارة الشرقي في ديوانه بمجلس الوزراء، فجمع الدّرة العملاقين في غرفة الشرقي بالمجلس المذكور، فما كان من الشرقي، كما قال لنا خالد، عندما دخل أمين عليه إلا ونهض من الكرسي الرسمي وأرغم أمين نخلة على الجلوس عليه رغم تردّد أمين وشدّة امتناعه، وقال له ما معناه: «أنت أحق منّي بهذا الكرسي ولا يليق بـي أن أجلس عليه بوجودك..».

وبدا العملاقان ــ كما روي لنا خالد ــ يتناشدان شعرهما المرقص الساحر، فما يكاد أمين يبلغ القمر حتى يصل الشرقي إلى زحل، فضاع الحساب على الـدّرة ولم يعلم من الذي نـال قصب السبق في لقاء العملاقين..

وأذكر أن آخر لقاء لي مع شاعرنا الشرقي ــ رحمه الله ــ كان في ديوانه بمجلس الوزراء في القشلة وذلك في السادس من نيسان ١٩٥٧ حيث أهداني ديوانه الخالد «عواطف وعواصف» وكتب عليه العبارة التالية التي تدلّ على صدق ودّه: «قرّة عين الأدب والفضل الأستاذ السيد حارث الراوي أقدم هذا الأثر المتواضع إلى مكتبتك العامرة مع تقدير الناظم ٦ ــ ٤ ــ ١٩٥٧ علي الشرقي».

وأذكر جيداً أنه قال لي في هذا اللقاء:

ـ خفّف من صراحتك يا حارث. ولا تسلني عما عانيتُ من صراحتي. ولهذا خاطبتُ نفسي بقولي:

أصـــريـــحٌ وكـــل دنـــيـــاكَ رمـــزٌ
ومـــتى صـــادف الـنـجـاح الـصـريـحُ

وأبدى إعجابه الصادق بأدبي وقال:

ـ دع الكتّاب يكتبون عنك أكثر مما تكتب عنهم. أريدك دائماً بمستوى الأديب المبدع الذي يكتب عنه..

رحمه الله.

□ □ □

مع مصطفى جواد

نشأتُ على حب المرحوم الدكتور مصطفى جواد بسبب وفائه للمرحوم والدي الذي تجلّى بأصدق مظاهره في قصيدته الدامعة الرائعة التي رثى بها صديقه المرحوم طه الراوي. وشعر الرثاء ـ كما لا يخفى ـ أصدق أنواع الشعر، لأن الشاعر لا يقصد من نظمه في هذا الباب إلّا التنفيس عن آلامه والتعبير عن أحزانه.

وعلى كثرة ما نظم مصطفى جواد من شعر فلم يكن ـ رحمه الله ـ من الشعراء إلّا في هذه القصيدة التي نظمها بدم القلب ودمع العين[1].

ولا أذكر أني قرأت هذه القصيدة إلّا وبكيت، وهاهي تبكيني بعد ٣٥ سنة من رحيل الراوي ومن نظمها، وهذه عجيبة من عجائب سحر الشعر إذا كان صادقاً ولا أبالغ إذا قلت أن هذه المرثية الخالدة تقف بثبات مع أشهر وأصدق مراثي الشعر العربي على قمة واحدة. فما كان «الشريف الرضي» وهو أبو العاطفة وأمها، وأبو الصدق والإبداع في الشعر العربي، بأصدق عاطفة وأشد لوعة وأجمل صورة وأنصع بياناً في

---

(١) هذا هو رأيي في شعره، وقد صارحته به بينما كنّا نتمشى في الطريق العام بمصيف عاليه اللبناني سنة ١٩٥٧، وقد أيدني رحمه الله بكل صراحة وأعلن عجزه التام عن نظم قصيدة تضاهي قصيدته في رثاء طه الراوي وقال أنها «بيضة الديك».

قصيدته الخالدة الشهيرة التي رثى بها صديق عمره «الصابي»:

أرأيتُ من حملوا على الأعوادِ
. أرأيتُ كيف خبا ضياء النادي

من مصطفى جواد في عينيته الفريدة في رثاء صديقه «طه الراوي». ولما كانت قصيدة مصطفى جواد نادرة الوجود لأنها غير منشورة إلّا في العدد الخاص من مجلة «الرحاب» البغدادية الخاص بطه الراوي والصادر في ٢٢ ـ ١٢ ـ ١٩٤٦ لذا أجد من المناسب جداً أن أقتطف منها الأبيات التالية، وهي قصيدة طويلة تقع في سبعين بيتاً:

أرى الموت لم يترك لذي اللب مفزعا
غداة رمى طه فأصمى وروّعا

وأعظم موتانا الذين مقامهم
يظلّ خلياً لا يرى متربعا

كذلك طه كان لله دره
ولله محياه، وذكر تضوّعا

هوى كهويّ العبقريين لم يكن
لقلبهم صبر على حمل ما وعى

مشى خلفه الجمع الغفير تجلةً
وشيّعه العرفان لكن مشيعا

يجلّلهم غمٌ، ويعلو وجوههم
وجوم فلا يخكون إلا تطلعا

وفي العين رقراق من الدمع شاهد
بأن الردى أن أوجع القلب أدمعا
ونادى جناني واللسان منهنه
من الحزن أنسته المنون التنطعا
ألا أيها الماشون بالنعش أنكم
حملتم فؤاداً من ذكاءٍ تصدعا
ويا أيها الماشون بالنعش أنكم
حملتم عليماً كان للعلم مطلعا
حملتم أبيّ النفس ريان عزة
عليّ السجايا كان للود موضعا
حملتم متين الدين طهراً جنانه
إماماً إلى غير الفضيلة ما دعا
قضى عمره في نصرة العلم سالكاً
سبيل خلال الخير ما حاد أصبعا
بكته عيون العلم رمداً قريحة
بكاه التقى والفضل في موته معا
بكته الخلال الغر أعيا طلابها
على غيره ممن وعى العلم أو رعى
أبا هاشم أضحى مصابك شاملاً
فكيف التأسي والأسى قد توزعا؟

أيـا آيـة الـعلم الـتـي لا يـنـالـهـا
على الـدهر نسـخ نصهـا الله مـرجعـا

ويـا واحـد العلم الـذي ظـلّ بعـده
طـريـح عثـارٍ لا يقـال لـه: (لعـا)

وألهمـك اسم المصـطفى من جـلالـه
فـنـزهت طـه أن يـكـون مضـيعـا

وقـد كـنـت قـوّالاً بـحـقٍ وآمـراً
بعـرفٍ ومـدعـاء إلى الخيـر مقنعـا

وكـنتَ إذا مـا نـكّس النكس رأسـه
عن الـوطن الـداعي لـرأسكَ مـطلعـا

تساميتَ عن جهـل التعصب مبغضـاً
لأربـابـه عـن خبـثهـم متـرفـعـا

طـوتـك يـد الأقـدار سفـراً مكـرمـاً
ستقـرأه الأجيـال أحـلى وأنـصـعـا

وإذ ذاك تـلقى كـل مـا أنتَ أهـله
جـلالـة قـدرٍ وائتـلامـاً ومـوضعـا

سـلام على قبـر بمعـروف كـرخهـا
حـوى من عماد العلم ركنـاً مصـدّعـا

واستمـطر الـرحـمن وطـفـاء رحمـةٍ
عليـه فقـد كـان الـرحيم المشفعـا

* * *

رأيتُ مصطفى جواد، لأول مرّة في حياتي، سنة ١٩٤٥، عندما اصطحبه والدي في سيارته وأجلسه على يمينه.. وأذكر أن حديثهما في السيارة كان، في مجمله، عن خطط بغداد، وكان المرحوم مصطفى مثال اللطف والرقة في حديثه مع المرحوم الراوي.

وبعد وفاة المرحوم الوالد، زارنا في قبولنا الذي كان مساء كل سبت الأستاذ منير القاضي ـ رحمه الله ـ وبصحبته المرحوم الدكتور مصطفى جواد. وكانت الزيارة في مستهل الخمسينات، على ما أتذكر، فسألني الدكتور مصطفى عن نشاطي الأدبـي وتمنى لي المستقبل الزاهر. فعقب الأستاذ القاضي على سؤال الدكتور وتمنياته قائلاً:

ـ إن حارث يسير بخطى ثابتة في طريق الأدب الجديد..

وضحك ـ رحمه الله ـ وهو يقول لمصطفى جواد متمماً حديثه:

ـ ولا يعبأ بـ «قل ولا تقل».

فضحك المرحوم مصطفى جواد وقال بكل تواضع:

ـ المستقبل للأدب الجديد الذي يعنى به حارث. أما نحن فمن حفاري القبور..

* * *

وفي أيلول ١٩٥٤ وجهت إلي الدعوة الرسمية لتمثيل أدباء العراق في مؤتمر الأدباء العرب الأول الذي انعقد ببيت مري سنة ١٩٥٤ وكان المرحوم مصطفى جواد زميلي في الوفد العراقي للمؤتمر المذكور، فسافرنا جميعاً بطائرة واحدة إلى بيروت، وكانت ذات محركين من نوع «داكوتا».. ولما كان ارتفاع هذه النوع من الطائرات الصغيرة القديمة

محدوداً، لذا أشبعتنا انحداراً في مهاوي الجيوب الهوائية في رحلة عجيبة ضربت بها الرقم القياسي في الطول بين بغداد وبيروت، فقد وصلنا بيروت بعد ثلاث ساعات ونصف!!

كان المرحوم مصطفى جواد جالساً أمامي في الطائرة، وما كادت الطائرة تصل أجواء بيروت حتى أمعنت في التحليق وتمادت في الدوران الطويل المتواصل فوق البحر وبيروت. ونحن نجهل سبب هذا الارتفاع الشاهق والدوران المتواصل.. وكانت السيدة التي بجواري من الجهة الثانية مع طفلتها أشدّنا قلقاً وأقل صبراً واحتمالاً، فسألت الدكتور مصطفى جواد بلهجة لبنانية رقيقة:

ــ إلى أين نحن ذاهبون يا عم؟

فأجابها رحمه الله بمثل عامي بغدادي قائلاً:

ــ أنت ما سامعة: «حزمته ولزمته ودزته..» شمدريني وين رايحين يا بنتي!..

فاضطررتُ أن أترجم لها كلام الدكتور وأضيف عليه ما يدير المفتاح في باب الأمل..

* * *

ورغم ظرف الدكتور مصطفى وخفة روحه وغزارة علمه، فإنه لم يكن من النجوم اللامعة في آفاق مؤتمر الأدباء، لأن الأنظار كانت تتجه للأدباء المتفننين في الشعر والقصة والرواية والنقد ولا تتجه إلى اللغويين والمؤرخين الذين يتألقون في مؤتمرات المجامع العلمية، فكان ــ رحمه الله ــ كثير الانزواء لا يرتاح إلاّ لمجلس المرحوم مارون عبود.

إلّا أن أنظار المؤتمر اتجهت إليه عندما ألقى محاضرته اللغوية الطويلة التي برهنت على سعة علمه وصواب آرائه في هذا المجال..

* * *

وفي أواخر آب ١٩٥٧، دعت مؤسسة السياحة والاصطياف اللبنانية، خمسة من أدباء العراق(٢) لزيارة لبنان لمدة خمسة أيام لغرض الاطلاع على معالمه السياحية والآثارية..، وهكذا كان مصطفى جواد رفيقي للمرة الثانية في الرحلة إلى لبنان. وقد أقمنا في فندق «رون بوان» بعاليه، وبينما كنا نتمشى في الشارع العام بعاليه، عاتبتُ الدكتور مصطفى جواد قائلاً:

– في مقدمتك لكتاب «الأدب الرفيع في أوزان الشعر وقوافيه» للمرحوم معروف الرصافي بخلتَ على الرصافي برحمة الله الواسعة إذ اكتفيت بقولك بعد اسمه «المرجوّة له الرحمة» فهل تستكثر على الرصافي العظيم كلمة «المرحوم» التي ما بخلت بها صحيفة على ميت؟.. فلماذا يستثنى الرصافي وحده من رحمة الله الواسعة؟

فأجابني محتداً؟

– مولانا.. الرصافي يكفّره الكثيرون..

– ولماذا تكون منهم يا دكتور؟

– الرصافي ليس مؤمناً!..

---

(٢) أحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد وعبدالرزاق محيي الدين وكوركيس عواد وحارث طه الراوي.

ـ الدلائل كثيرة على إيمان الرصافي، ثم أن الله تعالى أعلم بالسرائر، فكيف يحق لنا أن نحرم عباده من رحمته الواسعة؟ ومتى كانت رحمة الله ملكنا لنحرم منها عباده؟

سكتَ الدكتور مصطفى، ولكن هل اقتنع بدفاعي عن الرصافي؟

ـ لا أدري، والله أعلم بالسرائر...

* * *

ودعينا إلى مصيف «نبع الصفا» لتناول طعام الغداء في أجمل مطعم ذي شلّالات اصطناعية وكانت «فيروز» لا تكفّ عن التغريد.. وبعد انتهائنا من الغداء قلت لأخواني الأدباء مازحاً:

ـ عار علينا، بعد أن أكلنا وشربنا في هذا المطعم الساحر ذي الروضة الغناء ألّا نقول شعراً فيه وبيننا ثلاثة شعراء، فأيدني مصطفى جواد وابتدأ القصيدة بقوله:

«صفا العيش في نبع الصفا وترغدا»

ولا أذكر العجز وقائله.. وقد نشرت الأبيات مع أسماء قائليها في مجلة «الورود» اللبنانية، ولكني أذكر عندما قلت:

«وغنّت لنا فيروز لحناً مردّداً»

أتم مصطفى جواد البيت قائلاً:

«فخلنا هزاراً في الخميلة غرّدا»

ولما قلت:

«فقلتُ لصحبي أين بغداد والهوى»

أتم أحمد حامد الصرّاف البيت قائلاً:

«ففي كـل ذا يبدو لـك الكرب والـردى»

والأبيات لا تعدو، بطبيعة الحـال أن تكون للمـزاح والتسلية ولا يمكن أن تسمى شعراً..

* * *

وفي ليلة عودتنا إلى بغداد، تخلف الصرّاف وعبدالرزاق محيـي الدين في لبنان ومكثا في الجبل، أما مصطفى جواد وكوركيس عوّاد وأنا فقد نزلنا إلى «بيروت» وحللنا في فندق «نيو رويال» على البحر.

وبعد جولة على الأقدام في شوارع بيروت انزوى الدكتور مصطفى في غرفتنا المشتركة بالفندق واستأذنته مع الأخ كوركيس للذهاب إلى مطعم مجاور لفندقنا لتناول العشاء فيه بعد أن اعتذر عن مصاحبتنا بسبب ما يعانيه من تخمة.

وعدنا في التاسعة مساء وإذا بزجاج شباك الغرفة يقطر ظلاماً!!. فماذا حصل وأين الدكتور؟!

حاولنا فتح الباب ولكنها كانت مقفلة من الداخل، فطرقناها، وإذا بالدكتور مصطفى ينهض من فراشه ويقول لنا:

ـ انتظروا قليلاً...

فما سرّ الانتظار؟..

لقد وضع الدكتور المنضدة الخشبية التي توضع عليها حقائب المسافرين، ووضع عليها ثلاث حقائب: حقيبته وحقيبة كوركيس الفقير إلى رحمة الله تعالى، وأخذ ينزلها حقيبة بعد حقيبة..

لا بدّ أنه تصّور أن لصاً سيداهمه، وإلاّ فما هذا الاحتياط الذي لا يعدو أن يكون من قبيل لزوم ما لا يلزم...

وعلى أي حال فإن مفاجآت أبـي جواد الطريفة التي أعرفها عنه كثيرة ولستُ في مجال إحصائها. وأن ذهني ليختزن عنه الكثير من الذكريات الحلوة الممتعة خلال اشتغالي لمدة ١١ سنة في المجمع العلمي العراقي. رحمه الله.

□ □ □

مع خالد الدرة

في الأربعينات والخمسينات كان «خالد الدرة» يتوهج كالشمس في آفاق الأدب والصحافة، وكان يومئذٍ، العمود الأقوى والأشد من أعمدة الأدب الساخر الذي قام على أعمدة الكتّاب العراقيين الساخرين من أمثال «خلف شوقي الداوودي» و«ميخائيل تيسي» و«جبزبوز» و«أبو حمد» و«إبراهيم صالح شاكر» و«قرندل».

ورغم المزايا العديدة لهؤلاء الكتّاب الساخرين المتفاوتين في الإبداع والتأثير على الجمهور، فإن خالد الدرة كان يتفوّق عليهم جميعاً بسعة الثقافة وعمقها وبقوّة الخيال ونفاذ الفكر، فهو من بينهم نسيج وحده كما يقال. . .

وإذا كان «إبراهيم صالح شكر» رحمه الله يتوكأ على الجملة البليغة في ثورته الساخرة فيجيع المعاني العميقة ليشبع الألفاظ ذات الرنين الموسيقي على طريقة «ولي الدين يكن» فإن خالد الدّرة على العكس منهما يجيع الألفاظ الموسيقية والحبك البياني المحكم ليشبع الفكرة الساخرة ذات البلاغة الذاتية التي تتفجّر عنده على طريقة القنابل العنقودية. . وما كانت فكرته الثائرة المفرقعة لتدمّر غير الزيف في حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية خلال الأربعينات والخمسينات. .

والحقيقة التي لا جدال فيها أن الكتاب المرشحين للخلود، في كل

زمان ومكان، لا ترشحهم كتاباتهم الإبداعية وحسب لهذا الشرف الدائم وإنما تساهم في هذا الترشيح مواقفهم الجريئة أيضاً. ولخالد الدرة مواقف جريئة لا تعدّ ولا تحصى خلال الأربعينات والخمسينيات ضد الاستعمار وأذنابه المسيطرين في تلك الفترة الحالكة من تاريخ العراق أذكر منها موقفاً واحداً ألا وهو كتابة ونشر افتتاحية لجريدته «الآراء» نشرت بتاريخ ٢٥ أيلول ١٩٥١ تحت عنوان «الرجولة: هل عقم العراق بعد السبعاوي» ونشر في صدر الجريدة صورة الشهيد الخالد محمد يونس السبعاوي وهي مجلّلة بالسواد وفوقها عبارة «الرجل العراقي الكامل» وتحتها «معالي المرحوم محمد يونس السبعاوي وهو الذي خلق رجولته بنفسه واحتلت شخصيته احترام الزعماء وعمل لوطنه بإخلاص وصار رمز الشباب المناضل وقدوة حسنة في سمّو الخلق».

ومما قاله الدّرة في مقاله الجريء هذا:

«.. لذا أعود وأقول بأن عنصر الرجولة مفقود بيننا ويا للأسف. فهذا يتعكز بالطائفية وذلك بالأساليب الوضيعة إلى مئات الوسائل التي تقتل الرجولة الحقة، وهم يحسبون أن وسائلهم أدّت بهم أن يكونوا رجالاً!

لقد كان محمد يونس السبعاوي رجلاً فهل عقمت البلاد من بعده؟ نعم لقد كان المرحوم محمد يونس السبعاوي رجلاً، فقد نشأ عصامياً ووصل بغداد وهو مكافحاً بمفرده...»

إلى أن يقول:

«عاد السبعاوي من الموصل وقال المرحوم ياسين الهاشمي عنه كلمته الخالدة عن السبعاوي حيث وصفه (بالشيخوخة المبكرة) وصار

نائباً فأحدث تبدلاً في عقول كثير من النّواب، وصار وزيراً فغيرّ من عقلية بعض الوزراء. ثم بدأ يعمل للخلاص من ربقة المستعمر فاتصل بالزعماء ووحدّ بين المتنافرين فصارت حركة رشيد عالي الكيلاني. لقد فشلت ولكنها حركة كان لا بد منها فهي تنبىء بأننا شعب يحتقر أساليب الاستعمار..» الخ...

* * *

في صباح العشرين من تموز سنة ١٩٤٩ وفي شرفة فندق «مجاعص» في مصيف «بحمدون ـ المحطة» بلبنان عرّفني الشاعر أحمد الصافي النجفي ـ رحمه الله ـ على صديقه الأستاذ خالد الدرة الذي كنت أنشر في جريدته ولكني لم أكن قد سعدتُ بلقائه بعد. وكان «الصافي».ضيفاً على أديبنا الخالد الكريم...

كان خالد يحتسي صبوحه. وكانت زجاجات أو «بطحات» العرق اللبناني الفارغة التي أتمَّ فيها غبوقة تشهد أنه كان في احتساء غبوقة من المسرفين..

وكان «أبو حربيّة» يثب كالنمر على من يذكر أمامه من الأدباء، وكان صريحاً لا يعرف المداهنة الخادعة والمجاملة الكاذبة، حتى أن شاعرنا لما أثنى على المرحوم والدي كإنسان وكعالم وأديب شاركه الدّرة في الثناء على طيبته وعلمه ولكنه انتقد أسلوبه الأدبي، فخالفه الصافي، ولكن خالد الدرة لم يتراجع أو يجامل بسبب حضوري. ورغم اختلافي مع الدرة في هذه الناحية فقد أكبرتُ فيه صراحته لأنها عنوان الرجولة الحقة.

وكان الحديث بيني وبين الصافي، الذي بدأناه في مقهى «طانيوس»

قبل مجيئنا إلى الفندق، قد انقطع، فواصله الصافي أمام خالد.. وكان موضوع الحديث بل موضوع الخلاف والجدل هو «ميخائيل نعيمة». فقد كنتُ من أشدّ المعجبين به، وكان الصافي من أشد المتحمسين لنقده وتجريحه وتفضيل «جبران» عليه. فما كان من خالد إلاّ أن يؤيد صديقه «الصافي» تأييداً مطلقاً. وأتذكر أنه قال عن «ميخائيل نعيمة» بسبب موقفه من «جبران»: «لو دفنتَ حقد ميخائيل نعيمة في جبل لتحوّل إلى بركان!!».

وفي صيف ١٩٥١ كان «خالد الدرة» يصطاف في فندق «سان ريمو» ببحمدون ـ المحطة فذهبتُ إلى الفندق المذكور وسألت عنه وقلتُ لهم اسمي. فجاء خالد مضطرباً على غير عادته وقال:

ـ لعنة الله عليهم.. قالوا لي: «حارس» يريدك. فقلتُ لهم ألا تكفيني مطاردة الحارس لي في العراق حتى جاءني إلى لبنان لينغّص عليَّ سعادتي؟!..

فضحكنا. وسبب الالتباس واضح لأن اللبنانيين يلفظون الثاء سيناً وحارث هو «حارس» بلهجتهم..

ولشدّة لطافة مجلس خالد فقد آثرتُ أن أترك فندقي في بحمدون ـ الضيعة لأحل في فندق «سان ريمو» بالمحطة. ولا تسل عن سعادتي النفسية بالقرب من هذا الأديب المرح الساخر..

كان خالد يراسل جريدته من لبنان ويزوّدها ببعض الافتتاحيات السياسيّة ورأيته ذات مرّة منهمكاً بالكتابة في ساحة الفندق. وكانت اختلاجات الانفعال بادية على وجهه وهو يكتب بسرعة كأنَّ أحداً يملي

عليه! ودلّتني تعابير وجهه إن ما كان يكتبه لم يكن برسالة إلى أهل أو صديق بل كان مقالاً سياسيّاً..

كنتُ أنظر إلى خالد من الجهة الثانية من الساحة مشفقاً على أعصابه المتحفزة المتوترة. وشكرتُ الله تعالى عندما رفع خالد قلمه عن الورقة وتنفّس الصعداء بملء رئتيه.. وقال لي:

ــ اقرأ ما كتبت قبل أن أرسله إلى جريدتي في بغداد..

فأخذتُ الورقة منه لأقرأ مقالاً سياسياً صريحاً شديد اللهجة لا يمكن أن تغفره له العائلة المالكة التي كانت في بغداد.. فاندهشت وقلتُ له:

ــ هل تعلم ماذا كتبت؟

ــ لا...

ــ قلتُ: كذا.. وكذا.. وكذا...

فأدركته صحوة المندهش وأخذ المقال مني قائلاً:

ــ أنا كتبتُ ذلك؟! ــ لا داعي إذن لإرساله ونشره...

* * *

وفي أواسط الخمسينات كنتُ أوالي زيارة خالد الدرة في منزله الذي كان في الأعظمية بالقرب من «ساحة عنتر» فأسمع النكتة البديعة والرأي السديد في النقد الأدبي والذكريات الأدبية الممتعة التي حفلت بها حياته. وفي بيت خالد تعرّفتُ، لأول مرة، على شاعرنا الكبير الأستاذ حافظ جميل.

وكان بيت خالد مفتوحاً لأخوانه أدباء وشعراء العراق البارزين في تلك الفترة. وكان خالد يقيم الولائم الأخوانية السخية لأخوانه الأدباء والشعراء متحدياً بكرمه العربـي الفطري وضعه المالي الذي لم يكن على ما يرام بعد احتجاب جريدته. وقد التقيتُ أكثر من مرة بالشاعر الكبير الأستاذ محمد مهدي الجواهري خلال هذه الولائم الأخوانية وأذكر أن راويته المرحوم الأستاذ عبدالكريم الدجيلي كان حاضراً ذات مرة إحدى هذه الولائم بحضور الجواهري. وكان الجواهري ينشدنا بين الفينة والفينة شيئاً من شعره فيستدرك عليه الدجيلي بعض الألفاظ ويذكره قائلاً:

ـ لماذا تنسى ما قلته في الأصل.. وكان الأصل كذا وكذا...

فيأخذ الجواهري استدراك الدجيلي بنظر الاعتبار ويرجع إلى الأصل الذي نبهه عليه راويته..

* * *

وفي صيف سنة ١٩٥٥، على ما أتذكر، كنت في زيارة لخالد في منزله وكنتُ مرتبطاً في ساعة ذات المساء بموعد مع الصديقين عبدالوهاب البياتي وخالص عزمي إذ اتفقتُ مع خالص أن يمرّ عليّ بسيّارته بعد مروره على منزل خالد الدرة لأذهب معهما إلى محلٍ مناسب لقضاء سهرة ممتعة. ولم يكن خالد قد تعرّف على البياتي وعزمي وجهاً لوجه بالرغم من نشره للبياتي بعض قصائده القديمة في جريدته. فلما طرق الجرس ودّعتُ أبا حربية وتوجهتُ إليهما فاصرّ أبو حربية على دخولهما ليتعرّف عليهما وألحّ فنزلتُ عند رغبته. وجلسنا معاً في الشرفة الخلفية لدار خالد. وأترع خالد لهما كأسين مما كنا نحتسي ليشاركاننا الفرحة.. وكانت

الأحاديث أخوية لطيفة تتخللها لذعات خالد و «دغدغاته» ونكاته. . . حتى إذا استبدّت النشوة به تملكته صراحته وحالت بينه وبين مجاملة ضيفه الذي يزوره لأول مرّة. . وإذا بخالد الدرة يقول لعبدالوهاب البياتي:

ـ لماذا يا عبدالوهاب هجرت شعرك العمودي كالقصيدة الفلانية الثائرة التي نشرتها لك جريدتي، وانصرفتَ إلى هذا الشعر الحر الذي لا يختلف عن قـول القائـل: «صاح الـديـك بـالبستـان الله ينصـر السلطان». .

امتقع وجه البياتي وبدت عليه علائم الاضطراب والحيرة ثم همس بإذن خالد بعض الكلمات فقاما على أثر هذا الهمس إلى موضعٍ في الحديقة وتحدثا على انفراد ثم عادا. وعدنا إلى السمر وعاد الارتياح إلى وجه عبدالوهاب. وما هي إلاّ دقائق حتى عاد أبو حربية إلى سابق غمزه لأبـي علي وسأله قائلاً:

ـ أيهما أفضل وأجمل: الشعر أم النثر؟

ـ الشعر.

ـ ولكني سأجلب كتاباً في النثر ونقرأ لك منه ثم أنشدنا بعد ذلك شيئاً من شعرك الحر الجديد لنرى أيهما أوقع في النفس. . .

ونهض خالد وجلب كتاب «أمين نخلة»: «تحت قناطر أرسطو». . وبدلاً من أن يقرأ لنا فيه، سلمّني إياه وقال لعبدالوهاب:

ـ سيقرأ لنا حارث أي مقال يشاء في هذا الكتاب الذي يتفجّر بلاغة. .

وكان عليّ أن أعتذر عن القراءة تقديراً لمشاعر الصديق البياتي، ولكن نشوة السلافة المتصاعدة حالت دون التروّي والاعتذار الحاسم، فقرأتُ قطعة لأمين أثارت إعجاب خالد، فصمت البياتي وتضايق ثم كانت القطيعة بيني وبينه التي امتدّت إلى تاريخ زيارة «أمين نخلة» للعراق في ربيع سنة ١٩٥٦.

وعندما حدّدتُ يوماً لدعوتي لأمين نخلة في منزلي اتصلتُ هاتفياً بالصديق خالد الدرة لأدعوه إليها، فعلّق حضوره على شرط فاستغربتُ من ذلك، وسألته عن الشرط فقال:

ـ إذا لم يحضر عبدالوهاب البياتي فأنا لا أحضر!..

ـ بيني وبينه ـ كما تعلم ـ جفوة..

ـ تستطيع أن تزيلها..

ـ حسناً أزلتها ولكن أين أجده لأدعوه..

ـ هو موجود عندي الآن..

ـ أخبره أنه مدعو..

ـ أخبره أنت..

ـ حسناً..

وبلغتُ البياتي بالدعوة التي حضرها جمع غفير من الشعراء والأدباء وفي طليعتهم الجواهري وحافظ جميل. وكان البياتي يحمل في جيبه قصيدة جديدة من الشعر الحر أنشدها للحاضرين بعد أن أنشد الجواهري وحافظ جميل من روائع شعرهما...

* * *

وفي شتاء ١٩٥٨ دعاني الصديق حافظ جميل إلى سهرة في منزله وكان الحضور الجواهري وخالد الدرة وشاكر علي التكريتي. وبعد ان انتهينا من الأكل جلسنا نتسامر فنهض خالد الدرة وتسلل إلى داخل منزل حافظ جميل وبعد دقائق معدودة جاءنا وهو يحمل قفصاً كبيراً يضم طير «الببغاء» المسمّى بالعامية البغدادية «بيبـي متو». ووضع القفص أمامنا. وكان الجواهري مسترسلاً بحديث ممتع. والجواهري عندما يتحدّث يكثر من تحريك يديه ويحرّك رأسه بشكل عمودي كما هو معروف عنه. وبينما نحن في ذروة الطرب لحديث الجواهري إذا بخالد الدرة يقاطعه قائلاً:

– كافي أبو فرات.. كافي تتكلم مو قتلته للبيبـي متو..

ونظرنا إلى «البيبـي متو» وإذا به يرفع رأسه ويخفضه على طريقة الجواهري بشكل متواصل.. فهبتَ عاصفة من الضحك كادت أن تقتلع آلامنا النفسية من الجذور.

وآخر مرّة رأيتُ فيها خالد الدرة كانت في حفلة تأبين الصديق الوفي الأستاذ الأديب المرحوم توفيق الفكيكي في بداية السبعينات، على ما أتذكر، ثم سهرنا معاً في منزل صديق الطرفين الأستاذ حافظ جميل. فإليه مني ألف تحية وتحية..

□ □ □

مع أكرم أحمد

في مساء اليوم الثامن والعشرين من آب ١٩٥٧ كنتُ جالساً في قاعة فندق «رون بوان» بعالية لبنان مع زملائي أعضاء الوفد العراقي الذين دعتهم دائرة السياحة والاصطياف اللبنانية لزيارة لبنان والاطلاع على مرافقه السياحية ومعالمه الآثارية، فزارنا رجل قصير القامة، ممتلىء الجسم، يتلألأ على رأسه الضخم شيب لم يترك لشعرة سوداء مجال البقاء. ورغم وضوح الشيخوخة على ذلك الوجه الأبيض المستدير ذي الشارب الأشيب، فإنه يشعّ نشاطاً وحيوية لا سيما في عينيه الكحليتين البراقتين. انه الشاعر أكرم أحمد الذي سمعت عنه ولم أره قبل هذه المرّة جاء ليدعونا إلى ملهى «البيسين» بعالية لسماع المغنية صباح، فاعتذرت عن مشاركتهم، وألحّ أكرم ولكن اعتذاري كان قطعياً[١]. وهكذا اضطررت إلى حرمان نفسي من متعة مجالسة شاعر كبير من عيار أكرم أحمد الذي لم أره بعد هذا اللقاء العابر إلاّ في أوائل الستينات عندما دعاني الصديق شاكر علي التكريتي على العشاء مع الشاعرين أكرم أحمد وحافظ جميل وبعض الأدباء. وأذكر أنّي ذهبتُ في ليلة الدعوة إلى منزل

---

(١) بسبب اعتذار الصديق الوفي الأستاذ أحمد حامد الصرّاف عن حضور دعوة الصديق الكريم البرت الريحاني لأسباب غير مقنعة. ولكن طيبة الصرّاف تغلبت في صبيحة اليوم التالي على اعتذاره فشاركنا في تلبية دعوة الغداء الرائعة بمنزل الريحاني في الفريكة.

حافظ لنذهب معاً بسيارته التي كان يقودها بنفسه يومْ كان بصره سليمًا وعافيته مكتملة، ولم أكد أضغط على الجرس حتى فتح الباب أكرم أحمد ورحب بـي ودعاني إلى الدخول، وما هي إلّا دقائق حتى اصطحبنا حافظ بسيارته إلى دار أبـي جلال. وما كدنا نجلس في غرفة الاستقبال في دار شاكر حتى أخذ أكرم زمام الحديث، وما حديثه إلّا الفستق المقشور، أو الشعر المنثور، أو السحر بعينه. فأنت من حديثه بين طرفة أدبية أو فائدة لغوية أو قصيدة جميلة له أو يرويها لغيره من بلابل الشعر، أو نكتة بارعة تجلو صدأ الروح وتفتح كوّة المباهج في القلب الموصد الحزين..

وهو في ذلك يتدفق تدفق الينبوع الثر وينهمر انهمار الشلّال الغزير.. وفي تلك الجلسة الأدبية الأخوية، البعيدة عن التكلّف والتصنّع والنفاق، ولد البيت الأول من قصيدة حافظ جميل «كأسي» عندما رفع حافظ كأسه وخاطبها قائلاً:

دومـي دوام الـعـمـر يـا كـأسـي

يـا كـوثـري الـعـذب وفـردوسـي

فاستحسن الجميع بيت حافظ وفي طليعتهم أكرم أحمد.

* * *

وفي سنة ١٩٦٢ دعاني أكرم إلى العشاء في منزله بالجادرية مع حافظ جميل وجماعة من الأدباء، فكان، بما أعده لنا من زادٍ شهي وشعرٍ بهي، أكرم الشعراء. وكان ديوان أمين نخلة الذي أطلق عليه اسم «الديوان الجديد» حديث الصدور. وقد ضمَّ بين دفتيه داليته التي صدّر بها ديواني «تباريح» مما حداني إلى أن أحييه بقصيدة نونية تلوتها على الحاضرين بناء على طلبهم فكان أكرم أشدّهم طرباً..

وطلب مني أكرم في هذا اللقاء ان أرشده إلى أية قصيدة من قصائده في الصحف والمجلات العراقية القديمة. وكان ينشدنا في دفتر جمع فيه ما تيسّر له جمعه من قصائده فزودته في لقاء آخر بأكثر من قصيدة نُشرت له في مجلتي «المدرسة» و«الكشاف» سنة ١٩٢٦.

ودعوت أكرم أحمد إلى منزلي مع الصديقين الشاعرين حافظ جميل وخالد الشوّاق فلبوا الدعوة في مساء الإثنين الموافق ٤ نيسان ١٩٦٦ وكان أكرم شديد الإعجاب بوثبات الشريف الرضي، وقد استشهد ببعضها فهزّنا وأطربنا مما حدا بالشوّاف إلى أن يترنّم بأبيات ساحرة من غزل الشريف لا أتذكرها ولكني أتذكر أنها أرقصت أرواحنا وكادت أن ترقص أجسامنا!...

* * *

وخلال الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٦٨ سمعت عن السقم والخور الذي ألّم بجسم أكرم أحمد وبالضعف الذي انتاب قلبه، فتألمت وتمنيت له من صميم القلب عودة العافية، ولكن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه».. فقد توفاه الله في بيروت بالسكتة القلبية وذلك في الساعة العاشرة إلاّ ربعاً (بتوقيت بيروت) من ليلة ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٨، ولم أكد أقرأ نعيه وموعد تشييعه بعد وصول جثمانه إلى بغداد حتى ذهبت مسرعاً إلى بيت شقيقه لأشترك في التشييع، فقيل لي ان المشيعين قد سبقوني إلى مقبرة الشيخ معروف الكرخي، ولما بلغت المقبرة كان كل شيء قد انتهى ولم أجد أحداً في مدينة الصمت، فانهمرت الدموع من عيني وتذكرت أنني قد وعدته حال حياته أن أكتب دراسة عن شعره ترضي الحق وترضيه، وقد أشرتُ إلى ذلك في القصيدة التالية التي رثيته بها:

وعـدتـكَ أن أعــطي لشعــركَ حقّــه

وألـبســه ثــوبــاً مـن النقــد زاهـيـاً

ولم أدر أني ســوف أرثيــكَ بــاكيـاً

وأسكب دمعي فــوق رمسكَ قــانيـا

فيـا «أكرم» الأصحـاب أسرعتَ فـائتـد

ويـا أقـربَ الأحبـاب أصبحتَ نـائيـا

أرى الموتَ مشغوفاً بكل سميـدع (٢)

يـلذّ لــه أن يـصــطفيــه مـبـاهـيـا

[illegible] العبقـ[illegible]ـين شــامتــاً

ويـحـصــد زرع الألـمـعـيّـة لاهـيـا

يـهــادن حتى يــأمن الـكــل شــرّه

فيســرق أحـبــابــاً ويـطفي أمــانـيـا

أأنـسى لـيــالـيـنــا بـجـنّــةِ «حــافظ»

تـدار علينا الخمرِ صـرفـاً كما هيا

فنــرشفـهــا حـيـنــاً ونــرشف أختهــا

من الشعــر أن أسقيتنا أنتَ شيــاديـا

ونشــرب من جام «الجَمَيْـل» عتيقـةً

إذا هـمَّ يــروي شعــره مـتـصـابـيـا

---

(٢) السميدع: السيّد الكريم الشريفَ السخي.

أأنساك تغزو القلبَ بالأنسِ والرضا
إذا قلتَ شعراً أو تدفّقتَ راويا

تغارُ ابنةُ العنقودِ منكَ محدِّثاً
يشاركها زهرٌ تضوّع ذاكيا

لقد كنتَ كالطفل البريء سريرةً
بشوشاً، صريحاً، لا نراكَ مرائيا

وقد كنتَ للشعر الأصيلِ رجاءه
فغبتَ، فأمسى يجهش اليوم باكيا

لئن غبتَ في صمتٍ فما الصمت ضائر
إذا كان صوتُ الشعر عذباً وعاليا

□ □ □

مع أحمد حامد الصّرّاف

لو كانت أنفس عطور الدنيا تصلح للكتابة لغمستُ يراعي في أغلاها وكتبتُ عنه، فهو يحبّ العطور النفيسة إلى حدّ الوله، وهو جدير بأن يكتب عنه بأنفس عطر، ولكن ما حيلتي والعطور لا تصلح للكتابة. . . ولهذا لا مناص لي من الكتابة عنه بالحبر الأسود. وسيرى، في مرآتي، وجهه الأبيض يزاحم القمر في شدّة التألّق إن شاء الله. . .

ومتى نذكر أدباءنا الكبار بالخير إذا كان تجاوزهم للثمانين عاماً لا يحرّك فينا ساكناً (لا يهزّ همّةً ويراعاً؟! وما الفائدة من أقلامنا إذا كانت عاجزة عن ردّ الجميل لأهله؟!

لقد بلغ أستاذنا الصرّاف الثمانين. . وأقول ــ وإن كنتُ غير مخوّل بهذا القول ــ أنه قد تجاوزها بقليل. .

وقد عصره المرضُ بلؤمٍ مراراً ولكنه ــ أعني المرض ــ كان في كل صولات إيذائه أعجز من أن يضعف ذاكرة الصرّاف المتوقدة النيّرة وأعجز من أن ينال من سحر حديثه وبديع رواياته وأعجز من أن يكدّر صفاء ابتسامة الطفل البريء على ثغر هذا الشيخ الوديع المرهف الحس الذي أصبحت نفسه الصافية مجمع الفضائل. . .

* * *

إذا ذكر الأدب العراقي منذ العشرينات فصاعداً فلا بدّ لذاكر هذا الأدب الحي ودارسه من أن يذكر أديبنا الكبير الأستاذ الصرّاف ودوره المتميز في الحركة الأدبية بعراقنا الحبيب.

ولما كان الصرّاف تلميذاً وصديقاً للأستاذ جميل صدقي الزهاوي، يكتب عنه ويدافع وينافح منذ العشرينات. فقد اقترنت شهرة الصرّاف بشهرة الزهاوي. ولم يجد الزهاوي منصفاً كالصرّاف لأن أبا شهاب كان ولم يزل يجمع بين الالمام الأدبي الواسع والوفاء النادر..

والأستاذ الصرّاف أديب من طراز خاص انقرض أشباهه ونظائره في أقطار الدنيا تقريباً، وهذا الطراز النادر هو أدباء المجالس. فهؤلاء الأدباء يتحدّثون أكثر مما يكتبون ويبرعون في الحديث أكثر من براعتهم في الكتابة، ويجيء حديثهم، في الغالب، أروع من كتابة البلغاء وتأنّق الفصحاء. فالكاتب البليغ يتأنّى في اختيار ألفاظه ويتأنق وقد ينحدر في هذه العملية إلى مزالق الصناعة والتكلّف، أما الأديب المجلسي المشرّب بروح البلاغة، فإنه، في حديثه العفوي، بعيد عن التأنيّ والتكلف ما دامت ذاكرته تحفظ وأعصابه تنبض، فإذا خذله التعبير إلى حدٍ ما، استعان بأصابع كفيه وارتعاشات شفتيه مما يضفي على حديثه جوّ السحر العارم. وهذا هو شأن الصرّاف عندما يتدفق في حديث من أحاديثه الشيّقة..

وأديب المجالس إذا حاضر، وأتاه التوفيق في الارتجال أكثر من قراءة المحاضرة المكتوبة، فكأنَّ الارتجال بالنسبة إليه سباحة في بحر، وكأن المحاضرة المكتوبة عنده سباحة في ساقية!... فقد حضرتُ، في مستهل السبعينات، محاضرة للأستاذ الصرّاف في جمعية التراث، في

بغداد، عن الأطباء القدامى. وكانت محاضرة أبي شهاب ارتجالية لا ورقة فيها ولا رؤوس أقلام، وكانت أمواج رواياته تتدافع كما تتدافع أمواج البحر الزاخر، فسحرنا وشدّنا إليه بشكل غريب، وكان المرح يتصاعد، بين الفينة والفينة، من رواياته فيعصف بنا الضحك، فيزداد تدفقاً ومرحاً وسحراً...

وإذا قلتُ أن الأستاذ الصرّاف موسوعة أدب وتأريخ فأنا لا أبالغ في ذلك على الاطلاق. وله في رواية الروايات التأريخية أسلوب خاص يبعث الحياة في شخوصها فيكاد السامع أن يراهم ويسمع أصواتهم! ــ إنه سحر الرواية والصرّاف راوية لا يجارى!

* * *

بدأ الأستاذ الصرّاف حياته الأدبية بالنقد ثم مارس كتابة القصة، وشغلته «خمرة المتصوفة» فكتب عنها، ثم اتجه اتجاهاً قوياً ومركّزاً نحو الحكيم الشاعر «عمر الخيام» فترجم رباعياته نثراً نقلاً عن الأصل الذي نظمت فيه. وأكثر المنصفين يرون أن أفضل ترجمة نثرية للرباعيات هي ترجمة الأستاذ أحمد حامد الصرّاف. أما أفضل ترجمة شعرية لها فترجمة الشاعر المرحوم أحمد الصافي النجفي.

وقد صدّر الأستاذ الصرّاف ترجمته بمقدمة واسعة جداً، هي في الواقع دراسة مستوفية لحياة الخيام وعصره ومن نحا نحوه من الشعراء في بعض الأغراض، تصلح، لنفاستها، أنْ تُفرد بكتابٍ مستقل. وقد كان المفكر المعروف الأستاذ جميل صليبا منصفاً عندما قال عن هذه الدراسة الفريدة:

«.. والخلاصة أن في كتاب الأستاذ أحمد حامد الصرّاف كثيراً من

الحقائق التأريخية والأدبية وهي تدلّ على علمه الجم وأدبه الغزير. أحاط بحياة الخيام أحسن إحاطة وحلّل أدبه وعلمه وشاعريته أحسن تحليل، فالشكر لأدبه وفضله».

* * *

وللأستاذ الصرّاف اهتمامات بأمور الملل والنحل كان من ثمرتها كتابه الضخم عن «الشبك». وله المام واسع بخطط مدينة بغداد كان من نتائجه مساهمته مع الدكتورين المرحومين مصطفى جواد وأحمد سوسة في «خارطة بغداد قديماً وحديثاً».

وإذا كان نتاج الأستاذ الصرّاف يبدو ضئيلاً بجانب عمره الطويل وثقافته الواسعة والمامه العجيب، فلذلك ــ في اعتقادي ــ أسباب منها أن الوظيفة ــ لا سيما في المجال القانوني ــ قد استنزفت نشاط الأستاذ الفكري..، وهل يتسع الوقت لقاضٍ أو رئيس محكمة أو مدون قانوني لأن يشبع رغباته الأدبية واهتماماته التأريخية بالشكل المطلوب مطالعة وتأليفاً؟ ــ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه أنفق، في مجالسه الأدبية، الكثير الكثير من طاقاته الأدبية والفكرية التي لو دونت لأتحفت المكتبة الأدبية العربية بمادة وثائقية بالغة الأهمية في الأدب والتأريخ، ولو أتيح لأبي شهاب من يدوّن رواياته وأحاديثه الأدبية والتأريخية في مجالسه الاخوانية كما أتيح لكاتب فرنسا الأشهر «أناتول فرانس» لقرأنا البدائع والطرائف ووقفنا على العجائب والغرائب في مجال الأدب والتأريخ..

* * *

التقيتُ بالأستاذ الصرّاف، لأول مرّة، في أواسط الخمسينات، ولم أفترق عنه منذ ذلك التأريخ حتى كتابة هذه السطور (سنة ١٩٨٢).

وأشهد أني وجدته كبيراً في أدبه وفي وفائه وفي مرحه. ولو شئت أن أدون ذكرياتي معه خلال أكثر من ربع قرن لما اتسع لها غير مجلد برأسه!. لهذا سأكتفي في هذه العجالة بقطرة من بحر الذكريات. والقطرة هي بعض ذكرياتي عنه في رحلتنا المشتركة إلى لبنان سنة ١٩٥٧ التي لبينا بها دعوة المفوضية العامة للسياحة والاصطياف اللبنانية. وكنا قد سافرنا معاً بطائرة من طائرات الخطوط الجوية اللبنانية من نوع «فايكاونت». وقد آثرتُ الجلوس جوار أبـي شهاب على أمل أن أحاديثه ورواياته هي خير ما يزيل متاعب السفر ومزعجاته. ولكن الذي حصل لم يكن بالحسبان. فقد انقلبت الآية عندما صرتُ أنا المتحدّث والصرّاف هو المصغي! ولا أذكر أنه تكلّم إلاّ عندما وجدني أسليّ النفس برسم الوجوه، فأحسن الظن بقدرتي الفنية في مجال الرسم وطلب مني أن أرسم له لوحة نعلقها في غرفة الاستقبال كما أتذكر! وعندما وصلنا جبل لبنان سألته عن سبب صمته غير المألوف وغير المتوقع فقال انه كان يعاني اضطراباً في القلب ولهذا سكت مكرهاً...

ولم نكد نصل إلى فندق «رون بوان» في عاليه الذي حجزت فيه السياحة لنا غرفتين إحداهما لشخصين والثانية لثلاثة حتى اعتذر الصرّاف عن النوم في غرفة مشتركة!

ولما صارحه صاحب الفندق بأنه ـ أي صاحب الفندق ـ لا يستطيع مخالفة الحجز الرسمي قال له الصرّاف:

ـ بلّغ السياحة إنني لا أطير مع السراب!..

فاضطر صاحب الفندق إلى النزول عند رغبة الطائرة الذي لا يطير مع السرب!. ولم نكد نودّع صاحب الفندق لنتعرّف على غرفنا حتى همس الصرّاف في آذاننا:

ـ من منكم يطيق النوم في غرفة واحدة مع شخص لا يغمض له جفن ما لم يخلع جميع ملابسه ويندس تحت اللحاف (ربي كما خلقتني)؟ ـ فهذا هو شأني عند النوم، فضلاً عن أني لا أستطيع أن أنام ما لم أرش الغرفة بنفاثة عطرٍ خاص!..

وهكذا اقتلع أبو شهاب الحسد من قلوبنا اقتلاعاً وحمدنا الله على مزعجات الغرفة المشتركة بناء على قاعدة «على أن بعض الشر أهون بعض»...

وفي صباح اليوم التالي لوصولنا وبعد تناول الفطور جلسنا في بهو الفندق نتبادل الأحاديث المختلفة، فالتفت وإذا بفتاة جميلة تسأل صاحب الفندق عنّي، فنهضتُ وتوجهت إليها مسرعاً، فتبعني «الشيوخ» ولكن بخطى «الشباب»... وتزاحموا حول هذه الفراشة اللبنانية الباهرة الحسن التي سألتني:

ـ حضرتك الأستاذ حارث الراوي؟
ـ نعم.
ـ والأخوان؟ ـ أعضاء الوفد العراقي؟

ـ نعم.
ـ أنا مندوبة محطة الإذاعة البريطانية في لندن. أريد أن أسّجل لكم بعض الأحاديث الأدبية..

كانت جراح العدوان الثلاثي الإسرائيلي البريطاني الفرنسي الغادر طريّة تنزف في قلوبنا، ولهذا شعرتُ بوخزة في القلب عندما ذكرت الفتاة اسم إذاعة لندن، فانفعلتُ وقلتُ لها:

ـ بالنسبة لي لا توجد إذاعة باسم إذاعة لندن لأن اسمها قد تغيّر إلى «إذاعة العدوان» بعد العدوان الثلاثي الغادر على مصر الحبيبة، فهل تريدين مني أن أتعاون مع إذاعة اعتدى أصحابها على وطني؟! ـ إن عروبتي وضميري يمنعاني من التعاون مع إذاعة الاستعمار. .

ـ والأخوان؟

ـ اسأليهم. .

فتقدم الأستاذ الصرّاف مبتسمًا ليقول لها:

ـ لقد حسم الأستاذ حارث الموضوع. . ولكن أسألكِ، يا عزيزتي، هل تدفعون على الكلمة الواحدة لا المقال (وذكر مبلغاً بالباون الاسترليني لا أتذكره ولكني أتذكر أنه كان من الضخامة بحيث لا يرهق الإذاعة البريطانية وحسب بل يرهق المملكة المتحدة بأسرها. .) فضحكت الفتاة، وضحكنا، وهكذا عوّضها مرح الصرّاف عن الفشل الذي منيت به مع أدباء العراق. .

* * *

وكان الصرّاف متألماً جداً من عدم زيارة «أمين نخلة» لنا في الفندق، ولما زارنا الصحفي الشاعر «جورج رجي» ـ وكان يومئذٍ مندوباً لجريدة «الجريدة» اللبنانية ـ صارحه الصرّاف بذلك وعتب كثيراً على أمين نخلة فقال له جورج رجي:

ـ ألا تعتقد أنك تظلم أميناً في هذا الرأي، وهل تصرّ على نشره؟

ـ أرجوك أن تكتب عموداً كاملاً من عتبنا إذا شئت. .

ونشر «جورج رجي» عتاب الأستاذ الصرّاف على صديقنا «أمين نخلة» ولكن بعد أن جاء أمين نخلة ــ رحمه الله ــ إلى الفندق ليسأل عنا، وكان الصراف قد غادر الفندق إلى بيروت مع الأخوان لزيارة صديقنا «البرت الريحاني» بدار الريحاني للطباعة والنشر. ونظراً لضيق السيّارة التي ذهبوا بها فقد آثرتُ أن أهبط إلى بيروت بصورة مريحة في سيّارة مستقلة. ولما علم أمين بالأمر اصطحبني بسيّارته إلى دار الريحاني ببيروت حيث وجدنا حلقة من أدباء الشباب، وبعد السلام والكلام حضر الصرّاف مع زملائنا أعضاء الوفد العراقي وقبل أن يحيي أمين نخلة والحاضرين انهال على أمين لوماً وعتاباً وأنهى عتابه بقوله مخاطباً المرحوم أمين نخلة:

ــ إن كنت تلتزم بواجبات الصداقة فعلاً لا قولاً، فادع جميع الحاضرين، الآن، على أكلة سمك في مطعم، على البحر بشرط أن يكون السمك من نوع «سلطان ابراهيم».. وإلا فضحناك!..

فتبسم أمين بحنة وقال:

ــ تفضلوا!!

وذهب بنا أمين إلى مطعمٍ لطيف على البحر. وبعد الشراب والشعر والنكات جاء دور الطعام وجيء بالسمك. وكان أول صحن هو صحن الصراف العامر بسمك سلطان ابراهيم.. فاستبشرنا. ولكن سرعان ما خابت آمالنا عندما جيء بصحوننا وهي تحمل السمك العادي الذي ليس له لذة أو مجد سمك السلطان...

وانهمك الصراف بمغريات صحنه الحافل بالطيبات التي حالت بينه وبين المطالبة بحقوقنا المهضومة!

* * *

وكان في المنهج الذي أعدته لنا السياحة اللبنانية زيارة رئيس الجمهورية اللبنانية في مقره الصيفي ببيت الدين ثم الاطلاع على معالم قصر بيت الدين التاريخي. وأثناء زيارتنا للقصر المذكور وتجولنا في غرفه ومعالمه شاهدنا امرأة ساحرة الجمال يرافقها رجل ضخم الجثة شديد سواد الوجه تصرخ الدمامة في أساريره. فتألم الصراف هذه المفارقة التي شغلت ذهنه وأذكت فضوله ولا أقول أهبت غيرته العارمة. فكان بين الفينة والفينة يهمس في أذني همسات لاذعة عن هذا المحظوظ الدميم...

ثم كانت المفاجأة الكبرى عندما وقف الصرّاف فجأة في الحديقة المطلة على الوادي ورفع يديه متضرعاً إلى السماء وهو يقول:

ـ يا ربي. لا أريد منك شيئاً سوى سلّة من الليرات الذهبيّة وقصر على هذا الوادي الجميل وامرأة جميلة كهذه الحسناء.

وأشار عليها بيده. فضحكت الحسناء حتى كاد يغمى عليها من شدّة الضحك. وضحكنا مع الجمع الغفير من الزائرين حتى كدنا أن نسقط على الأرض.

□ □ □

مع إبراهيم معوّض

في «فندق ريفون» الكائن في مصيف «ريفون» اللبناني الجميل، وفي أمسيّة من أمسيات آب ١٩٦٣ كنتُ جالساً تحت شجرة الصنوبر الضخمة أتأمّل، بخشوع ولهفة، جمال الطبيعة اللبنانية الساحرة وأستنشق بنهم ما بعده نهم، الهواء العليل المنعش، وإذا بصاحب الفندق يقترب مني باسمًا – على غير عادته – ثم يشير إلى كهلٍ طويل القامة، أنيق المظهر، في وجهه سمات من وجه جبران خليل جبران وعلى ثغره ابتسامة هادئة رزينة ويقول لي:

– أودّ أن أعرّفك بهذا الرجل، فهو أديبٌ مثلك..

فنهضتُ وتقدّمتُ إليه فنهض الأستاذ هاشاً باشاً وقال:

– ابراهيم معوّض.

– حارث الراوي.

وكان لقاء أحبّه..

* * *

كان الأستاذ عائداً من رحلة إلى البرازيل، ولهذا كان يتدفّق في الحديث عن عجائب القطر البرازيلي وغرائبه ومفاتنه وخيراته. وعندما يتمادى في وصف سحر الطبيعة في البرازيل يستدرك قائلاً:

ـ ولكن لبنان أجمل.. ولا يوجد في الدنيا بلد يضاهي لبنان في جمال طبيعته وفي عذوبة مائه ونقاء هوائه وصفاء سمائه..

وبعد أيام وليالٍ أنفقتها مع إبراهيم في سمرٍ لذيذ وأحاديث ألّذ من الفستق المقشّر، أحسستُ إحساساً عميقاً أن هذا الرجل ليس بغريب عنيّ على الإطلاق، وأنه من أقرب الناس إلى نفسي ومزاجي..

ودار الحديث ذات مرّة عن شخصيات أدبية لبنانية غيّبها الردى وأخرى ما تزال تنعم بالبقاء، فرويتُ له ما أسديتُ لهذه الشخصيات المتوارية والماثلة من وفاء لم يقابل بوفاء..، وإذا بالرجل الهادىء ينتفض ويتأجج لهبٌ في عينيه العسليتين الواسعتين ويصارحني بأنه عانى من هذه الشخصيات بالذات أكثر مما عانيت، وأخذ يدعم أقواله بالشواهد المذهلة، فحمدتُ الله على أني لم أكن في حكمي على هؤلاء ـ سامحهم الله ـ من المخطئين...

وقد اتضحت لي الأمور التالية من خلال أحاديثي مع المرحوم ابراهيم معوّض: الأمر الأول هو أنه كان أكبر من وظيفته، وكان يشغل يومئذٍ وظيفة مدير لدار الكتب الوطنية في بيروت، وأنه كان ذا نفسية شبيهة بنفسية القاضي الجرجاني القائل:

يقولون لي ذا مورد، قلتُ قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما

فقد كان هدفه تعزيز شخصيته الثقافية وخدمة الثقافة، لا تبديل كرسيه الصغير بأكبر منه وأعلى مقاماً في عالم الوظائف، على حساب كرامته الشامخة، وقد روى لي بهذا الشأن حادثة خلاصتها أن صديقنا س

أصدقائه المقربين أصبح ذات يوم وزيرا، فاجتمع به إبراهيم في ديوانه الرسمي مع بعض المراجعين والأصدقاء. ويقول إبراهيم:

ـ فمازحته وتحدثتُ إليه حديثاً بعيداً عن الكلفة كما كنتُ أفعل معه قبل أن يتسلّم منصب الوزارة، ولما اختلى بـي بعد ذهاب القوم عاتبني قائلاً: «كيف تمازحني وتتحدث معي من غير كلفة متخطياً قواعد البروتوكول؟. فأنا الآن وزير.. وينبغي أن تحدّثني أمام الغير ضمن حدود الرسميات..» فقلتُ له: ما كنتُ أدري أن منصب الوزارة أكبر منك قبل أن تحتج على أسلوبـي الأخوي الطبيعي، وأرجو أن تعلم بهذه المناسبة بأن منصبك الحالي لا يعادل عندي كعب حذائي، ولو شئتُ أن أسلك طريق التملّق لتسنمت كرسيك منذ أمد طويل، وحسبـي أن أعرف قدر نفسي في حين أنك لا تعرف قدر نفسك...

والأمر الثاني الذي اتضح لي من خلال أحاديثي مع إبراهيم هو أنه كان يحترم عقيدة ورأي غيره ولا يوّرط نفسه في الخوض في الأمور التي تتصل بالعقائد الدينية أو الاتجاهات السياسيّة.

والأمر الثالث الذي اتضح لي من خلال أحاديثي مع ابراهيم أنه يحب وظيفته المكتبية حباً جماً ويؤثرها على سواها من الوظائف المغرية، فإذا تحدث عن الكتب والمكتبات ووسائل وطرق تنظيمها في العالم، تدفّق وأفاض وأسهب كأنه يتحدّث عن طفلٍ من أطفاله أو عزيز من أعزائه مما يدل على شدة إخلاصه في عمله..

* * *

لم أكن أعلم أن ابراهيم معوّض من الشعراء قبل أن يفاتحني بالموضوع ويخبرني بتواضعٍ جم بأنه جمع ديوانه في دفتر وأنه يفكرّ في

طبعه بعد تنقيحه. وقد أنشدني قصائد عديدة من ديوانه المخطوط، فدّونت ثلاث قصائد منها في دفتر مذكراتي للذكرى.

وليس في شعر ابراهيم ما يؤكد الوثبة العالية أو يبشّر بها، وليس فيه من الصور المبتكرة والديباجة المشرقة ما يجلب الانتباه أو يثير السرور والدهشة. ولكن ــ والحق يقال ــ إن العاطفة فيه تترقرق وتتدفق ولو لا ترقرقها وتدفقها لما وجدنا في شعره عذوبة كالعذوبة المتجلية في رثائه لوالدته حيث يقول:

طلعَ الصباحُ على ظُلَمْ ... يا أخت واستعرَ الألمْ
ألم تصاعد من خيوط النو ... ر في أعلى القممْ
ألم تفجّر من مرارة عيشنا ... في المدلهمْ
أخنى على الأيتام في ... عمر الورودِ بكل همْ
وتكاثفت أوزاره ... حتى الربيع لها وجمْ
أين الحنان يرفُّ يا ... أختاه في يتمٍ ألمْ
أين الهناء يدغدغ الأحلام ... في ليلٍ أصمْ

إلى أن يقول:

لم ينصف الدهر الخؤون ... بما علينا قد حكمْ
فأمشي أيا أختاه نحو ... الرمسِ نستجدي الرممْ
عطفاً وتحناناً فقلب الأم ... في تلك الظُلَمْ

* * *

وبعد عودتي إلى بغداد لم تنقطع الرسائل بيننا حتى وفاته. وما زلتُ محتفظاً بها، معتزّاً بما حوته من مشاعر أخوية وأفكار طيبة. وحسبي أن

أقتطف سطوراً منها وفقاً لتسلسلها الزمني. قال في رسالته المؤرخة ٢٤ أيلول ١٩٦٣:

«... هذه عباراتك المعسولة الآن أمامي وكأني بوجهك الصبوح يتلوها عليّ والابتسامة تعلو الثغر فتذكرني بأويقات حلوة وساعات طيبات نعمنا بها في أرجاء الجبل، فيا ليتها طالت. تلك الذكريات وهذه الأسطر اللطيفة تعبران بإخلاص عن عاطفة مخلصة وروح شاعرة كبيرة وأدب جم حر. وأرى من خلال سطورك أصداء هذه الروح تتبلور وتنعكس على مرآتها فتشاهد فيها مزايا الغير وما هي بالحقيقة بغير سجاياها الطيبة نفسها. فألف شكر لحسن ظنك».

إلى أن يقول عن مسوّدة ديوانه:

«بخصوص ديواني. المسودة يلزمها تبييض ولن أتمكن من المباشرة بالعمل قبل شهرين أو ثلاثة نظراً لتراكم الأعمال الإدارية في بدء السنة الدراسية في الجامعة وكثرة المعاملات، وإن شاء الله في مستهل الفصل الآتي أتفرّغ للعمل (إذا أحياني الله) وأرسلها إليك لتضع المقدمة مع الشكر الجزيل».

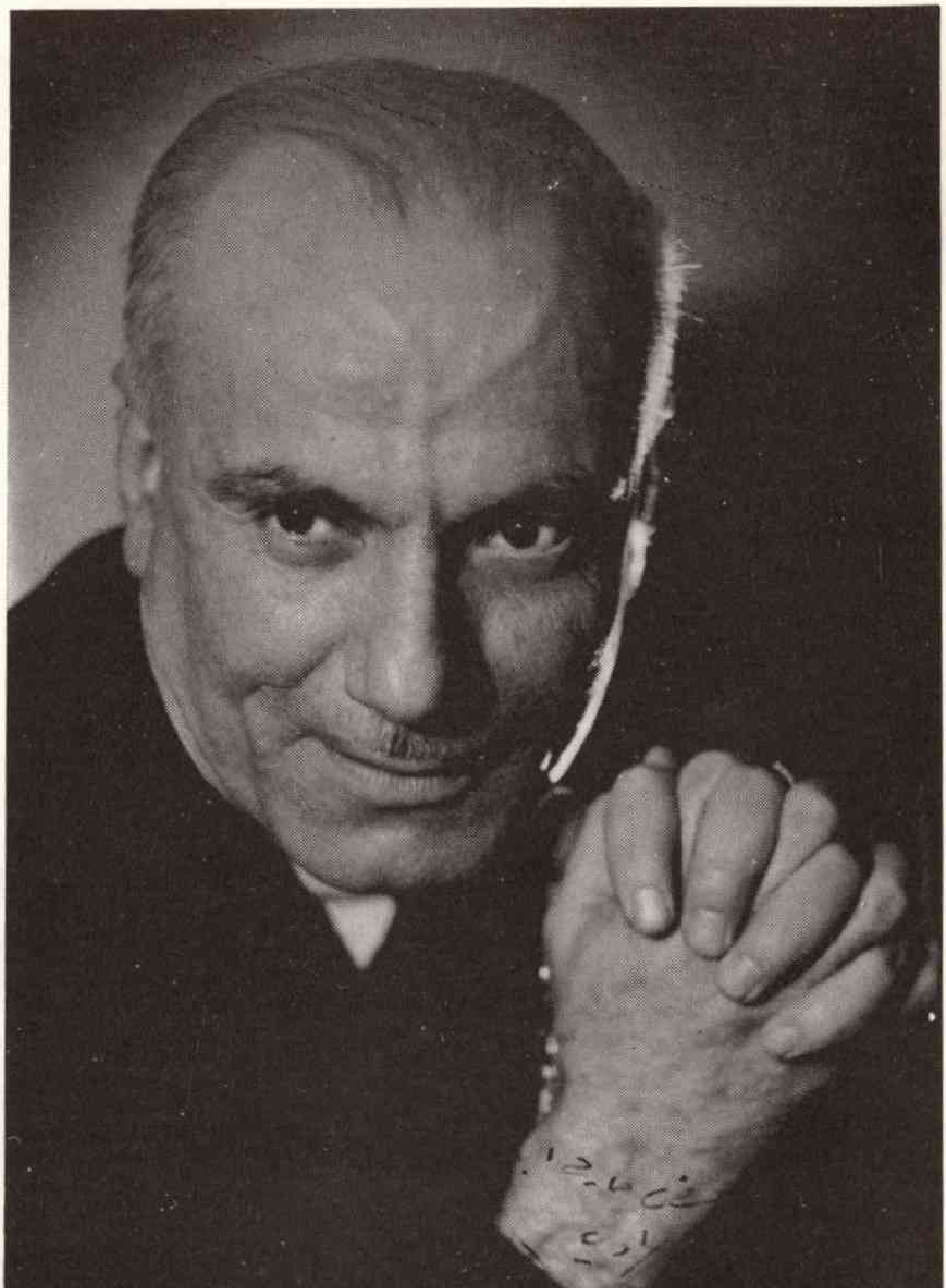
الفهـــرس



الشيخ محمد رضا الشبيبي



معروف الرصافي



صورة رفائيل بطي مهداة منه الى حارث الراوي



الاديب المصري محمود تيمور



صورة نادرة لاكرم أحمد مع استاذه وصديقه
جميل صدقي الزهاوي في أواخر العشرينات



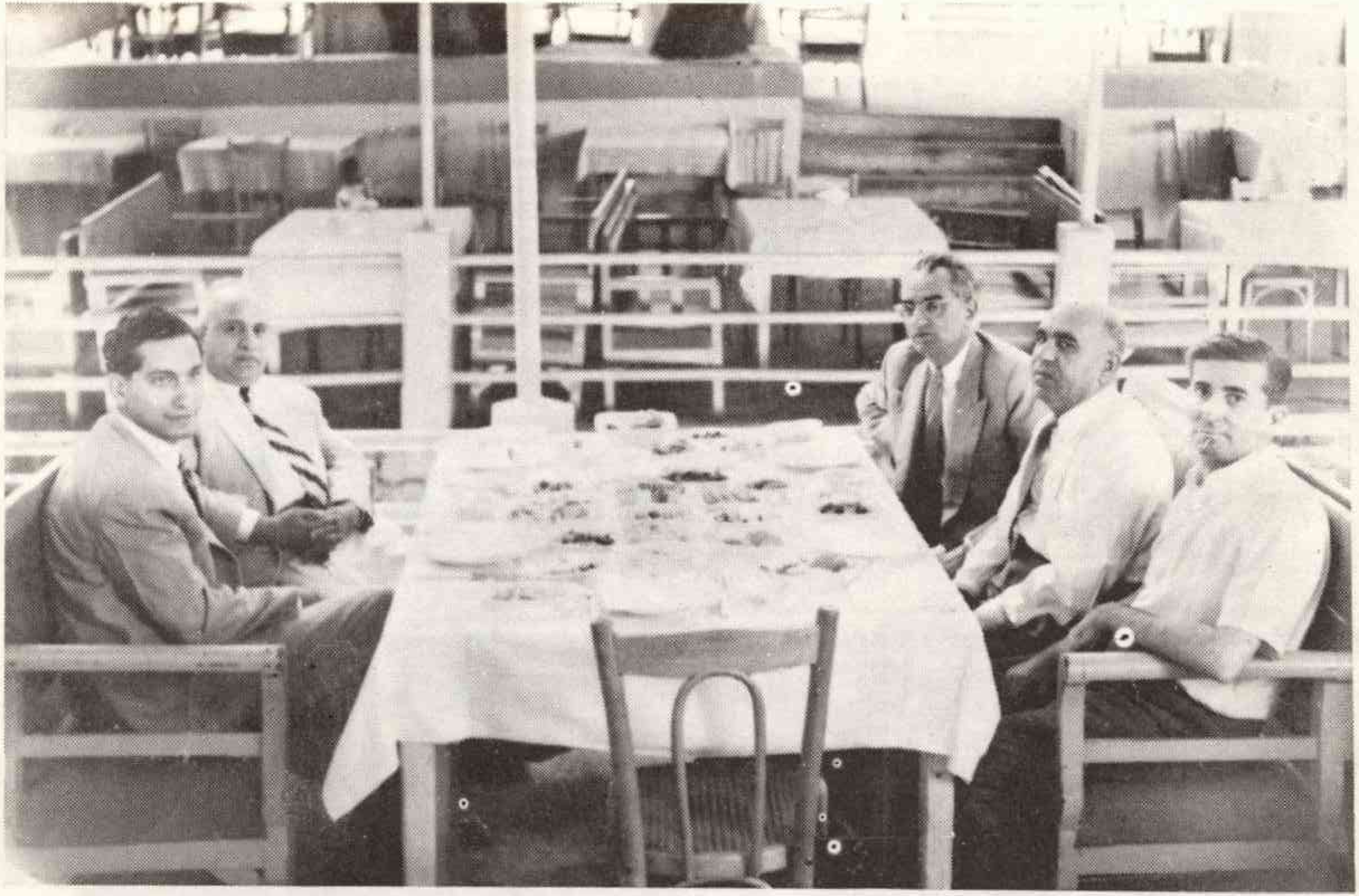
ميخائيل نعيمة واضعا يده اليسرى على كتف حارث الراوي
مظهرا في ذلك محبته العميقة وبساطته الصادقة ، وقد
أخذت لهما هذه الصورة في سوق الغرب يوم ٢٢ تموز ١٩٥١



من يمين المشاهد : سامي الكيالى ، الشاعر القروي ، حارث الراوى ، وديع ـ سنة ١٩٧٢ في لبنان



أمين نخلة ، حارث طـه الراوى ، خالص عزمي في دار الجواهرى سنة ١٩٥٦



حارث الراوى ، مصطفى جواد ، عبدالرزاق محي الدين كوركيس عواد



أحمد حامد الصراف في شبابه



حارث طه الراوى مع خالد الدرة في منزل حارث
أثناء دعوته لامين نخلة سنة ١٩٥٦



منير القاضي يملي على حارث طه الراوى قصائد ديوانه
الذي لم يطبع حتى الان وذلك سنة ١٩٦٢ في المجمع العلمي العراقى



من يمين المشاهد : خليل الهنداوي وحارث الراوى
بحديقة أبي فراس بحلب صيف ١٩٧٠



في دار أحمد حامد الشربتي
الشاعر الكبير الاستاذ رشيد سليم الخوري
(الشاعر القروى) مع حارث الراوى في ١٢ـ٤ـ١٩٧١



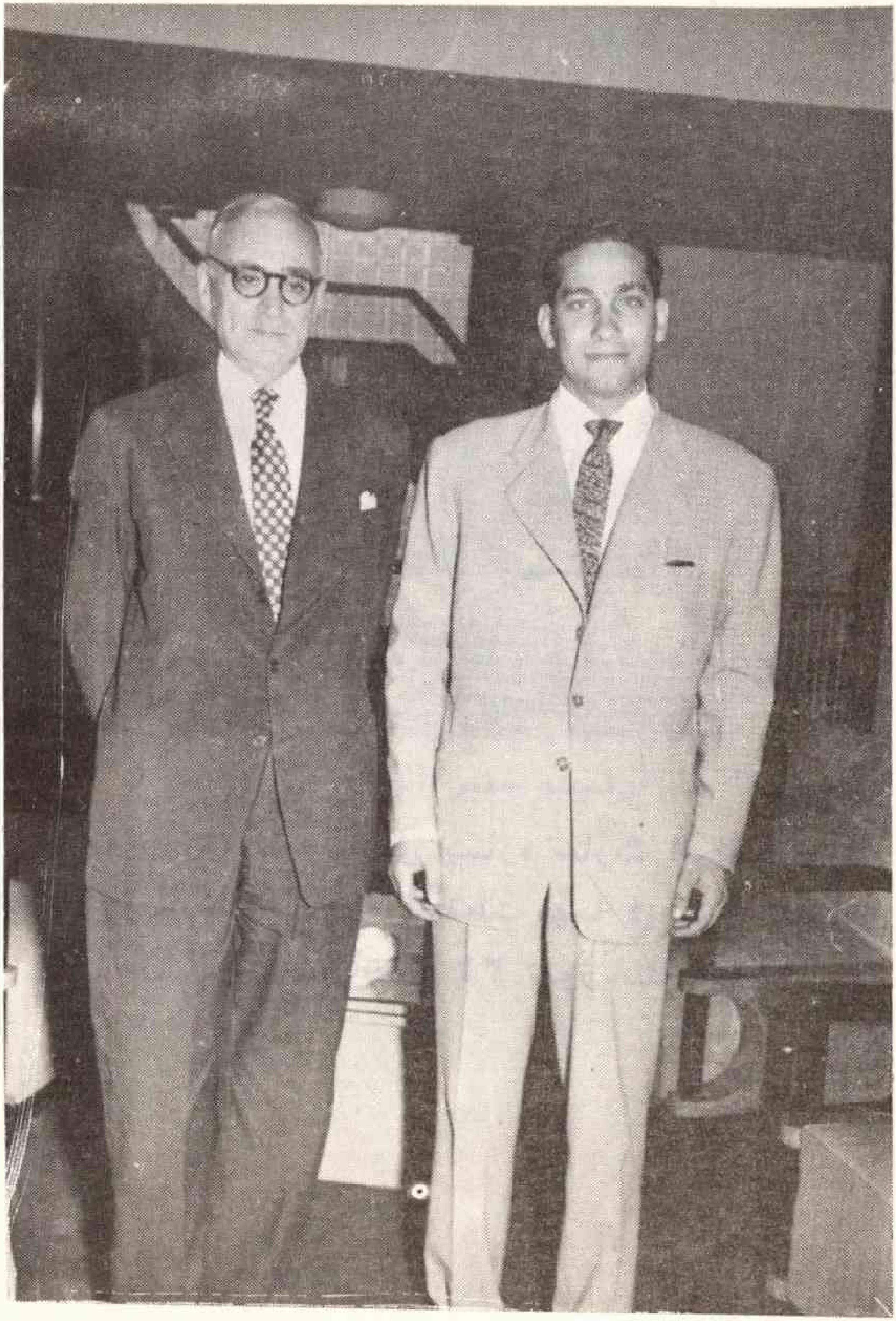
مع الشاعر الكبير محمد الفراتي سنة ١٩٦١



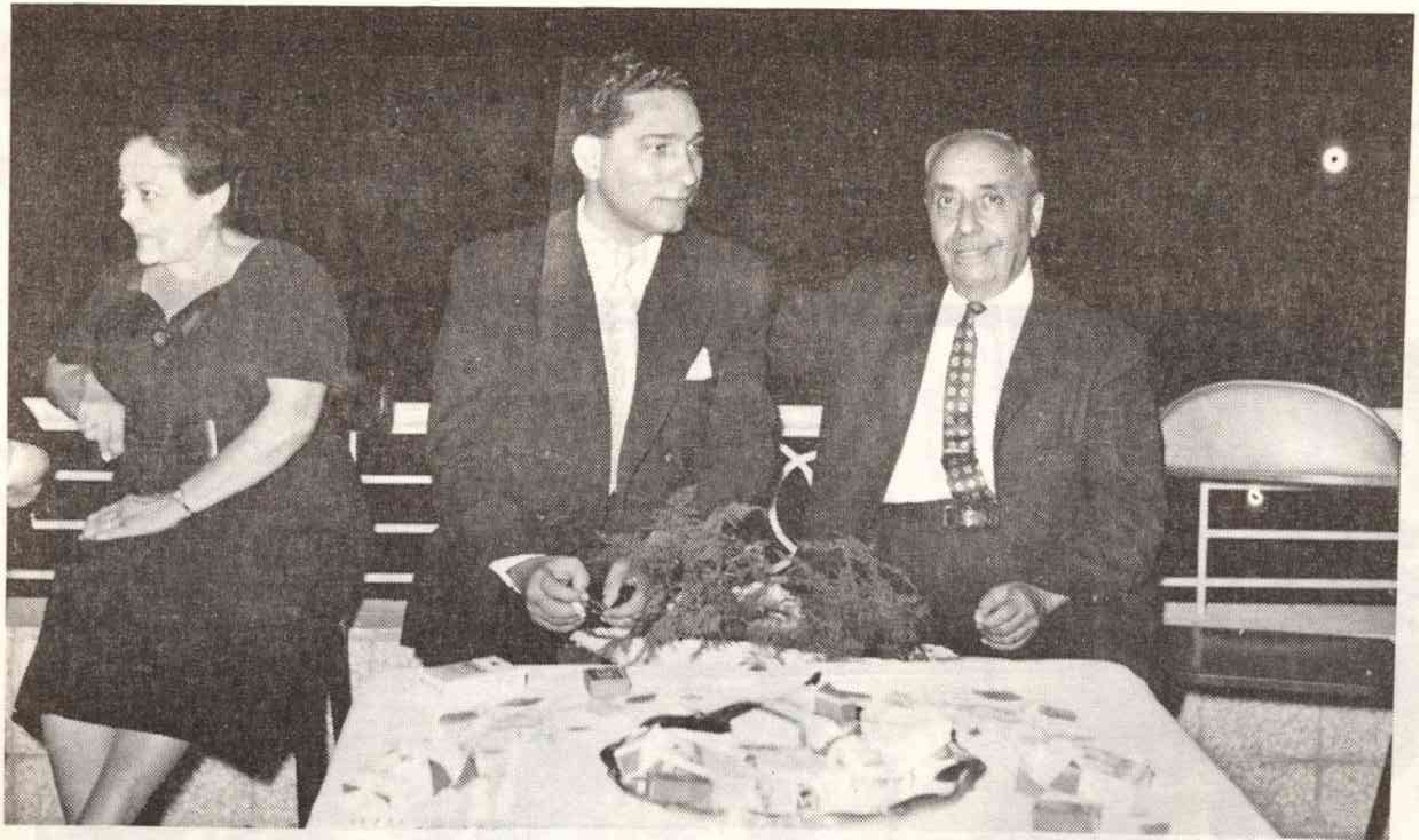
خالد الدرة ، حضر الولى ، حارث طه الراوي
في منزل الدرة بساحة عنتر ـ ١٩٦٠
من أرشيف خضر الولى



ميخائيل نعيمة والى يساره حارث الراوي
في صورة تذكارية نادرة التقطت لهما في سوق الغرب ـ
رأس الجبل بلبنان في ٣١ تموز سنة ١٩٤٩



حارثطه الراوي الى اليمين والشاعر القروي الى اليسار
في فندق سميراميس بدمشق صباح يوم ٨ ايلول ١٩٥٨



من يمين المشاهد : عبدالمسيح حداد ، حارث طه الراوي ،
الاميرة نجلاء أبو اللمع في بيت المرحوم أمين الريحاني ٢٨ـ٨ـ١٩٦٠



في دعوة عادل عسيران رئيس مجلس النواب اللبناني يوم ٢٤ ايلول ١٩٥٤
ويبدو من اليمين الى اليسار : ١ـ صلاح لبكى ٢ـ زاهية أيوب ٣ـ عبدالحميد كاظم ٤
ـ معلمة فلسطينية ٥ـ عادل عسيران ٦ـ زاهية قدورة ٧ـ عبدالرحمن الجليلي ٨ـ حبيب
جاماتي ٩ـ واصف البرودى ١٠ـ أحمد رامي ١١ـ محمد قره على ١٢ حارث طه الراوى

رسالة من أحمد حامد الصراف الى حارث الراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الى زين الشباب العلوي الحفي الاستاذ السيد حارث الراوي الحبيب

سلامة لك وسلام عليك؛

وبعد فانك قد انبأتني قبل ايام انه في العشرين من هذا الشهر تمر خمسة وثلاثون سنة وينيف على اختفاء العلامة المرحوم الوالد، وقد هزني ذلك هزاً عنيفاً هز جوارحي وجوانحي، حيث تذكرت فضله عليّ ...

ولما كنت وانت المتحدر من الاصلاب الطاهرة قد خلعت عليّ شملتين بدويتين وطوقت عنقي ببردتين فقد كتبت هاتين الصفحتين لعلي اكون قد وفيت شيئاً من الدين، واقسم والله القسم لولا كسلي في اليدين لكتبت الكتب فصولاً عن ادبه وفصولاً عن خلقه الشريف، اذ لا ينسى فضل الكريم الا اللئيم الزنيم ...

وبكلمة موجزة، لقد كان الرحيم «نقياً» متعففاً متصاوناً لم يغتب احداً ولا اسمع انساناً الرفث من القول والبذيء من الكلام يحب الخير وعلى ضد التعبير الشائع على افواه الناس كان «محترماً»

هذا ما اعرفه عن ابيك «والفضل ما زال الورد إن ذهب الورد»

اخوك

[illegible]

١٦ ربيع الاول ١٩٨٦

رسالة من ابراهيم معوض الى حارث الراوى

الجمهورية اللبنانية
الجامعة اللبنانية
المكتبة
رقم

بيروت في ٢٤ ايلول ٩٦٢

يا صديقي الحبيب واخي الشاعر الاستاذ حارث

يا مرحبا بالصديق المخلص بلبل بغداد الصداح واديبها الشاعر الاخ حارث اقرأ سطوره الرقيقة بعد ان نعمت بأحاديثه اللطيفة زمنا طيبا في ربى ريفون. وسامح الله صديقنا فليب صاحب الاوتيل كيف اعاد كتابك الى بغداد وهو من قدامى المعارف الذين يعرفون الدار في الشام ويجهلونها. انما اعتقد انه كان غائبا عن الفندق فتفضل احد الخدم وسطر تلك العبارة فكان ما كان.

الخلاصة هذه عباراتك المعسولة الآن امامي وكأني بوجهك الصبوح يتلوها علي والابتسامة تعلو الثغر فتذكرني بأوقات حلوة وساعات طيبات قضيناها في ارجاء الجبل فيا ليتها طالت. تلك الذكريات وهذه الاسطر اللطيفة تعبران باخلاص عن عاطفة مخلصة وروح شاعرة كبيرة وادب جم جم أرى من خلال سطورك اصداء هذه الروح تتبلور وتنعكس على مرآتي فنشاهد فيها مزايا الفكر وما هي بالحقيقة لغير سجاياها الطيبة نفسها فالف شكر لحسن ظنك.

كيف حال العائلة الكريمة والسيدة قرينتك والزغاليل؟
اتمنى للجميع صحة طيبة ورغدا وهناء وارجو ابلاغهم تحياتي

وتحيات عائلتي

بخصوص ديواني . المسوّدة يلزمها تبييض ولن اتمكن من المباشرة بالعمل قبل شهرين او ثلاثة نظراً لتراكم الاعمال الادارية في بدء السنة الدراسية في جامعتي وكثرة المعاملات، وان شاء الله في مستهل الفصل الآتي اتفرغ للعمل "اذا احياني الله" وارسل اليك النصّ المقدمة مع الشكر الجزيل

سابلغ تحياتك الى الصديقين كاتسفليس والصحفي الشاعر جوليو شبلي عند اول مقابلة

نحن مع العائلة بخير شكراً لله تحفظ لكم جميعاً اجمل الذكريات ونشكر ذلك الظرف الطيب الذي عرفنا بكم يا اخي وعسى الله يجمعنا في العام القادم في ربوع لبنان الذي احببتم كما احببتموه

الآن ارسل اليك بعض ابيات نظمتها مؤخراً بذكرى ميلاد ابنتي الحبيبة نادية وذلك في رينون قبل نزولي الى الشام عساها تروقك وتعطيني رأيك بها لنتعلم الكتابة بيننا لحين الاجتماع.

اشكرك على دعوتك الاخوية لي اذا زرت بغداد فكن على ثقة انه اذا حظيت بهذه الزيارة لا اتأخر عن القيام بالواجب والله يحفظك

ختاماً لك احرّ الصلات واخلص التحيات من اخيك

[signature]

العنوان: ابراهيم عوض
الشام - بيروت

ألف ليلة وليلة

مجلة قصصية اسبوعية * بيروت

حضرة الاستاذ الكريم

تحيات عطرة. اشكر لك حسن ظنك بي وارجو لك التوفيق في سعيك،
واطلب اليك ان تقبل مني هذه القطعة من بياني وحي جديد المقلّ، داعياً لك
[illegible] الصبوة وبالعمر الرغد ولها بالسلامة من الاخطاء المطبعية
ان للعراق فينا لهبة من حنين

بيروت ٢ حزيران ١٩٦٠

كرم ملحم كرم

محمد !

الصغر

على بساط الرمال [illegible] بشنشة ندية، عشية هينة الحلم الصافي تحدد العراء الراكدة وتلوي بمغاني الربيع. وفي آفاق مكة يتبسم الضحى عن غمائم اتشحت بالمجد وكأنها تحية السماء المعطاء للأرض السكرى. فالوجود فرح بوليد مستفيض الوجه، رقيق الجبلة، كبسمة الزهر في عتبة الزمن.

ويتفتح البشر في مكة الظامئة فاستيقظت ولوح الطيب يطرق أنفاسها. فاليتيم استنشق نسيم عرف الحياة، مات أبوه وهو جنين يأوي إلى رحم، وحرمت اليتيم قبل أن يروح في عينيه النور. واحتضنه جده عبد المطلب فدفعه إلى البادية تتعهده حليمة بنت أبي ذؤيب بالحنان. ولم تسترده آمنة، أمه، إلا وهو ابن أربع. تناغيه فيزقزق لها كالطائر الصداح.

ولكن آمنة لم تستمتع بالأمومة. فما درج محمد إلى السادسة حتى اعتكرت على أيام الحياة. فأغمضت عينيها على طيف وحيدها واستودعته جده الحنيفا. ولم يعمر عبد المطلب فمات ومحمد، صغير، في الثامنة. فحنا عليه أبو طالب عمه وخرج به وهو في الثالثة عشرة إلى دمشق في تجارة. فمشى عليه «بحيرا». فتلقت الأسرار وأعاده من الطريق.

*

فيا للطير المتهور في مستهل ظهور. تقاذفك الآلام من يتم إلى يتم كأنه استحق أن يرش طريقك جوعاً.
وما اكتفى الزنيم فاستعدى عليك قومك وأنت تحمل إليهم من غار حراء وحي ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق.
وطال العدوان واستشرى وأنت أنت، تروض الشدائد بجميل صبرك فتليه كبرياءك. وتتقي الروح إيمانك بصدق رسالتك فتظفر بالغوشي وحدة أثر وحدة كحلقات سلسلة مفككة. فإذا بجحودك مكة والتفات المدينة.
وإن تبغي عليك قريش بأوشاظ وأنت منها - ومن كرامة لنبي في قومه! - فلمن ينكرك الأوس والخزرج وقد مالوا عليك بالنصر. وإذا لوت أحد من عنانك فالخندق جلت عنك غرق المشركين، والحديبية أباحت لك الدور في ميثاق. وخشي أبو سفيان على قومه من صولتك فذلل أمامك منعة قريش، وفتح لك أبواب مكة المستسلمة إليك طوعاً ورضا. فاقتحمت الكعبة تحطم فيها الأصنام وتنادي برب واحد لا شريك له!

*

أيها اليتيم اللائذ ومعطاء ظلالك، يا ابن عبد الله، أنت في الجهاد تجمعه [illegible] محبة ولقيت. ولولا تضحيتك لم يتر جلالك. فالنبأ القرون بالحكمة قد خطوك. فما انثنيت على غؤورك في اللجج. أمعنت الأسئلة [illegible] في طريقك وحيداً تتوكأ على يتمك ووجهك، وتتذوق الاضطهاد حتى ألفته ورضعت جماحه. يقاتلك أبناء أمك [illegible] فتستقبلهم بصلب عقيدتك. وغبت جرارة اليتم حتى باتت [illegible] المناحة عند اليتيم أحلى مثال - نبيلاً اليتيم لا تقهر! - وعلمت أن الحق مغمور، وأن الشادي به كافر، فشرعت في درء الباطل، ولقنت الأعقاب أمثولة النضال فإنه من يلسوا في سعيك الغلبة أن الفوز للمناضل الراسخ القدم، لمن لا تبطله الشراد [illegible] فيغوص على المطامع [illegible] بجشع النهم، ولا تهد هيله الأنواء فينو تحت عبطها في غشية الخذلان.

*

أيها الرسول النالق من حصانة، أيها الأمي المتألق في جوامع العرفان، لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة
وليته شاء فدفع عنا محنة التفرق في الدين والتشتت في الوحدة. فيقوم هذا الوطن على أكتاف أمة منسجمة العقيدة، متراصة اللحمة، كالأصابع الخمس مشدودة في قبضة.
هنيئاً لليتامى أبناء أخيهم محاميهم. فالرعشة الندية المنتفضة بين رمال الصحراء هدمت الأصنام، وقوضت الأصنام، وجادت على العرب بملك رفيع العماد، عالي القباب، سيطروا به على المشرق والمغرب. على أي وردة: لو قنع العرب المستظلة سماء الشرق، تجمع صدورهم أبد الدهر، وسعوا به مجدهم، وتنفذ كلمتهم، لما ملك الأمم - بعقيدتهم - دولة لا يبلغ الأرض آخرها تناثرت واضمحلت ولم يبق منها غير الذكرى.
إن العرب لوحدة يجب أن تعيش، فأين هذه الأديان تتصافح [illegible] بإخلاص - بإخلاص! - [illegible]
فتنبذ جدل السياسة والدين وتبني على أنقاض الوطن؟

كرم ملحم كرم

بيروت

رسالة من سامي الكيالي الى حارث الراوي

سامي الكيالي

حلب: ٢٠/٨/١٩٧٠

الأديب الشاعر الأستاذ حارث

تحية الود والمحبة والتقدير لمواهبك المشعة وبعد فقد أنست برسالتك كل الأنس. ووددت مخلصاً ان لا يشوبها خلفك بالوعد وأنت الحريص على الوفاء بكل ما تعده. لقد وعدتنا ان تعود الى الحمدانية التي أحببتها وان تقضي معنا عدة أيام قبل العودة. وأخبرني الأخ عبد الله انك وعدته بذلك.. وانتظرنا الى ان حمل البريد هتيف صوتك من بغداد فاستقبل الإخوان هذه المفاجأة غير المنتظرة. وعهدي بك انك لا تخلف الوعد، ولعل ظروفاً اقسرتك الى العودة من دمشق..

أشكرك على صدق عواطفك وأرجو ان تسمح الظروف بزيارة العراق العزيز لتحقيق فكرة كتابي عن الأدب العراقي فالمشروع لا يزال قائماً. وهو فكرة لا تزال تختلج في النفس، وآمل ان احققها وانتجها على الوجه. ورأيي في الأدب العراقي انه أدب عريق، يتميز

بالأصالة والجدة معاً ، وهو معتبر أحد من يعبر عن الخصائص
العربية المتميزة ، أي لون من التجديد الذي يتجاوب مع
نزعات العصر ، وقد خط خلال السنوات التي قرّت
بينه الحرب ، خطوات جريئة ، وصدرت كتب ورسائل
على جانب كبير من القيمة الأدبية . وفي نفسي الكثير من
الحاجات أريد أن أسألها بتوسع ، ولا أعلم متى
سيحين هذا الوقت .. إن المشروع ضخم وقد استعنت
بأكثر من من إخواني ، ولاسيما وبعضهم قد تحكّ
هذه الظواهر بدراسات ستكون مرجعاً .
وأنا لتقي بهم جميعاً وكلهم رمز الوفاء وسلامة
الأدب .

وختاماً أرجو أن تبلغني الأخ العزيز الشاعر
العظيم الإنسان حافظ جميل أحلى ما أكنه له من
ودّ وحب وتقدير ، متعه الله بأحسن صحة
ولا تنس بقية الإخوان ودمت لمحبك المخلص

اخي الصديق الوفي حارث

بيروت في ١٤/١٠/٦٣

ابعث تحياتي واشواق القلب داعياً لسلامتك والعائلة المحروسة وبعد قراءة رسالتك الاخيرة امامي تذكرني العبارة المأثورة قالها العالم الفرنسي بوفون Buffon يوم خطب في المجمع العلمي الفرنسي قال Le style c'est l'homme même اي الانشاء هو الشخص بعينه، وبعبارة اوضح: الكتابة تعبر عن نفسية الكاتب فسطورك التي تنضح بعبير الوفاء والاخلاص والمحبة الصادقة ما هي الا صدى لشخصيتك وصورة واضحة عن نفسيتك فحتى زمن عز فيه الوفاء واصبحت الصداقات الحقيقية نادرة بل غير موجودة فحياك الله يا ابا طه واكثر من امثالك من ارباب الاخلاق الطيبة والشعور المرهف

نحن هنا بخير من فضل الله مع العائلة . الاشغال كثيرة في مطلع هذا العام الدراسي والاوقات ضيقة حتى للراحة ـ سأعمل بتصحيح لبعض ديواني انما اشعر سلفاً انه ينقصه مراجعات وبحث وهذا ما لا اجد له الوقت الكافي الآن فعلى الله التيسير

بلغت سلامتك الى بديع شبلي . اما الاخ فيليب كشفيس فلم اعد اراه منذ مقابلتنا الاولى وقد طلبته تلفونيا فلم اجده ـ كذلك الاخ البرت ريحاني ـ وعلى كل حال سوف ابلغهما سلامك لدى اول مقابلة

لا يوجد عندي الآن ما أنشره من شعر الوقت إنما نُشر لي كلمة
وجيزة في الورود عدد أيلول المنصرم "عن بيت أبي عمر"
أظن أنك طالعتها - والعدد المذكور غير موجود تحت
متناول اليد لأرسله إليك - فإذا كان لم يصلك
عرفني وأنا أطلبه من بديع وأوصله إلى الصديق

عائلتي تهدي عاطر تحياتها إلى السيدة أم طه وإلى
الزغاليل الأعزاء ولك أيها الأخ الحبيب أخلص
عواطف المحبة وأرق القبلات من أخيك

م أشكرك جزيل الشكر على كلمتك بابنتي جميلة ندى
وهي تشكرك معي على عطفك سائلين المولى أن يريك
فلذات كبدك كباراً تفخر بهم وتزهو. إنه خير مسؤول

رسالة من ميخائيل نعيمة الى حارث الراوي

ميخائيل نعيمة
بسكنتا - لبنان

١٧ تموز ١٩٧٠

عزيزي حارث

تلقيت رسالتك التي وصلت ما انقطع بيننا لأسباب أنت أدرى بها. فسرّني أنك باقٍ على ولائك لرجل ما تمنّى لك يوماً إلّا الخير.

فقدت أمّك ولكنك لم تفقد محبتها. فقلوب الأمهات لا تموت حتى وإن هي كفّت عن النبض. فتيار المحبة الذي انطلق منها تيار لا ينقطع أبداً.

أصبحتُ لا أقوى على الكتابة إلّا بالكثير من المشقة. وذلك لارتجاف يدي عند الكتابة. فاعذر اقتضاباً في جوابي وتقبّل أطيب السلام وأصدق الدعاء من

المخلص
ميخائيل نعيمة

رسالة من خليل هنداوى الى حارث الراوي

UNION DES ECRIVAINS ARABES
Bureau d'Alep

اتحاد الكتاب العرب
فرع حلب

١٩٦٢/٦/٢٢

أخي الحبيب !

تحية طيبة :

ها عامان ... بل أعوام : ها أعوام تطول وتطول كالأبد !
وفي أعماق هذا الصمت الموحش، ارتفع صوت حبيب يؤنس الوحدة، ويقتل الوحشة، في لحظة وقتية كانت هاني
مثل ذلك الرهان على وجهي، في صحراء الغربة والضياع، ...
سمع صوت ذئب الرحابنة، فهش خوفاً، وقال :
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسان، فصحت فكدت أطير !
... وذلك الإنسان !

لقد أتاني كتابك المستوحى من الشرفة المهجورة، لصديقنا الحبيب، وتوهجت صداقة السنين ؛ وتألقت الكأس المترعة بحبيب الحب والود ! فأنت غائب حاضر، وبعيد قريب. وما أشهى الحياة إذا لم تختنق بالذكريات.

لقد سرني جداً أنك غادرت الأربعين التي أصبحت وراء ظهرك. ورجونا أن يسعدنا فيه تهش الضلوع إلى الضلوع، كما تهش الربوع إلى الربيع، ونجلس معاً نستعيد الذكريات، ونغيب في عالم التأملات.

فإذا نزلت حلب أولاً، فإنني أرجو أن تنزل في بيتك فهو بيتك
حيث أنت، وهو بيتك حيث كنت.

وسرني جداً أن تعلمني بالمجلة التي ستصدرونها،
ومن ذا يحظى بمطالعة هذا الأثر بأطيب مما ينشره والحارث؟!

أهلاً أهلاً. شهباء الحبيبة تنتظر الحبيب.

تحياتي أم كمال، والأنجال إلى الأسرة الكريمة وما تضم
الأسرة! نحن لكم منتظرون... ولقاء أم طه بأم كمال
سيكون حدثاً رائعاً...

عالم القطط لا يزال ينعم بالهدوء... وإنه لهواء حبيب إليّ،
لأنه أصدق عاطفة من كثير من الناس.

خليل
الهنداوي

تحياتي للأستاذ جعفر الحنبلي الحبيب

رسالة من الشاعر القروي الى حارث الراوي

17-4-65 = 16 ذو الحجه 84

اخي العزيز ابا طه لاعدمته

احتضانة العروبة البريئة من كل شك مريب

وبعد ورد كتابك وجريدة "البلد" الغراء وفيها موجات ناعمات رفيقات من رافدي محبتك ولطفك، هفت اليها بالترحاب موجات الشاطئ البرباري الذي تهواه ويهواك حتى كادت ان تعبر اليها السهل الذي يفصلها عن بيت اخيك لولم اكفها واكفه مؤونة هذا الحب الجارف ... بأن حملت عنبكم الشامي الدوام والسقام. الى ملحنا الذي يصلح الطعام. فتعانقا عند "مجمع البحرين" على الطرب انغام القبلات. والطيب قبلات الانغام.

عزيزي لقد استقبلت بابتسامة الرضى والشكر ملاحظتك على مبالغة البيت

مقطوعة واحدة تنحني كل الدواوين لها خشعا

فهي حقا لاتتجاوز حد المبالغة حسب، بل حدّي الغلو والاغراق كذلك .. وعذري في هذا التضخيم اولاً انه تعبير عاطفيّ عن فرحي غير المحدود بسماع صوت اخي الحبيب

قبضر ونداء روحه الذي ينعش قلبي، وكلانا يائس من اللقاء
بعد في هذه الدنيا، الا بقدر لطيف من رب العالمين،
الرحمان الرحيم. وثانيا لان هذه المبالغة من الوضوح
بحيث يفهمها الجاهل والعاقل على السواء، فهي لا تغش احدًا
ولا تحمل محمل الجد من احد. وحري بكل من هو ادنى
الى حسن التاويل ان يطلق حال سماعها او قراءتها
القول المأثور: اعذب الشعر اكذبه.

ساعود فاكتب لك في فترة اخرى بصدد قصائد
المدني المحفوظة مسودتها عند انسبائنا في بيروت
واني لاشاركه الثناء على ادبك واهتمامك بهذا
الموضوع كما اني ساطلعك على الاخطاء المطبعية
التي وقعت في مقالي المنشور في المعرفة لتتلافاها
في الطبعة الجديدة ان شاء الله

ختاما ارق التحيات للاخ الكريم والقبلات
للحبيبين طه ومي واصدق الاحترام لامهما الفاضلة

من الحميم
رشيد سليم الخوري
القروي

شكر من رفائيل بطي الى حارث الراوي

البلاد

جريدة يومية سياسية
بغداد — العراق
صندوق البريد رقم ١٣٢
التلفون ٨٦٢٢٤

العدد ....

التاريخ ١١ أيلول ١٩٥٣

الاديب الاستاذ حارث طه الراوي المحترم

تحية واحتراماً

اشكر عاطفتكم النبيلة في كتابكم الرقيق واسأل الله ان يحفظكم ويزيد انتاجكم بسلامة وخير

المخلص

[signature]

رسالة من صلاح لبكي الى حارث الراوي

صلاح لبكي
محام لدى الاستئناف
بناية العازارية – شارع سوريا
تلفون : عازارية ٥٠١
بيروت

اخي حارث،

تحيات.

اني مرسل اليك بطاقة اشتراك تخولك حضور
المؤتمر على نفقتنا. سأرسل اليك تذكرة سفر ذهاباً واياباً تستطيع
ان تستلمها من مكتب شركة طيران الشرق الاوسط في بغداد لقاء
ابرازك البطاقة. اعذرني ان الجأ الى الايجاز فاني منهمك جداً
وجد متلهف على لقائك صاحبك الاكثر طموحاً
تحياتي تكراراً

بيروت في ٦ ايلول ١٩٥٤

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨٦٣ لسنة ١٩٨٦

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقيا موكيالي بيروت ص.ب ١١/٥٤٦ بيروت

منشورات وتوزيع المكتبة العالمية - بغداد
شارع السعدون - هاتف ٨٨٨٩٣٥٢

مطبعة الديواني - بغداد
هاتف : ٨٨٧٦١٩٧

منشورات وتوزيع

المكتبة العالمية

بغداد - شارع السعدون

هاتف ٨٨٨٩٣٥٢

الطبعة الاولى ١٩٨٦ بغداد

السعر ٥٠٠ر١ دينار ونصف

مطبعة الديواني - بغداد

هاتف : ٨٨٧٦١٩٧